هذه الطبعة **إهداء من المركز**
ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً



دراسات في اللّسانيّات العرفانيّة
الذّهن واللّغة والواقع

مباحث لغوية ٦٣

تحرير:
د. صابر الحباشة

تأليف:
د. عبد الرحمن محمد طعمة
د. الحبيب المقدميني
د. عفاف موقو
د. صابر الحباشة
د. عمر بن دحمان

مباحث لغوية ٦٣

دراسات في اللّسانيّات العرفانيّة
الذّهن واللّغة والواقع

تأليف:

د. عبد الرحمن محمد طعمة — د. الحبيب المقدميني

د. عفاف موقو — د. صابر الحباشة

د. عمر بن دحمان

تحرير

د. صابر الحباشة

١٤٤١هـ - ٢٠١٩م





دراسات في اللّسانيّات العرفانيّة
الذّهن واللّغة والواقع

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠١٩ م

المملكة العربية السعودية – الرياض
ص.ب ١٢٥٠٠ الرياض ١١٤٧٣
هاتف:٠٠٩٦٦١١٢٥٨٧٢٦٨ – ٠٠٩٦٦١١٢٥٨١٠٨٢
البريد الإليكتروني: nashr@kaica.org.sa

مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٤١هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحباشة، صابر
دراسات في اللسانيات العرفاني: الذهن واللغة والواقع../ صابر الحباشة .- الرياض، ١٤٤١هـ
..ص؛ .. سم
ردمك: ٨ -٦٤ -٨٢٢١ -٦٠٣ -٩٧٨
١ – علم اللغة أ. العنوان
ديوي ٤١٠ ١٨٢٣/ ١٤٤١
رقم الإيداع: ١٨٢٣/ ١٤٤١
ردمك: ٨ -٦٤ -٨٢٢١ -٦٠٣ -٩٧٨

التصميم والإخراج
دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com
المملكة العربية السعودية – الرياض
الهاتف:4562410 الفاكس:4561675
للتواصل والنشر:
info@wojoooh.com


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحرر

يفرض علينا نسق التطور العلمي عالميًّا ألّا نكتفي بالمتابعة والتعقيب على ما يصدر من بحوث ونظريّات في شتّى مناحي العلوم والفنون والمعارف، إذ أضحى من صميم دَيْن اللغة العربية علينا أن نواكب إيجابيًّا ما يصدر من الدراسات اللسانية أوّلًا بأوّل، فلا يرتخي بنا الزمام بل نستأنف القول على جديد النظريّات والبحوث فور صدورها ونلاحقها في مظانّها، ونُنشئ شبكة تحليل خاصّة بنا تقوّي ارتباطنا بها ينشأ من طارف المعارف، فإمّا أن نُقبل عليها ونقبل بها ونجرّبها ونمتحن مدى انسجامها مع متطلباتنا العلمية وحاجاتنا الثقافية ونبلو مدى انصهارها في بوتقتنا الحضارية التي تجتمع فيها معالم الخصوصية العربية الإسلامية ومظاهر الانفتاح الكوني في استرسال تُوجبه إقامةٌ لنا على هذه الأرض تنهض على التفاعل الخلّاق وتنبني على طلب الحكمة والفهم، وإمّا أن نظلّ في معزل عن حركة البحث اللساني عالميًّا حذرًا من كلّ وافد ورغبة عن كل تجديد. وما الركون إلى الخيار الثاني بأمر رُشد، لمن له مُسكة من عقل.

الدراسات السابقة

لقد أدّت بنا متابعة الاهتمام العربي للمقاربة العرفانية (المعرفية/ الإدراكية)[1] وصفًا وتحليلًا وتقييمًا، إلى تصنيف الحصيلة تصنيفًا يجعلها لا تخرج عن **التعريف** و**التأليف** و**التأصيل**:

- فأمّا **التعريف** فيتجلى في ترجمة فصول وكتب ومصنفات غربية في هذه المقاربة (تتفاوت قيمة من حيث النصوص الأصلية وجودة من حيث الترجمات العربية) أو في عرض موضوعي لبعض النظريات العرفانية، أو في وضع تمهيد مدرسي للطلاب عبر تقديم النظريات العرفانية وتبسيطها وذكر مبادئها.
- وأمّا **التأليف** فيظهر في تطبيقات جزئية (لهذه النظرية أو تلك: نظرية المزج، الاستعارة المفهومية/ التصورية، الفضاءات الذهنية لفوكونييه، النحو العرفاني للانقاكر...) على اللغة العربية إما بطريقة عامة أو انطلاقًا من مدوّنة نصّية.
- وأمّا **تأصيل** العرفانيات فيتجلّى في محاولة إيجاد عُرى توثق الصلة بينها وبين المدوّنة اللغوية في التراث اللساني العربي، وإن بطريقة محتشمة حينًا وبطرائق متعسّفة أحيانًا.

وبالمقابل فإننا نشهد انصراف عدد من الباحثين اللغويين العرب عن المنهج العرفاني، بل إنّ منهم من ناصبه العداء، إمّا جهلًا به أو تجاهُلًا له من منطلقات بنيوية أو تراثية على حدّ سواء.

صعوبة البحث

يتجلى عُسر المسألة في أمور كثيرة، منها قلّة معارفنا عن الجانب الذهني، فلئن كانت «المعرفة هي نتاج التلاقي بين أفكارنا المسبقة والواقع في العالم الخارجي [...] فإن ما نعرفه عن طريقة معالجة المعلومة في الدماغ قليل جدًّا، ممّا يعسّر شكلنة الأشياء»[2]. تنضاف إلى ذلك حداثة المنهج العرفاني في منشئه الغربي (إذ لم يتجاوز العقود الأربعة)

1- Cognitive Approach.

2- Thierry Poibeau and Aline Villavicencio (Editors), Language, cognition, and computational models, Cambridge, Cambridge University Press, 2018, p3.

وفي تشتت التلقي العربي له، وعدم التمكّن من مفرداته وعدم التنسيق بين الباحثين المهتمين حتى في ترجمة مفرداته (التي تتفاوت الاجتهادات في شأنها تفاوتًا) وبخاصة في عدم بلوغ التلقي العربي لهذا المنهج مرحلة الإبداع فيه وتأصيله...

أهداف البحث

نهدف في هذا الكتاب الذي يسعى لتعريف القارئ العربي المهتمّ ببعض المعارف والمفاهيم وأدوات التحليل التي تستعملها المقاربة العرفانية، إلى تسويغ النظر فيما تطرحه تلك المقاربة على اللغة العربية من إشكاليات التنظير والتطبيق، في المقامات العلمية والتعليمية. مثلما نهدف إلى إزالة التخوّف والتوجّس من هذه المقاربة وتجاوز الإشكاليّات الشكلية (من قبيل الاختلافات الاصطلاحية بين الباحثين العرب: اللسانيات العرفانية، الإدراكية، العرفنة، التعرّف، المعرفية...)، لكي نصل إلى ترسيخ القول في هذه المقاربة تمهيدًا لبلوغ وضع لبنات إنتاج المعرفة في هذا المجال.

توزيع الفصول

يجد القارئ في هذا الكتاب فصولًا متكاملة ألّفتها مجموعة من الباحثين المتخصّصين الذين يشتغلون على مشروعات بحثية تعتمد المقاربة العرفانية وتحاول استثمار جوانب منها في دراسة اللغة العربية. ورأيت أن أُسهم في الكتاب بإبراز وجوه العلاقة بين الاتجاهين العرفاني والتداولي.

وقد ارتأينا أن يتخذ ترتيب الفصول طابعًا منهجيًّا يبدأ من الذهن ويمرّ باللغة (نحوًا ودلالةً) ليصل إلى الواقع في المقام التربويّ والمنظور التداولي [1]. لذا فإننا نقترح على القارئ المهتمّ باقةً من البحوث التي حاول فيها مؤلفوها اقتناص مقترحات الاتجاه العرفاني النظرية ورصد آفاقه التطبيقية.

إذ تكاد الدراسات اللسانية منذ بداية القرن العشرين تتفق على اعتماد مستويات (صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية، ثم تداولية) في تحليل البيانات اللغوية أصواتًا ووحدات صرفية وتركيبية ودلالية وتداولية. وعلى الرغم من اختلاف المدارس

١- وهو منطق ينطلق من المتصوّر في الأذهان إلى المتحقّق في الأعيان.

اللسانية في إيلاء فضل عناية بمستوى منها على سائر المستويات، أو في جعل أحد المستويات متحكّمًا في غيره، فإن عموم الدارسين قد ارتضوا أن تُعالَج اللغة انطلاقًا من هذه المستويات.

ولمّا كان الاتجاه العرفاني (المعرفي، الإدراكي) (Cognitive linguistics) من الاتجاهات اللسانية التي ظهرت بعد رسوخ مستويات التحليل المذكورة، فقد اتجه الباحثون العرفانيّون إلى استثمار هذا الاتجاه في دراسة تلك المستويات، ووظّفوا ما يُتيحه من أدوات في معالجة مباحثها، مع تحفّظهم على القسمة المذكورة لتلك المستويات اللسانية...

ويضمّ هذا الكتاب الجماعي فصولًا تطرّقت إلى معالجة الاتجاه العرفانيّ للجوانب التركيبية والدلالية والتداولية في اللغة والذهن. ويشكّل الفصل الأول الذي أنشأه الباحث د. عبد الرحمن محمد طعمة تمهيدًا يضع سائر الفصول في إطارها، لا سيما أن الدراسات العرفانية الجادّة لا تزال قليلة باللسان العربي، فالحاجة لا تزال ماسّة للتعريف بهذا الاتجاه في أهمّ مقارباته وطرائقه ومصطلحاته وأهدافه. كما قدّم هذا الفصل مداخل علمية بينية ذات صلة بالنظرية اللسانية العرفانية المعاصرة؛ وقد وقف الباحث على أطروحة تقرير «سلون» الممثّل لبزوغ العلم العرفاني عمومًا في حقل فلسفة العلوم الغربية، مثلما عرض بعض مرتكزات بنائية المعجم الذهني، وانتهى الباحث إلى فرضية «وهم المعرفة» التي تمثل- من وجهة نظره- مدخلًا جديدًا منفتحًا على علوم أخرى تبحث في الظاهرة اللسانية الإنسانية وتعالقها مع مباحث الكون.

أمّا الفصل الثاني فقد عُنيَت فيه الباحثة د. عفاف موقو بتحليل ملامح من الأبنية الذّهنية للفضاء في النحو العربي؛ إذ اقترحت قراءة لإشكالية مَقْولة الظروف في تراثنا النحوي العربي، وذلك اعتمادًا على نماذج من المصنّفات النحوية القديمة. وأجرت دراستها على طريقة تمثيل اللّغة للفضاء من خلال الكشف عن الأبنية النّاشئة عن تعيين الصّورة على أساس خلفيّة مفردة. وانتهت الدراسة إلى الإقرار بأنّ ظروف المكان عناصر نحويّة تؤدّي دورًا مركزيًّا في بَنْيَنة المقولة التصوّريّة للفضاء. ومردّ ذلك أنّها تحدّد الأبنية الذّهنيّة الممثّلة للفضاء، من خلال الاختيار النّظاميّ لبعض مظاهر مشهد فضائيّ معيّن وترشيحها لتمثيل المشهد الفضائيّ الكليّ دون سائر مظاهره المكوّنة له. مثلما

حاولت الدراسة في جانبها التطبيقي الإحاطة بالتمييزات الفضائيّة الرّئيسيّة النّاشئة عن الظروف بما هي عناصر نحويّة.

واهتمّ الباحث د. الحبيب المقدميني في الفصل الثالث باستعراض الإطار النّظريّ العامّ للسانيات العرفانيّة، ثمّ تطرّق إلى أهمّ المبادئ في دراسة الدّلالة وخاصّة مفهوم الموسوعيّة، واهتمّ بتقديم مقاربة طالمي في الدّلالة اللّغويّة التي سعت إلى تبويب القدرات العرفانيّة الإدراكيّة وتنضيدها وفق تصوّر معيّن، يسهم إجرائيًّا في فهم الكثير من الظّواهر الدّلاليّة النّحويّة. مثلما عرض الباحث الخطاطات الذهنية المنبثقة من التّجربة الجسديّة بوصفها خلفيّات تمكّننا من فهم الدّلالة اللّغويّة أو غيرها من الأنظمة العلاميّة.

وعالج الباحث د. عمر بن دحمان في الفصل الرابع تطبيق المنظور العرفاني في مجالات تتصل بإنتاج الخطاب وتلقيه في المقام التربوي، واهتمّ بإحدى الآليات والاستراتيجيات الخطابية المعتمدة التي عُدّت أساسية ومركزية ولا غنى عنها في الفهم والإفهام والتواصل بشكل عام، ألا وهي التفكير التمثيلي أو القياسي في مظاهره المختلفة. وحاول الباحث إبراز أهمية تجلياته في اللغة والخطاب من منظور عرفاني وإسهامه المركزي في عملية بناء المعنى وتأويله في أثناء التواصل، وبخاصة بعد المكانة التي صارت تحظى بها ظاهرة الاستعارة بعد اكتشاف أهميتها ودورها المركزي في الأنشطة البشرية الحياتية اليومية. وقد رصدت، في هذا الإطار، بعضُ الأبحاث ذات المنطلق اللساني العرفاني الحضورَ الاستعاريَّ والتمثيليَّ في المقام التربوي بوصفه من الأنشطة الإنسانية الخصبة التي تُستخدم فيها استراتيجيات تواصلية وإبلاغية يوظفها المعلمون والتربويون من أجل إيصال الفكرة إلى المتعلمين الذين يُطلَب إليهم التفاعل مع ما يُعرض عليهم سواء أكان ذلك داخل الصف أم عبر المناهج والمقررات التعليمية.

ونظر الباحث د. صابر الحباشة في الفصل الخامس في وجوه التهجين والمزج والتوليد الممكنة بين المنظورين العرفاني والتداولي. فإذا كان المُعوَّل عليه في الدراسات العرفانيّة هو تنشيط العمليّات الذهنية في إنتاج الدلالة، فإنّ الدراسات التداولية (وهي رافد من روافد الاتّجاه العرفانيّ) تركّز على أهمّيّة السّياق في إنتاج المعنى. إذ تأتي المقاربة الهجينة لتبرز تأثير السّياق المهمّ في بيئاتنا العرفانيّة، ومن ثمّ فلا مجال للفصل أو لعزل

البيئة الذهنية عن التفاعلات الواقعية، إلا عزلًا أو فصلًا إجرائيّين بهدف الدراسة والاختبار، فالأقوال والخطابات تُحلَّل عرفانيًّا وتداوليًّا في ضرب من الاسترسال والتراكب.

ولعل ممّا أنبأنا به الاشتغال على مباحث هذا الكتاب الجماعي، الذي نرجو أن يحقق غاياته، أن المكتبة العربية اللسانية أحوجُ ما تكون إلى معجم موضوعيّ متخصّص في مفاهيم اللسانيّات العرفانيّة، يشرحها ويقرّبها من الباحث والطالب اللسانيّيْن ويبيّن فائدتها ويقرّب المصطلحات العربية الدالّة عليها. ولعلّ مثل هذا المشروع جدير بأن يرعاه مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، صنيعَه في سدّ ثغرات أخرى نظيرة[1].

ولا يسعنا إلّا أن نشكر القائمين على مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية على جهودهم العلمية الحثيثة والمخلصة في تمكين الباحثين المتخصصين من فرص النشر العلمي المحكّم لأحدث ما تموج به الساحة العالمية من بحوث لغوية ودراسات لسانية من شأنها أن تعود بالنفع العميم على اللغة العربية ومتكلّميها وطلابها.

والله ولي التوفيق.

المحرر/ صابر بن محمود الحباشة

١ – منها على سبيل الذكر لا الحصر: معجم اللغة المسرحية مع ثبت في المصطلح للتيجاني الصلعاوي ورمضان العوري.

تعريف بالباحثين المشاركين في التأليف

د. عبد الرحمن محمد طعمة: أستاذ اللسانيات المساعد بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة القاهرة. وهو عضو هيئات تحرير الكثير من الدوريات العلمية والمراكز البحثية العربية والأجنبية. وله مشاركات كثيرة في المؤتمرات العلمية العربية والعالمية اللسانية والتعليمية. وقد نشر أكثر من ٢٥ بحثًا متخصصًا في اللسانيات ونظرية المعرفة والثقافة والدراسات القرآنية. له عدد من الكتب المنشورة منها: «اللغة والمعنى والتواصل: النموذج العرفاني وأبعاده التداولية» (٢٠٢٠)، و«البناء الذهني للمفاهيم: بحث في تكامل علوم اللسان وآليات العرفان» (٢٠١٩)، و«توظيف علم الدلالة المعجمي في حقل التفسير القرآني: مقاربة تحليلية في علم الدلالة التفسيري» (٢٠١٨)، و«البناء العصبي للغة: دراسة بيولوجية تطورية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية» (٢٠١٧)، و«النظرية اللسانية العرفانية: دراسات إبستمولوجية»، بمشاركة د. أحمد عبد المنعم (٢٠١٩)، و«اللسانيات والمعرفية والتربية بين الأوّليات والأوْلويات» [اشتراك] (٢٠١٥).

د. عفاف موقو: أستاذةُ اللسانياتِ المشاركةُ بالجامعة التونسية، درّست بجامعة هارفرد في الولايات المتحدة الأمريكية. تتنزّل بحوثها الأكاديمية ضمن مجال اللّسانيّات العرفانيّة، وقد اهتمّت أعمالها بالجانبيْن المعجمي والنحوي. فأمّا الجانب المعجمي، فيضمّ أعمالًا عدّة لعلّ أهمّها: أطروحة الدكتوراه التي حملت عنوان «التصوّرات المجازيّة في القرآن: مقاربة عرفانيّة لبلاغة النصّ القرآني»(٢٠١٤)، ورسالة الماجستير التي تناولت فيها بالدرس مفهوم الدّلالة الإيحائيّة من خلال تطبيقات على الشّعر العربي

الحديث (٢٠٠٧). وأمّا الجانب النّحوي، فيضمّ أعمالًا متنزّلة ضمن النحو العرفاني أهمّها بحث التأهيل الجامعي «الأبنية الذّهنيّة للفضاء: مقاربة نحويّة عرفانيّة لظروف المكان»(٢٠١٩)، ومقال «توليد الأبنية اللّغويّة عبر تقنية الضّغط التصوّري في إطار نظرية المزج»(٢٠١٥).

د. الحبيب المقدميني: أستاذ مبرّز مميّز درجة استثنائيّة بالمعهد العالي للّغات التّطبيقيّة والإعلاميّة بباجة (تونس) منذ ٢٠٠٦. حاصل على الأستاذيّة في اللّغة والأدب والحضارة العربيّة وشهادة التّخرّج من دار المعلّمين العليا في تونس سنة ٢٠٠٥، ثمّ شهادة التّبريز في اللّغة العربيّة سنة ٢٠٠٦. تحصّل على الماجستير في اللّسانيّات النظّريّة والتّطبيقيّة العربيّة سنة ٢٠١١ بملاحظة حسن جدًّا، وهو عضو وحدة البحث اللّسانيات العرفانيّة واللّغة العربيّة منذ ٢٠٠٦، أنجز أطروحة دكتوراه بعنوان «التعبير عن الألم في اللّغة العربيّة: دراسة في إطار نظريّة الجسدنة» (يناقشها قريبًا). له مشاركات ومقالات في ندوات ومنشورات علميّة مختلفة في محور اللّسانيات العرفانيّة.

د. عمر بن دحمان: أستاذ محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، بجامعة تيزي وزو (الجزائر). حاصل على شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، باحث بمخبر تحليل الخطاب بالقسم نفسه، وعضو هيئة تحرير مجلة الخطاب الصادرة عن المخبر المذكور. له عدة مقالات منشورة في مجلات وطنية ودولية، صدر له كتاب حول نظرية الاستعارة التصورية والخطاب الأدبي (مصر ٢٠١٥). يهتم في بحوثه ومشاريعه بتطبيق النظريات المعرفية/ العرفانية في المجالات اللغوية والأدبية، وتحليل الخطاب عمومًا.

د. صابر الحباشة: أستاذ اللغة العربية المساعد بكلية التربية في جامعة زايد، بدولة الإمارات العربية المتحدة. تحصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة منوبة في تونس عام ٢٠١٢، ألف عددًا مهمًّا من الكتب في اللسانيات العرفانية والتداولية، منها «المشترك الدلالي في اللغة العربية: مقاربة عرفانية معجمية» (٢٠١٥)، «التداولية والحجاج» (٢٠٠٨)، «الأبعاد التداولية في شروح التلخيص للقزويني» (٢٠١٠)، بالإضافة إلى ترجمات عدّة منها «التداولية من أوستن إلى غوفمان» لفيليب بلانشيه من الفرنسية (ط١. ٢٠٠٧، ط٢. ٢٠١٢) و«البنية الاجتماعية السردية: شبكة تشريح الحديث النبوي» لرجب شانتورك من الإنكليزية (٢٠١٨)، بالإضافة إلى فصول في كتب جماعية وبحوث في مجلات محكمة عدّة. وله مشاركات كثيرة في تحكيم البحوث وعضوية اللجان الاستشارية وهيئات التحرير في مجلات لسانية عربية محكمة وبعض جوائز اللغة العربية، بالإضافة إلى المؤتمرات العلمية العربية والعالمية.

الفصل الأول

البعد الذهني في اللسانيات العرفانية: مدخل مفاهيمي

د. عبد الرحمن محمد طعمة [1]

١ – قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر.

تمهيد:

يتناول هذا الفصل **مدخلًا مفاهيميًّا** نحاول فيه أن نقارب (المنظور العرفاني في التحليل اللساني)، بالتركيز على **البعد الذهني** وآلياته العصبية، التي تتبلور من خلالها بعضُ القواعد المقررة في هذا الحقل المهم من العلوم البينية، فيما يخص الأطروحات الجديدة المتعلقة بفهم الظاهرة اللغوية الإنسانية وسيروراتها المتنوعة لمختلف الألسن.

وستبدأ الدراسة بعرض التقرير الشهير، المعروف بتقرير «سلون» Sloan، الذي صدر عام ١٩٧٨م، وكانت اللسانيات في المركز منه، ضمن مجموعة أخرى من المعارف العلمية؛ إذ كان التوجه نحو بناء نموذج «**عرفاني**» شامل، يجمع بين مختلف التخصصات، لتحقيق التكامل بين شتى العلوم، وسوف نُبين هذا تفصيلًا. من ثَم، نبدأ في تقديم المداخل المفاهيمية الخاصة بالمعجم الذهني (Mental Lexicon)، تمهيدًا لما سيُطرح تفصيلًا بالكتاب من التحليلات اللسانية العرفانية ذات الصلة، ونتوقف في هذا المدخل حول بعض القضايا المهمة، من مثل بنية المفاهيم ذهنيًّا، وارتباطها بحقل التصورات عمومًا، وآليات التخزين في الذاكرة، والاستدعاء، على سبيل المثال لا الحصر، مع مقاربة موجزة حول آلية «**الاقتصاد المعجمي الذهني**»، من خلال أمثلة تحليلية للغة العربية، ومقارنتها بالإنكليزية والألمانية. وينتهي هذا المدخل المفاهيمي بمقاربة أَطلقْتُ عليها «**فرضية وهم المعرفة**»، أُبيّن من خلالها كيف أن الدماغ هو جهاز كوني معجز، يقوم بالكثير من الحِيل، ويُكوّن الشبكات، ويُدمج العناصر، ويوفق بين المؤتلف والمختلف ... إلخ، لأجل تثبيت المفاهيم، مراوحةً بين عالَمي (الأذهان والأعيان)، وذلك بتقديم بعض الأمثلة في اللغة العربية، مع مقارنتها بالإنكليزية كذلك، بهذا الخصوص.

بذلك يكون هذا المدخل المفاهيمي مزدَلَفًا لما سيُطرح لاحقًا من تفصيلات حول التحليل الدلالي والنحوي وآفاق التداولية، من خلال المنظور العرفاني في اللسانيات المعاصرة.

الكلمات المفتاحية:

المعجم الذهني، العرفان، التصورات، المفاهيم، تقرير «سلون»، اللسانيات، الظاهرة اللغوية

أولا- مركزية النظرية اللسانية العرفانية ضمن إطار فلسفة العلوم (تقرير «سلون»):

إن تتبُّعَ مسار التطور الأنثروبولوجي والأحيائي للفكر الإنساني، وللغة الإنسانية بالتبعية- بوصفها مركزَ هذا الفكر ومُحرّكه- هو من أخطر القضايا العلمية المعاصرة، ولا يمكن القول إننا قد نأتي إلى القول الفصل في تلك المسائل، لكننا نحاول فهمها من خلال التحليل والمقاربات. وعمومًا فإن التفكير في طبيعة المعرفة الممكنة يمكن أن يحدث على ثلاثة مستويات [1]:

أ- **المستوى الحيوي أو البيولوجي (Biological)**: ويتمثل في الدماغ بوصفه شبكة نظامية مكونة من ملايين العصبونات (النيورونات) المترابطة التي تشكل خلفية البناء الفكري للذهن الإنساني.

ب-**المستوى التمثيلي (أو الإدراكي) Perceptual**: ويتأسس حول بحث كيفية تمثيل المعرفة الموجودة في العالم وبلورتها بصورة مفاهيم داخل الدماغ، وهو الأمر المعروف بمصطلح **التمثيلات الذهنية**.

جـ - **مستوى المعالجة المعلوماتية Information Processing**: وهو الذي ينظر إلى الفكر بوصفه نسقًا مجرّدًا لمعالجة المعلومات؛ حيث يكون التركيز على دراسة كيفية انتقال المعلومات داخل الشبكة العصبية (النيورونية) بوصفها نسقًا وظيفيًّا، من دون الإحالة إلى ما تمثله المعلومة خارج الدماغ **(استعارة الذهن - الحاسوب)**. علمًا بأن المعالجة المعلوماتية بنمطيها: **الإدراكي** (إدراك شيء ما) **والرمزي** (فهم الجملة وتمثيلها العصبي وتخطيطها الذهني) كل هذا يحدث من خلال منظومة من المقولات والمفاهيم التي تتحكم في تمثيل العالم وتنميطه ونمذجته داخل ذهن الأفراد من بني الإنسان [2].

١- محمد الوحيدي: «اللسانيات وعلم المعرفة.. اللغة وبنية المعرفة البشرية»، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد ١٧٥، سبتمبر، ٢٠١٨، ص ١٧٣. بتصرف.

٢- للمزيد من التفاصيل:
De Mey, M: The Cognitive Paradigm, University of Chicago Press, 4th ed, 1992, p 5.
وانظر كذلك، عبد الرحمن طعمة، وأحمد عبد المنعم: النظرية اللسانية العرفانية، دراسات إبستمولوجية، دار رؤية للنشر، القاهرة، طـ١، ٢٠١٩، ص ١٥٦ وما بعدها.

وكل هذه المستويات لا يمكن البحث فيها بمنأى عن فهم الظاهرة اللغوية وسيروراتها العرفانية وتداخلها القوي المتشابك مع مختلف العلوم؛ فلا يمكن دراسة المفهوم الأكبر (العقل) من دون بحث اللغة. ولذلك فإن العلوم العرفانية تدرس **الإدراك البشري** بوصفه ظاهرة اتصالية عابرة للتخصصات، من أجل الوصول إلى مقاربة معاصرة تهدف إلى الفهم والتفسير، من خلال الاستعانة بمجموعة من المعارف المتكاملة، كما سنوضح في تقرير سلون بعد قليل، على رأسها: اللسانيات والفلسفة العامة وفلسفة العلوم والعلوم العصبية والحاسوبيات. ويمكننا هنا رصد **أربعة مجالات مهمة تمثل أركان هذه المقاربة العرفانية**[1]:

- التركيب والبناء في الذهن والمعرفة، وعمليات التفاعل بينهما.
- النماذج التمثيلية للمعرفة (Paradigms of Knowledge).
- موارد المعرفة ومصادرها (Knowledge Resources).
- الأجهزة المولّدة للمعرفة (Knowledge Devices).

ولغة الإنسان، تبعًا لهذا التصور، هي الجهاز المركزي الرابط لُمجمل العلوم العرفانية، بل إن **الدماغ البشري** هو **نموذج كوني** مُصغر، ولذلك أمكننا الإفادة من العلوم الطبيعية، مثل الفيزياء الكونية والرياضيات، في تطوير النماذج اللسانية المعاصرة، ما أدى إلى ثورة هائلة في حقل اللسانيات التطبيقية، خصوصًا فرع تعلُّميّة (didactics) اللغات.

---

١ – عبد الكريم جيدور: «اللسانيات العرفانية ومشكلات تعلم اللغات واكتسابها»، مجلة العلامة، مخبر اللسانيات النصية وتحليل الخطاب، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد ٥، ٢٠١٧، ص ٣٠١.

ومن أهم نتائج هذه المقاربة العرفانية ذات الطبيعة العلمية البينية:

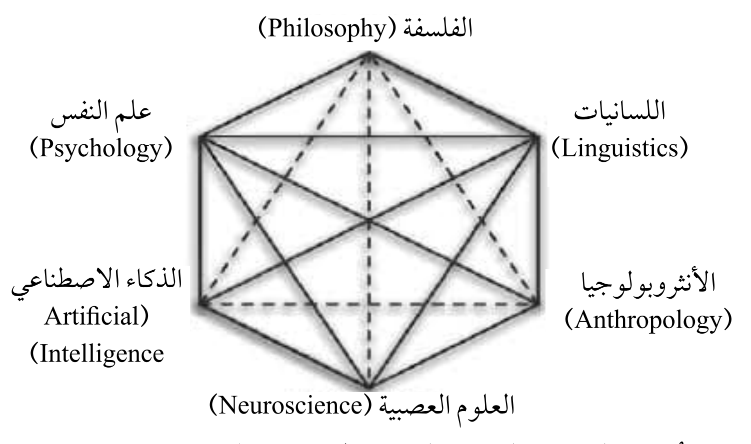
- **اللغة الإنسانية** ليست قدرة عرفانية منفصلة عن غيرها من القدرات، بل إنها تمثل مركز شبكة عرفانية عصبية لا حدود لها [1].
- **القواعد اللسانية** هي نوع من **التجريد**، وفقًا لتشومسكي ومذهبه، تقوم- فحسب- بمفْهَمة (Conceptualization)؛ أي بعمليات بناء مفاهيمية وتصوّرية لأجل مساعدة الذهن على التحصيل والفهم والتواصل.
- **المعرفة اللغوية** تنبثق من خلال استعمال اللغة وتداولها (انظر فقرة «**وهم المعرفة**» نهاية هذا الفصل).

من هنا بدأت دراسة العلاقة الوطيدة بين اللغة ضمن علم اللسانيات وغيره من المعارف والعلوم عام ١٩٧٨، من خلال التقرير الشهير حول وضع علم المعرفة (بالمصطلح الشامل) بما يشمله من حقول وبينيات وأفرع ... إلخ، وهو التقرير المعروف باسم **تقرير سلون (Sloan Report)**، الذي تم بناءً على طلب من مؤسسة «ألفريد سلون» لدراسة الحقول الموحدة التي يتشكل منها مجموع العلوم والمعارف التي تتآزر لأجل

١- يقترح الباحثون العرفانيون إمكانية فحص القدرة اللغوية من خلال جانبين: جانب تشترك فيه كل الأنواع والفصائل داخل مملكة الحيوان، وعلى رأسها الإنسان، ويُعرف ذلك **بالمعالجة الواسعة النطاق للغة** Faculty of Language in Broad Sense FLB. وهنا تتألف هذه القدرة من ثلاثة قواسم مشتركة:
١- **النظام الحسي الحركي** Sensory-Motor System.
٢- **النظام المفاهيمي التصوري** Conceptual-Intentional System.
٣- **الميكانيزمات الرياضية الحاسوبية الخاصة بعمليات الاستدعاء الذاتي للدماغ الإنساني.**
وفي هذا الجانب تقوم القدرة اللغوية بوظيفة كونية تتألف من توليد لانهائي لفئات لا نهائية من العبارات، من خلال مجموعة محددة من الوحدات (راجع **نحو الحالات المحدودة** Finite State Grammar FSG).
الجانب الآخر هو المعالجة الخاصة بالتفرد الإنساني باللغة، ويُعرف ذلك **بالمعالجة ذات النطاق الضيق** Faculty of Language in Narrow Sense FLN. وهنا تتكون اللغة من مُكوّن واحد فقط هو (**عمليات الاستدعاء الذاتي من المعجم الذهني**)- كما سنوضح بهذا الفصل- وهي المسؤولة عن قدرة الإنسان على تَكرار جُمل متشابهة ذات تسلسل منطقي تتصف باللانهائية. والأمر هنا شبيه بدوال التكرار اللانهائية في الرياضيات (مثل أنماط التوالد الذاتي في هندسة «ماندلبروت» الكسيرية، ومتواليات «فيبوناتشي» ... إلخ). انظر للتفاصيل:
- عبد الرحمن طعمة: «هندسة ماندلبروت الكسيرية نموذجًا للتطبيق اللساني»، **مجلة الممارسات اللغوية**، مخبر الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، المجلد ١٠، العدد ١، ٢٠١٩، ص ٢١٥ وما بعدها.
- Mark D. Houser, Chomsky (et al): "The Faculty of Language: what is it? Who has it? and how did it evolve", Science Magazine, Vol 298, 2002, p-p 1569-1579.

البحث في طبيعة المعرفة الإنسانية وتاريخ الجنس البشري. وقد التقت لجنة العمل به في مدينة «كانساس» الأمريكية، وضمّت حلقات ونقاشات شملت علماء نفس ولسانيين وعلماء أعصاب وفلاسفة وأنثروبولوجيين وعلماء حاسوب ومعلوماتية. ومنذ وقت صدوره انطلقت الثورة العرفانية بخُطًى هائلةٍ للبحث في علوم الدماغ وتاريخ الفكر وتطور الإنسان ... إلخ. وبرأيي، فإن التقرير يمثل أقوى ردود فعل المجتمع العلمي على الطرح الكبير (بنية الثورات العلمية) لفيلسوف العلم الأمريكي «توماس كون» عام ١٩٦٢، الذي أعاد النظر إلى فكرة التراكمية في العلم، وفتح المجال أمام **نموذج إرشادي** في جسم المعارف تؤدي إلى ضرورة البحث في **نماذج إرشادية جديدة** [١]، تؤدي بدورها إلى ثورة في الفهم، لأن الثورات العلمية، مثل تلك التي أطلقها «أينشتاين» على سبيل المثال، هي التي تقطع المسار التقليدي في البحث وتجدد أنماط التحقق والاستكشاف.

نتج عن تقرير «سلون» بلورة **نموذج تخطيطي** للحقول المعرفية التي يتشكل منها العلم العرفاني العام، اشتُهر باسم **سُداسيّ (Hexagon) العلاقات العرفانية البينية** بين العلوم[٢]:



سُداسيّ العلاقات العرفانية البينية كما في تقرير «سلون» Sloan ١٩٧٨

١- كل **بنية نظامية** في إبستمولوجيا العلوم تنطوي على **نموذج إرشادي (paradigm)** غير مفهوم، لكنه موجود داخل النمط؛ وهذا النموذج الإرشادي هو الذي يضمن- إبستمولوجيًّا- استمرارية الظاهرة العلمية والكونية عمومًا، فلا شيء كاملًا؛ فدومًا هناك شيء غير مفهوم داخل النظام، هذا الشيء يتسع أكثر فأكثر حتى يتحول من **نموذج إرشادي إلى آخر** يوضح الغموض، من ثم ينطوي على نموذج إرشادي جديد، وهكذا. وهذا هو منشأ النظريات وتطويرها وتفسيرها ... إلخ.

٢- لتفاصيل حول تقرير سلون ونشأة فكرة هذا المخطط:

Miller, George A: "The Cognitive Revolution; A Historical Perspective", TRENDS in Cognitive Sciences, Vol.7, No.3, Elsevier, 2003, p-p 142-143.

حيث تمثل الخطوط المتصلة العلاقات القوية بين العلوم المطروحة بالمخطط، والخطوط المتقطعة تمثل العلاقات الأقل قوة بينها. ويتضح من المخطط مركزية علوم الأعصاب واللسانيات وعلم النفس ضمن هذه الصلات بمختلف درجات ترابطها.

ويبين «ميلر»- وهو أحد العلماء الذين قاموا بصياغة التقرير [١]- سيرورة تشكل الطبيعة البينية للعلوم العرفانية وتداخلها العلمي، على نحو ما قال[٢]: «كانت علوم السيبرناطيقا[٣] تستخدم المفاهيم التي طورتها المعلوماتية لنمذجة وظائف الدماغ التي كشف عنها علم الأعصاب. وبطريقة مماثلة، كان فرعا اللسانيات والمعلوماتية مرتبطين من خلال اللسانيات الحاسوبية. واتصلت اللسانيات بعلم النفس من خلال اللسانيات النفسية. وارتبطت الأنثروبولوجيا بعلم الأعصاب من خلال الدراسات المتعلقة بتطور الدماغ، إلى آخر ذلك التشابك. واليوم أعتقد أن كل الروابط الخمسة عشر الممكنة قد مُثلت من خلال أبحاثٍ لها وجاهتها، وأن الروابط الأحد عشر التي رأيناها قائمة عام ١٩٧٨ قد تم تعزيزها».

ثانيا – الأسس العصبية العرفانية للمعجم الذهني:

الواجهة الأساسية بين اللغة والذهن هي أننا نملك **المعرفة** المُهيِّئة للفهم الشامل؛ إذ يوضح مبدأ التعاون التداولي، على سبيل المثال، أن شريك المحادثة يعمل معك للحصول على المعنى بصدق ووضوح، فإذا قلتُ لك: إذا تفضلتَ بقراءة المذكرة أكون لك شاكرًا!

1- George Miller, Samuel Jay Keyser and Edward Walker.

وقد روجع التقرير من خلال لجنة أخرى خبيرة، وتمخض عن برنامج للمنح العلمية لجامعات كثيرة، يُشترط فيها الطبيعة البينية للدراسات المقدمة. وكانت إحدى هذه المنح لعالم الأعصاب الشهير «مايكل جازانيجا»، ولكلية طب «كورنيل» Cornell. وأصبح كثير من العلماء – منذ ذلك الحين- قادرين على العمل ضمن أكثر من حقل معرفي، كما ازدهرت حلقات النقاش والندوات Colloquia and Symposia حول مختلف القضايا العلمية ذات الصبغة أو ذات الطبيعة البينية. راجع: Miller, Ibid, P 143.

2- Miller, Ibid, P 143.

٣- هو علم الترابط بين الإنسان والآلة، وموضوع السيبرناطيقا هو دراسة السيطرة والترابط والاتصال في الإنسان والآلة. وجّهت السيبرناطيقا العلم والعالم وقضت على المنطق التحليلي، وأصبح تضافر العلوم وتكاملها جميعا من الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء وعلم النفس والعلوم الاجتماعية ... إلخ، هو أساس المعرفة. للتفاصيل: عبد الرحمن طعمة: **البحث المعرفي المعاصر، نماذج من فلسفة اللغة وإبستمولوجيا العلوم**، القاهرة، دار النابغة، ط ١، ٢٠١٨، النموذج الأول من الكتاب.

فهذه سلسلة من الكلمات التي تعني تداوليًّا، وبما لا تقوله الكلمات، أنني أطلب مثلًا بأسلوب مهذب توقيعًا من رئيسي في العمل. وليس المقصود هنا في سياق التحاور أن يتفضل المخاطب بالنظر بعينه المجردة في المذكرة. هذا يدخل ضمن ما يمكننا أن نطلق عليه: **إضفاء الطابع التداولي على المعجم** في اللسانيات العرفانية. ومثال آخر، إذا سألتُ شخصًا باللغة الإنكليزية، فقلتُ: could you give me a hand?، فليس المقصود هنا هو المعنى الفيزيائي (أريد يدًا)، بل إن المقصود هو أنني أريد المساعدة. وهذا الأمر يفسر معظم كلام البشر، أعني أن البنية العرفانية للغة الإنسانية تقوم على ما يُسمى بـ **المزج التصوّري** بين الأشياء العينية في العالم، من خلال الاستعارات والمجازات والذكر والحذف ... إلخ، وعندما تدخل كل هذه المعرفة المتاحة عن الوجود- عرفانيًّا- إلى الدماغ، تمتزج بالمخزون العرفاني والوجداني العام. فالفهم اللغوي للعالم- إذن- متفاعل مع مخزون هائل من المعرفة البشرية التي تشمل السلوك الإنساني والعلاقات والخبرات ... إلخ؛ بحيث يكون لدينا تبادل عدد لا نهائي من الأفكار من خلال استخدام عدد أو مجموعة محدودة من الرموز والأدوات الذهنية:

المعجم الذهني الشامل + منظومة القواعد + الإطار التداولي

الأصول العرفانية للتمثُّل الذهني للعالَم:

لحازم القرطاجني طرحٌ لا يحسُن إغفاله بهذا الخصوص؛ حيث يرى أن «المعاني هي الصورُ الحاصلةُ في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان؛ فكل شيء له وجودٌ خارجَ الذهن فإنه إذا أُدرِكَ حصلت له صورةٌ في الذهن تُطابق ما أُدرِكَ منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظُ المعبَّرُ به هيئةَ تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم؛ فصار للمعنى وجودٌ آخرُ من جهة دلالة الألفاظ»[1]. وهذا نص جد خطير، يحمل رؤية عرفانية كبيرة، ربما نجد شبهها لها عند غيره من العلماء،

١- أبو الحسن حازم القرطاجني (١٢١١ - ١٣٨٦م): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس، دار الكتب الشرقية، ط ١، ١٩٦٦، ص ١٦٩.

مثل الغزالي[1]، مما لا مجال لتفصيله هنا، لكن القرطاجني قد فَصَّل وأفاض؛ إذ انصب اهتمامه على كيفية تشكيل الصورة وطريقة انتظامها؛ حيث تحمل الصورة عنده معنى **الاستعادة الذهنية** لُمدرَك حسي غير موجود في الإدراك المباشر، ومن ثم تصبح الصورة عنده ذلك الاسترجاع الذهني والتذكر للخبرات الحسية البعيدة عن الإدراك المباشر، الذي يُثار في مخيلة المتلقي عن طريق المنبهات اللفظية الحاصلة في الفعل اللغوي الأدبي، ويؤكد ذلك قوله: «ومحصول الأقاويل الشعرية تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الأذهان على ما هي عليه خارج الأذهان (عالم الأعيان) من حسن أو قبح حقيقة»[2]. فمادة المعنى إذن هي الطبيعة الخارجية المنطبعة في ذهن الإنسان، ومن ثم فإن كلام الإنسان هو صدًى مُعدَّل لهذه الحقائق الواقعية، لا يُشترط معه التطابق.

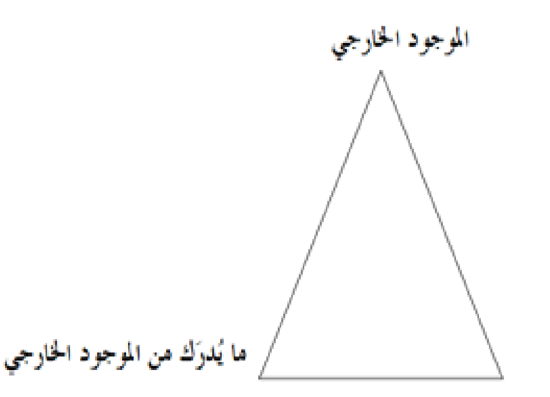
مدار النظر بهذا التوجه هو مسألة الترتيب بين (الموجودات) و(المعاني) و(الصور) الحاصلة عن تلك الموجودات داخل المعجم الذهني؛ بالأخذ في الحسبان أن «البحث في موضوع المعاني يفترض سلفًا هذا الوجود، بقطع النظر عن النقاش الذي يمكن أن يثيره ذلك الوجود ذاته»[3]. فالمرتبة الأولى للأشياء، والمرتبة الثانية للصور التي هي المعاني، وهذه ليست أصلية، وإنما مُتحصَّلة عن التعقل والتفهم والإدراك (الاشتغال الذهني العام). والأمر شبيه بما طرحه ابن سينا؛ فالصورة عند ابن سينا هي الشيء الذي تدركه النفس الباطنة والحسّ الظاهر معا، لكن الحسّ الظاهر يدركه أولًا ويؤديه إلى النفس، وذاك يجعلنا نفهم أن المعنى ليس هو الشيء ذاته، كما أوضح القرطاجني في النصّ، بل هو صورةٌ ورسمٌ تحصل عنه بالتجريد وبناء المُدرَكات على المحسوسات، بحيث لا نجد هناك تطابقًا، لأن التطابق لا يكون بين الموجودات والمعاني الحاصلة عنها

١- يُنسب إلى الإمام الغزالي قوله: «اعلموا أن كل شيء في هذا الوجود له أربع مراتب»:
وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان، ووجود في اللسان، ووجود في البياض المكتوب عليه؛ كالنار مثلًا، فإن لها وجودًا في التنور، ووجودًا في الخيال والذهن، وهو الوجود الذي يعني العلمَ بنفس النار وحقيقتها، ولها وجود في اللسان، هو الكلمة الدالة عليها؛ أي لفظ النار، ولها وجود في البياض المكتوب عليه بالرقوم. و(الإحراق) هو الصفة الخاصة بهذه النار.
راجع إحياء علوم الدين للغزالي، بيروت، دار القلم، طـ٣، د.ت، ص ٢٢٩.

٢- المنهاج، ص ١٢٠. وراجع أيضًا فاتن فاضل وأمل الشرع: «أصول ظاهرة التلاحق عند القدماء»، **مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية**، المجلد ٢٣، العدد ٣، ٢٠١٥، ص ص ١١٢١-١١٢٢.

٣- حمادي صمود: «نظرية المعنى في التراث العربي وأثرها في فهم وظيفة الصورة»، ضمن كتاب في **نظرية الأدب عند العرب**، جدة، النادي الأدبي الثقافي بجدة، طـ١، ١٩٩٠، ص ٢١.

بإطلاق أو بالضرورة، إنما التطابق يحصل بين المعاني وما أُدرِكَ من تلك الموجودات[1]، تأمل المخطط الآتي:



إن السمة الخاصة جدًّا باللغة الإنسانية هي **الترميز (Symbolization)**؛ فالبشر لديهم قدرة على استعمال شيء لتمثيل شيء آخر أو تصويره أو التعبير عنه أو الرمز له، ويمكننا ملاحظة سيطرة اللغة على الواقع المؤسسي الذي نعيشه من خلال ما أسماه سيرل (**مؤشرات الوضع**) من مثل خاتم الزواج والزي الرسمي والشارات وجوازات السفر ورخص القيادة ... إلخ، **فكل هذه الأمثلة لغوية**، حتى إن كانت لا تَستعمل الكلمات [2]؛ فلبس خاتم الزواج هو فعل كلامي مقبول- عُرفًا- يثير مفهومًا اجتماعيًّا مألوفًا، مفاده: أنا متزوج. وارتداء زي الشرطة كذلك: أنا شرطيّ، وإظهار جواز سفر سليم في المطار من دون أن تكون حتى على معرفة بلغة الفاحص هو رسالة لغوية بين عقلين واعيين يقول أحدها: إني مسافر إلى هنا ويَرُدُّ الآخر: تفضل أوراقك سليمة، وربما لم ينطق أي منهما ببنت شفة! هذا ما نتحدث عنه دوما حول بناء النماذج الإدراكية

١- للتفاصيل: حمادي صمود، المرجع السابق، ص ٢١ وما بعدها. وللمزيد من المناقشات والأطروحات، عبد الرحمن طعمة: **البناء الذهني للمفاهيم، بحث في تكامل علوم اللسان وآليات العرفان**، عمّان، دار كنوز المعرفة، ط١، ٢٠١٩.

٢- جون سيرل: **العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي**، ترجمة صلاح إسماعيل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، العدد ١٨١٢، ٢٠٠٦، ص ١٩٠. وانظر كذلك سوزان شنايدر: **الخيال العلمي والفلسفة، من السفر عبر الزمن إلى الذكاء الفائق**، ترجمة عزت عامر، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١، الفقرة (٢-١): المخ آلة نحوية تقود آلة دلالية، ص ٢٢٨، حيث أشارت إلى التحليل الحاسوبي للعمليات العصبية التفكيكية للمخ وكيفية الإفادة منها في بناء نموذج روبوت عاقل يمكنه الترميز وفك الترميز اللغوي لإنشاء نوع من التواصل.

العرفانية داخل المخ وقدرة الدماغ على التخمين والتنبؤ والتوقع ... إلخ، وفقًا لمطاطيته غير المحدودة. وقد اتجه الباحثون الآن في العلوم العرفانية إلى النظر للذهن على أنه صورة من صور **البرامج المعلوماتية**، ومن ذلك **التصور القالبي**[١] للغة، الذي يرى أن مكوناتها اللسانية ووحداتها منفصلة وتعمل بالتسلسل، الواحدة تلو الأخرى في الدماغ، ما يسمح لنا من خلال التطوير بالوصول إلى نموذج صناعي ذكي، يُخضع السيرورات العقلية للُّغة لمفاهيم فسيولوجيا الأعصاب التطبيقية، لتقديم نموذج إرشادي (Paradigm) واع بمنظومة اللغة، من خلال سلسلة للتمثل الرمزي في هندسة عصبية لسانية موازية، على نحو [٢]:

- يتكون العالم من أشياء ومن حالات هذه الأشياء.
- المعارف عبارة عن تمثلات رمزية للأشياء وحالاتها.
- تتحدد مهمة الذكاء الصناعي والسيكولوجيا واللسانيات في **إنشاء التمثلات الرمزية الخاصة بالمعارف، وبالكيفية التي يمكن عن طريقها الاشتغال حول هذه التمثلات**.

ولا يكتمل النموذج بالترميز وحسب، بل لا بد من الاقتران بإدراك كنه الأشياء، وهو أمر ليس لسانيًّا فحسب، بل هو مرتبط بالزمان والمكان والقصد ... إلخ، لأن إدراك أي ظاهرة يتوقف على محيطها المكاني وحيزها الزماني وتوجهها ... إلخ[٣].

١- التصوّر القالبي أو المنظوميّ (modular) يقول به كل من فودور وتشومسكي، على اختلافٍ بينهما. ويشرح صاحب الاتجاه التوليدي التصوّر القالبي للّغة، على النحو الآتي: «يستطيع الطفل بطريقة ما من الطرق أن ينتقي من محيطه الأجزاء التي تكون واردة من الجهة اللغوية ويعالجها بكيفية تقوده رأسًا إلى حيازة اللغة الباطنية التي يستطيع بعد ذلك أن يستعملها. فهذا قالب. إنه ليس قالبَ دخل، بل قالب اكتساب. إنه يتفاعل مع القوالب الأخرى ومع مكونات النسق المعرفي الأخرى على النحو نفسه تقريبًا الذي يتفاعل به الكبد والكُلية والجهاز الهضمي والدورة الدموية للوصول إلى اشتغال البدن برُمّته بوجه عام. نقلًا عن: «مفهوم القالبية لدى فودور ونعوم تشومسكي»، موقع أكاديمية علم النفس، الرابط: https://acofps.com/vb/65766.html

٢-للتفاصيل، البناء الذهني للمفاهيم، ص ٨٠.

٣- عالجنا هذه القضايا في بحث: «ميكانيزمات الإدراك في العقل البشري: دراسة في أساسيات اللغة والوعي من منظور تكنو – عصبي»، المجلس الدولي للغة العربية، مؤتمر اللغة العربية الرابع، دبي، المجلد (٩)، ٢٠١٥، ص ص ٣٩ – ٥٥.

المقاربات النظرية حول بنائية المعجم الذهني:

أ- المعجم الذهني له بعدان أساسيان: بعدٌ عصبيٌّ ذهنيٌّ، وآخرُ تمثُّليٌّ لسانيٌّ:

- **عصبيًّا وأنطولوجيًّا** (مستوى البنية الداخلية) = مجموعة واسعة من التمثيلات التي يمتلكها المتكلم لكلمات لغته، وتتنوع هذه التمثيلات بين: تمثيل صوتي، إلى تمثيل خطي إملائي (Graphological)، فتمثيل مورفولوجي، ثم تمثيل نحوي، وانتهاء بالتمثيل الدلالي.
- **لسانيًّا** (مستوى التحقق التواصلي) = مجموع الوحدات الدنيا التي تدل على معنى ما فيما يمتلكه الفرد من مخزونه، سواء وظَّفها في أثناء عملية التوليد (**المعجم التعبيري**)، أو في أثناء التحليل (**معجم التلقي**).

وتتعدد درجة تعقيد هذه الوحدات من: مورفيمات معجمية ونحوية، إلى توليفات من اللكسيمات (Lexemes)... إلخ[1].

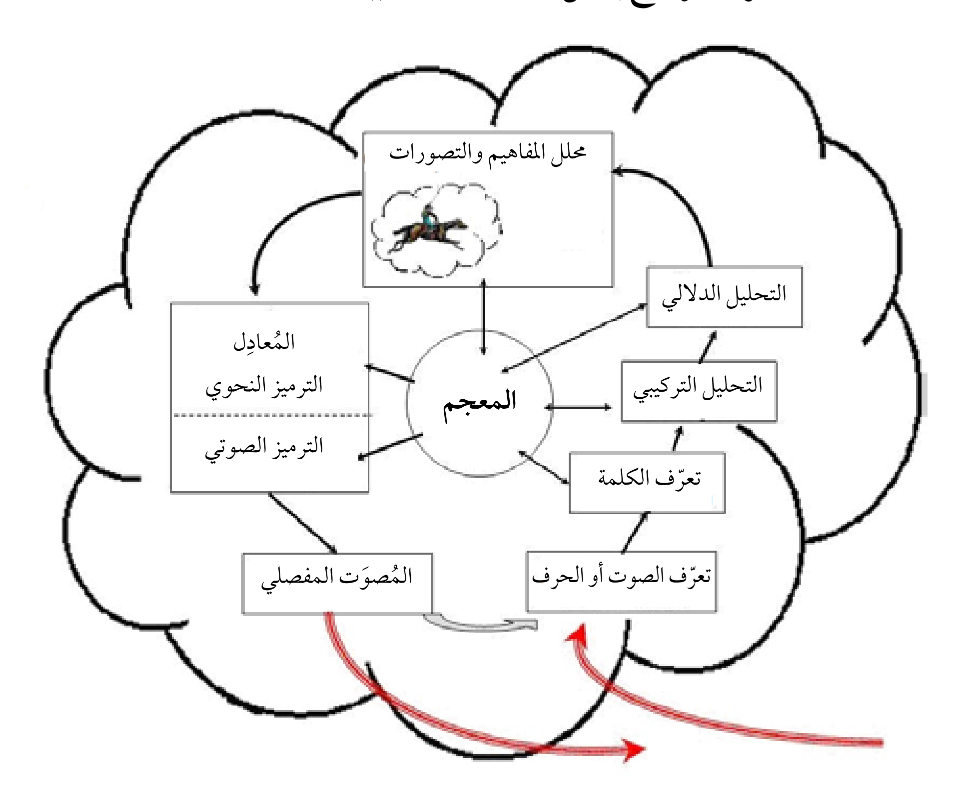
وتشير التقديرات التجريبية إلى أن المتحدث البالغ العادي لأي لغة بشرية يَعرف بالتقريب حوالي ٧٥٠٠٠ كلمة، وأن معجمه التعبيري يضم ما يقارب ٦٠٠٠٠ كلمة.

يُنتج المتحدث العادي في المتوسط ثلثي الكلمة في الثانية؛ وهو ما يعني: من ١٠٠ إلى ٢٠٠ كلمة في الدقيقة، مع نسبة ضئيلة من الخطأ تُقدَّر بحوالي ١/ ١٠٠٠، فهو نادرًا ما يجد صعوبة في الوصول إلى مخزونه المعجمي، والذي يستقر بشكل ملحوظ في حدود ٢٥ سنة من عمر الشخص[2].

1- Clark, E: The lexicon in acquisition, Cambridge University Press, 1993, p 69.

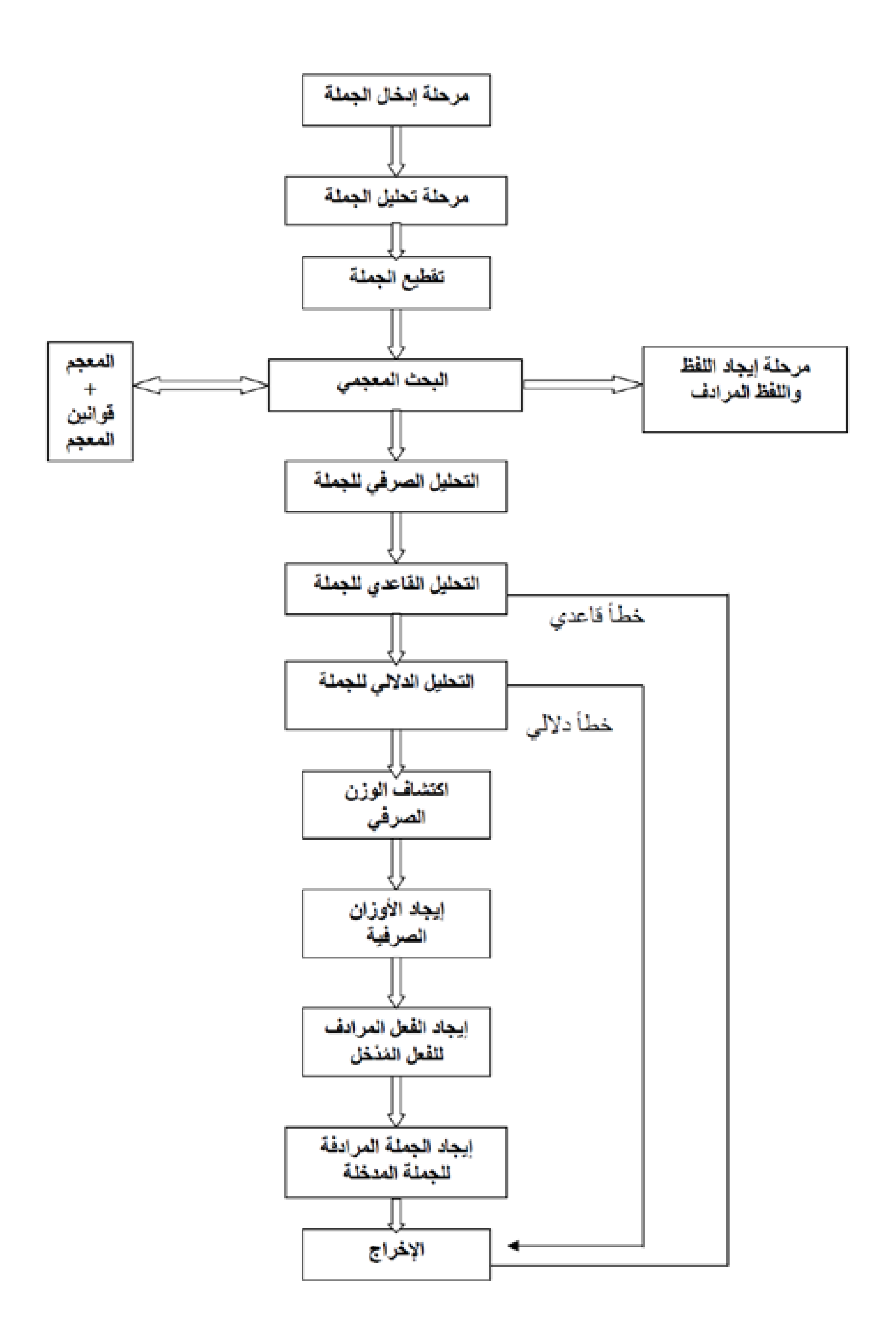
2- Wingfield, A, Alexander, A.H. & Cavigelli, S: "Does memory constrain utilization of top-down information in spoken word recognition? Evidence from normal aging", Language and Speech, Vol 37, Issue 3, 1994, Pp 221-235.

والخطاطة المرفقة توضح بعض الآليات الخاصة ببناء التمثيلات ذهنيًّا:



ويمكن توضيح درجة هذه التمثُّلات بصورة لسانية بالمخطط الآتي:

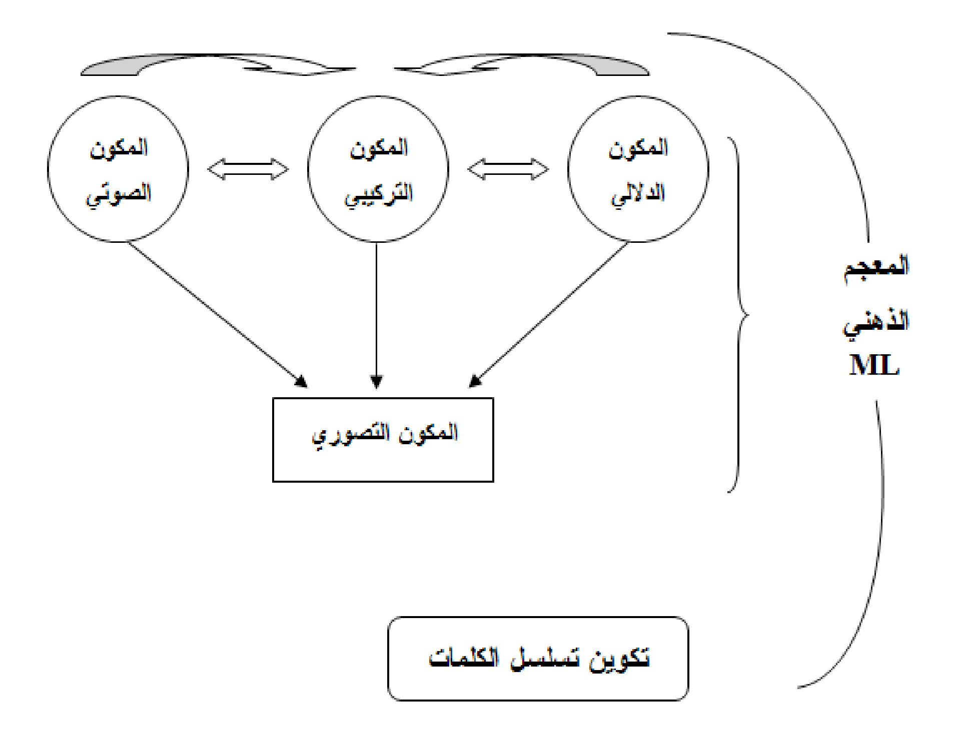
المخطط يبين الآلية الحاسوبية التي تشبه ما يقوم به الدماغ من عمليات تفسيرية للحدث الاتصالي في أجزاء من الثانية ضمن المعجم الذهني وميكانيزماته التوليدية الهائلة؛ فهذا نموذج مفترض، أو مقترح لمخطط سيرورة عمليات التوالد الذاتي في النظام المعجمي التواصلي:


مرحلة إدخال الجملة
مرحلة تحليل الجملة
تقطيع الجملة
المعجم
+
قوانين
المعجم
البحث المعجمي
مرحلة إيجاد اللفظ
واللفظ المرادف
التحليل الصرفي للجملة
التحليل القاعدي للجملة
خطأ قاعدي
التحليل الدلالي للجملة
خطأ دلالي
اكتشاف الوزن
الصرفي
إيجاد الأوزان
الصرفية
إيجاد الفعل المرادف
للفعل المُدْخل
إيجاد الجملة المرادفة
للجملة المدخلة
الإخراج

وفي لغة الإنسان (المتنوعة الألسن)، تقيم الكلمات فيما بينها أنواعًا من **العلاقات التركيبية**:

- **علاقات معنوية**: وهي العلاقات الدلالية الممكنة.
- **علاقات شكلية**: وهي العلاقات الصرفية (المورفولوجية).
- **علاقات وظيفية**: حيث ترتبط الكلمات فيما بينها بعلاقات نحوية.

بالإضافة إلى **الظواهر الصوتية** (الفونولوجية)، التي تنشأ في تركيب المقاطع، لأجل تكوين الكلمات، أو التي تنشأ بين سلسلة الكلمات المتتالية. ويتفاعل الجميع لأجل التوافق مع **البنية التصورية العرفانية**؛ فالدماغ يُرمّز ويشكل ويخلق ويسد الفجوات ... إلخ، بناءً على معالجة المتعينات في حيز الوجود، ومن خلال ما لديه من معطيات الحروف وقوالب الترميز، محكومًا بالبرنامج الجيني التطوري.



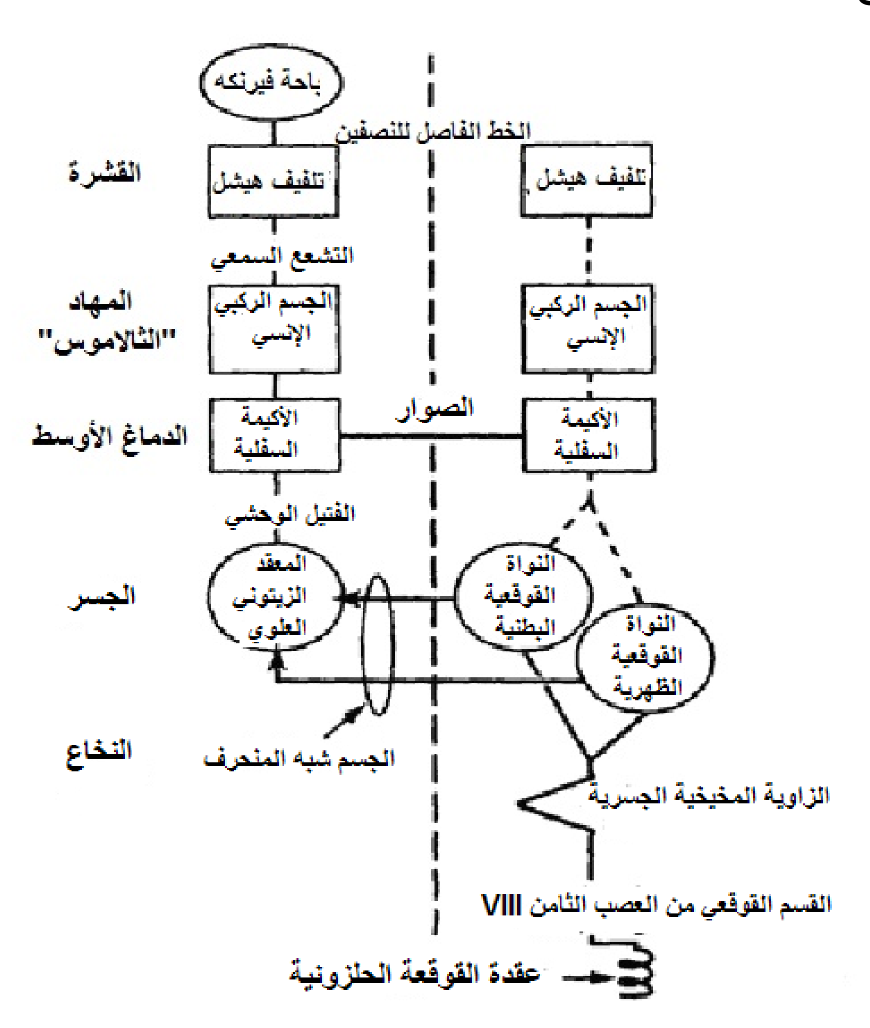
ب- المعالجة العصبية للمدخلات السمعية في نظام المعجم الذهني:

يُنقل الصوت إلى المسالك العصبية السمعية المركزية على شكل موجة منتقلة تتكون على الغشاء القاعدي لقوقعة الأذن (cochlea)، حيث يكون الغشاء القاعدي للقوقعة أضيق منه في قمتها [١]. وموجة الضغط ذات التردد المحدد تسبب اهتزازا للغشاء القاعدي بدرجة قصوى عند نقطة محددة على امتداد الغشاء، فتنشأ شحنات كهربائية للخلايا المشعرة (hairy cells) ترسل النبضات الكهربائية عبر خلايا العصب السمعي، وتنطلق نحو الجهاز العصبي السمعي المركزي. وهناك عضو سمعي يسمى «كورتي» (Corti) يعمل بوصفه **محللًا لترددات الصوت**، وهو منظم بحسب الترددات؛ بمعنى أن الترددات العالية تنبه الخلايا المشعرة في أدنى مستوى قاعدي من القوقعة، حيث الغشاء القاعدي أضيق ما يكون، بينما تنبه الترددات المنخفضة أجزاء الغشاء عند القمة، لذلك فإن تمييز التردد يعتمد على تردد النغمة، وعلى الاستجابة المكانية للغشاء القاعدي. ويعتمد تمييز الشدة على طول الغشاء القاعدي، الذي يبدأ بالتحرك وعلى مدى الاهتزاز.

أما تحديد موقع مصدر الصوت فيعتمد على المقارنة بين وقت وصول الصوت وشدته في كلتا الأذنين. ومعروف تشريحيًّا أن **القشرة الصدغية** في الثدييات والإنسان غير مهمة لتمييز الصوت البسيط، غير أنها أساسية لأجل تحديد موقع الصوت وتمييز التغيرات في التسلسل الزمني للأصوات، **وهذا التسلسل الزمني هو وظيفة سمعية عرفانية عليا بالغة الأهمية**، إذ إنها تمثل جانبًا مهمًا جدًّا للنطق، ولها تأثير كبير في ترجمة ما تراه العين، كما سنوضح في فقرة فرضية وهم المعرفة. ويحتاج التسلسل الزمني إلى النوى القوقعية (cochlear nuclei) والنوى الركبية الإنسية، والقشرة السمعية. وعلى الرغم من وجود تنظيم متناغم جدًّا في النوى العصبية السمعية المركزية جميعها، فإن هذه النوى لا تُستخدم لتمييز النغمات أو الترددات المختلفة، بل لتحليل الكثير من الخصائص السمعية للصوت المسموع.

١- لمجمل التفاصيل حول هذه المسألة، انظر، رسل لوف، واندا ويب: **علم الأعصاب للمختصين في علاج أمراض اللغة والنطق**، ترجمة محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، الرياض، ط ١، ٢٠١٠، ص ١٥٠ وما بعدها. وراجع المصدر الأصلي:
Wanda G. Webb: Neurology for the Speech-Language Pathologist, Elsevier, 6th ed, 2017, p 97-… .

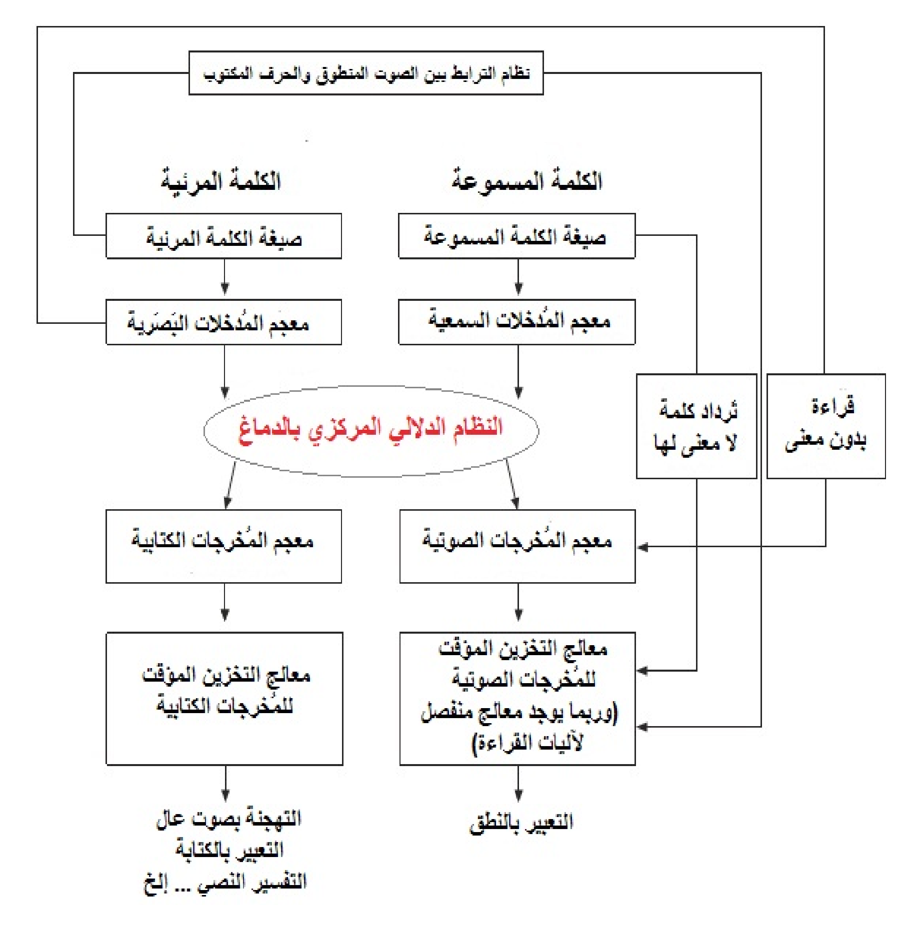
والمخططات الآتية توضح هذا المسار العصبي الشديد الأهمية بالنسبة إلى **حاسة السمع** [1]:



أما مرحلة معالجة الكلام المسموع عند أفراد الإنسان ضمن حلقة التواصل فلها مقاربات كثيرة وفوق الحصر، لكنني سأقدم هنا أهم ما أراه مرتبطًا بالقضايا الأساسية للمعجم الذهني. تقترح المقاربة العامة أن المعالجة الخاصة باللغة في الدماغ تُستهل من خلال اكتشاف الوحدات الصوتية للكلام (الفونيمات)، ثم ترميزها coding، من ثم

١- واندا ويب: **علم الأعصاب**، السابق، ص ١٥١. Wanda Webb: Ibid, p 98.

يحدث الانتقال إلى التوليفات الممكنة combinations على مستوى الوحدات الكتابية (الجرافيمات)، أو ما نعرفه بـ (الكلمات)، وهنا يبدأ مستوى (المعجم). ثم تبدأ مراحل فك الشفرات الرمزية decoding وإعادة الترميز والبناء عند المتلقي، حيث يتم تبادل المخزون المفاهيمي والثقافي ... إلخ، وهذه هي **(المرحلة الدلالية)**، وهي المرحلة التي تُفعَّل من خلال التراكيب الحاملة للمعنى في حدث التواصل بين أفراد بني الإنسان **(المرحلة التعبيرية)** بصورتيها: المنطوقة والمكتوبة. والنموذج الآتي يوضح هذه المسألة[1]:



(نموذج مخطط المعالجة العصبية المفرداتية وفقا لـ «لورا جولدشتاين» و«جين ماكنيل»، عام ٢٠٠٤)

1- Laura H. Goldstein, Jane E. McNeil: Clinical Neuropsychology, A Practical guide to Assessment and Management for Clinicians, Wiley Publications, London, 1sted, 2004, p-p 167-168.

النظام الدلالي المركزي بالنموذج الموضح يُطلق عليه أحيانًا (**النظام العرفاني**) الذي يمثل (**الصندوق الأسود**) للعمليات التفسيرية، التي تشمل معالجة الجُمل المعقدة، والتفكير، وتجنب عرقلة المثيرات البصرية للمثيرات السمعية في أثناء المعالجة الدلالية العامة ... إلخ.

ثالثًا - مقاربة فرضية الاقتصاد اللساني الذهني ودلالية التعبير في اللغة:

- **أمثلة من خصائص اللغة العربية تبين ارتباط آلية الاقتصاد الذهني المفاهيمي بالتعبير اللفظي اللساني:**

اللغة العربية- خصوصًا- غنية على المستوى اللفظي والتركيبي بهذا الاقتصاد المميز لطبيعة العمل الذهني عمومًا، مقارنةً بغيرها من الألسن، فمن مظاهر الاقتصاد اللساني في العربية الاختصار في التعبير عن الدلالة المرتبطة بالمفاهيم الذهنية، وسأكتفي هنا بمثالين:

أ- قضية حروف المعاني:

حروف المعاني من أوضح نماذج الاختصار في الألسن عامّة وفي اللسان العربي بشكل خاصّ، لأنها نائبة عن غيرها من الأفعال [1]، ومثالها حروف العطف، يقول السيوطي: «الحروف دخلت الكلام لضربٍ من الاختصار» ويقول: «من الاختصار باب العطف، لأنَّ حروفه وُضعت للإغناء عن إعادة العامل.»[2] وهناك مباحثُ شتى لبحث إعجاز الحرف العربي، لكنني أكتفي بالإشارة إلى أنَّ أكملَ أحوال الحروف في اللغة العربية، وهو من خصائصها التكوينية المميزة، أن تُستعمل غير مزيدةٍ ولا محذوفةٍ؛ فأما وجه القياس في امتناع حذفها فَمِن قِبَلِ أن **الغرض في الحروف إنما هو الاختصار**؛ كما في قولك: ما قام زيد، فقد نابت (ما) عن (أَنفِي) وهي جملة فعل وفاعل، وإذا قُلتَ: هل قام زيد؟ فقد نابت (هل) عن (أستفهِم)؛ فوقوع الحرف مقام الفعل وفاعله هو غاية الاختصار للتعبير عما يجول في الذهن، وإذا قُلتَ: قام القومُ إلا زيدًا، فقد نابت

١- جلال الدين السيوطي: الأشباه والنظائر، تحقيق عبد العال سالم مكرم، القاهرة، عالم الكتب، ط ٣، ٢٠٠٣، ١/ ٥٢.

٢- الأشباه والنظائر، ١/ ٥٢.

(إلا) عن (أستثني)، وهي فعل وفاعل، وإذا قُلتَ: قام زيد وعمرو، فقد نابت (الواو) عن (أعطفُ)، وإذا قلت: ليت لي مالًا، فقد نابت (ليت) عن (أتمنى)، ولو ذهبت تحذف الحرف تخفيفًا لأفرطتَ في الإيجاز، **لأنَّ اختصارَ المُخْتَصَرِ إجْحَافٌ بِهِ**، فهذا وجهٌ، وأَما وَجْهُ ضعف زيادتها فمِن قِبَلِ أنَّ الغرض في الحروف الاختصار، كما تقدم، فلو ذهبت تزيدها لنقضتَ الغرض[1]؛ **فتنوع الحروف في العربية إنما كان لغرض عرفاني ذهني مهم هو الإيجاز والاختصار**، وهو النيابة عن الأفعال؛ لتفيد فائدتها، مع إيجاز اللفظ، وهذا الإيجاز هو آلية ذهنية يقوم بها الدماغ على الدوام.

ب- إقامة المفرد مقام الجمع والنكرة مقام المعرفة في اللغة العربية:

وهو نموذج آخر لمثل هذا النوع من الالتفات القائم على الاقتصاد والاختصار، ويُعدُّ من الظواهر الملحوظة التي أقام لها النحاة واللسانيون أبوابًا في كتبهم ودراساتهم للإعجاز التركيبي للعربية، وقد وردت هذه الظاهرة كثيرًا في القرآن الكريم؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ (الشورى: ٤٨). ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (الزخرف: ١٣)؛ أي: أطفالًا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ (غافر: ٦٧)؛ حيث يقول الفَرَّاءُ: «يقول القائل: كيف قال (على ظهوره) فأضاف الظهور إلى واحد؟ يُقال: إن ذلك الواحد في معنى (جميع) بمنزلة الجند والجيش والجمع.»[2] ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ (مريم: ٩٣- ٩٤)؛ فقد جاء قوله تعالى (العبد) بمعنى (العبيد) أو(العباد)، فسياقُ الآية يدلُّ على أنَّ اللفظ يقتضي أن يكون للجمع لا للمفرد، خاصة أنَّ الآيات **تُصَوِّرُ** مَشْهَدًا من مشاهد يوم القيامة، حين يُعرَضُ الخلائق على الله عز وجل في عرصات القيامة[3]؛ فَهُمْ إذن كثيرٌ، فلماذا آثر سبحانه وتعالى أن يُعَبِّرَ عن هذا الجمع بلفظ (عبدًا) المفرد؟ وقد حاول علي النجدي ناصف- محقق معاني القرآن- أن يُبينَ ذلك ويكشف الدلالة في التعبير بلفظ المفرد (عبدًا) بدلا من الجمع، فذكر أنَّ: «لفظ

١- راجع للتفاصيل، ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط ١، ٢٠٠٦، ٣/ ١٠٨ وما حولها.

٢- الفراء: معاني القرآن، تحقيق عبد الفتاح شلبي، وعلي النجدي ناصف، ط ١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ٣/ ٢٨.

٣- الْعَرَصَاتُ هي كل أرض واسعة لا بناء فيها، والمقصود هنا أرض المحشر والحساب في مواقف يوم القيامة.

العبد في الآيات يُومِئ من طرْفٍ خَفِيٍّ إلى مشهدٍ مَهيبٍ من مشاهد الآخرة، مشهد لا كالمشاهد ولا الناس فيه كالناس، فالمُلك يومئذ لله الواحد القهار، وكل من في السماوات والأرض خاشع مقهور، والناس بين يدي الله أشباه متساوون، حتى كأَنَّهُمْ وَاحِدٌ مُتَكَرِّرٌ ذَاتُهُ وَتَتَوَحَّدُ مَلامِحُهُ ... نعَمْ، فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ وَاحِدٌ في الاتِّجَاهِ إلى الله، والخوفِ والرُّعْبِ وخشوعِ الأبْصَارِ وَذُهُوْلِهَا، فتشابهت الملامحُ والسِّمَاتُ، وتوافقت المشاعر والخلجاتُ؛ حتى **لِيَتَمَثَّلَ الجمعُ في هيئة الفرد**، ويتردى البعيد في القريب، وما كان ذلك كله ليكون لولا وضع (العبد) بلفظه المفرد مكان (العباد أو العبيد) أو غيرهما من جموع.»[1] وكلها تأويلات مقبولة **للمُخرج اللفظي الحامل للمدلول الذهني** الذي يفكر فيه الإنسان في خضم التفاعل الدائم بين الرمز التعبيري والصورة المفاهيمية المحمولة داخل الذهن البشري عن الواقع والخيال والمُخبَر عنه ... إلخ[2].

هذه هي الخصوصية الجوهرية للغة العربية. وبرأيي فإن هناك لفتةً مهمةً من السنة النبوية، فقد روى البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «بُعِثتُ **بجوامعِ الكَلِم**، ونُصِرتُ بالرُّعب، وبينا أنا نائمٌ أُتِيتُ بمفاتيحِ خزائنِ الأرض؛ فوُضِعَت في يدي.» وفي روايةِ الإمام مسلم: «نُصِرتُ بالرُّعْبِ على العدو، وأُوتِيتُ **جوامعَ الكَلِم**، وبينما أنا نائمٌ أُتِيتُ بمفاتيحِ خزائنِ الأرض؛ فوُضِعَ في يدي.» وفي روايةٍ جامعةٍ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «فُضِّلتُ على الأنبياء بسِتٍّ: أُعْطِيتُ جوامعَ الكَلِم، ونُصِرتُ بالرُّعب، وأُحِلَّت لي الغنائم، وجُعِلَت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأُرْسِلتُ إلى الخلقِ كافَّة، وخُتِم بي النبيُّون»[3].

١- يُنظر علي النجدي ناصف: مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة، القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠٩، ص -ص ١١٦-١١٨. ويُنظر عبد الله جاد الكريم: الاختصارُ سمةُ العربية، القاهرة، مكتبة الآداب، ط ١، ٢٠٠٦، ص ٨٢ وما حولها. ويمكن مراجعة تفاصيل القضية وعمومياتها عند فخر الدين قباوة: الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، الباب الأول: اقتصاد اللغة العربية، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ط١، ٢٠٠١.

٢- للمزيد من الأمثلة، راجع كتابنا البناء الذهني للمفاهيم، الفصل الثالث من الكتاب.

٣- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (توفى ٦٧٦هـ): المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (توفي ٢٦١ هـ)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢ هـ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، الحديث رقم ٥٢٣، ١/ ٣٧١.

والمرادُ **بجوامِعِ الكَلِم**: الاختِصارُ المفيدُ الناطقُ بالحكمة والجامعُ لأطرافِ الموضوعِ. كما قال ابنُ الأثير رحمه الله: «المُرادُ بذلك أنه أُوتِيَ الكَلِمَ الجوامِعَ للمعاني ...»[1].

ولهذا فدوما نُذكِّرُ بما قاله اللساني الفرنسي إيميل بنفينيست Benveniste (١٩٠٢-١٩٧٦ م) «المقولات الذهنية وقوانين الفكر ليست، في قدر كبير منها، سوى انعكاس لنظام المقولات اللسانية وتوزيعها. إننا نشكل بالفكر عالمًا قد صاغته لغتنا مُقدَّمًا. وتوجَد ضروب التجربة الفلسفية أو الروحية تحت التبعية اللاواعية لتصنيف تجريه اللغة، وذلك لسبب وحيد، هو أنها لغة وأنها ترمز»[2].

تعقيب وخلاصة في الاقتصاد الذهني:

بالانتقال إلى إبستمولوجيا العلوم نلاحظ أن قانون **الاقتصاد** في الوصف العلمي Law of Parsimony خاصّ بمبادئ فلسفية محدّدة تقول إن وصف شيء ما أو حدث ما يجب أن يكون بأقل قدر ممكن أو محتمل من الفرضيات؛ حيث يتمسك أصحاب العلوم الطبيعية بالقاعدة التي تقول إن أفضل التفسيرات العلمية هو ما يأتي **بسيطًا في منطوقه، يسيرًا على الفهم عند استيعابه**. ومبدأ التقتير (تمييزًا له من الندرة أو الشح Scarcity) أو الاقتصاد Parsimony في التفسير العلمي للظواهر كان الأكثر شيوعا على الدوام عند علماء أمريكا عنه لدى علماء أوروبا. وقد لبى امتثالُ العلماء لهذه القاعدة دواعيَ وحاجاتٍ فنيةً، علاوةً على أن هذه القاعدة تجعل من اليسير على الباحث أو المحلل في الحقول الإمبريقية أن يُخَطِّئَ بعضَ التفسيرات المستقرة، وأن يضع بعض الملاحظات العلمية موضع الشك والتمحيص إذا خالفت السياق الفكري العام؛ فكثير من الاكتشافات المهمة في نطاق الطبيعيات برزت للوجود جراءَ تجربةٍ أسفرت عن ملاحظة لم تكن في الحسبان أصلًا، لكنها على الرغم من ذلك تنقض النظرية السائدة. ومن ناحية أخرى، فمشكلة الشح في التفسير أو الاقتصاد فيه تكمن في أن الطبيعة ذاتها تميل غالبًا إلى التعقيد، خصوصًا في الميادين البيولوجية والاجتماعية[3].

١- عبد القادر بن بدران الدومي الحنبلي: شرح كتاب الشهاب في الحكم والمواعظ والآداب، للإمام القضاعي، تحقيق وضبط نور الدين طالب، الكويت، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ط ١، ٢٠٠٧، ص ٢٨.

٢- إيميل بنفينيست Émile Benveniste: «مقولات الفكر ومقولات اللغة»، ترجمة وتقديم عبد الكبير الشرقاوي، على الرابط المرفق، بتاريخ استرجاع (٩ فبراير ٢٠١٩): http://www.aljabriabed.net/n16_10charkawi.htm

٣- راجع للتفاصيل، جيروم كيجان: الثقافات الثلاث.. العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانيات في القرن الحادي والعشرين، ترجمة صديق محمد جوهر، عالم المعرفة، الكويت، ٤٠٨، يناير، ٢٠١٤، ص ١٢٢، بتصرف. والطبعة أيضا موجودة بالمركز القومي للترجمة، القاهرة، العدد ٢٤٧٦.

ولعل فيما طرحه البرنامج الأدنى التشومسكي (Minimalist) توجيهًا مهمًّا: إذ يقوم العلم- عمومًا- بتغطية أكبر قدر من الوقائع والتجارب من خلال استنتاجات منطقية مرتبطة بعدد قليل من الافتراضات والمسلمات ... إلخ. فالتقنية الصورية ليست مقصودة لذاتها في النحو التوليدي، بل في قدرتها على إمداد المحلل اللساني بالوسائل الصورية الكفيلة **باختزال تعقيد أدوات وصف اللغات الطبيعية وتنوعها إلى مبادئ أولية ذات كفاية تفسيرية**، تفضي إلى تفسير ميكانيزمات الاكتساب اللغوي بموجب مبادئ وقيود بسيطة، ثم تأتي النمذجة لتمثل الآليات الصورية والمنطقية لبناء الأنحاء (القواعد Grammars) الصالحة لتمثيل تلك الخصائص، **وبذلك يلتقي البناء النظري في اللسانيات التوليدية مع مثيله من العلوم الفيزيائية.**

إن التمثيل العرفاني للغة الإنسانية جعل لها مستويات كثيرة من المعالجة الدماغية في أكثر من محطة عصبية تشغيلية لا يتسع المجال هنا لتفصيل القول فيها؛ فلم تعد اللغة مجرد مجموعة من الأنشطة فحسب، بل هي **أجزاء من المعرفة** التي تعتمد على بنية كلية Structure -Dependent Piece of Information؛ فهناك المستوى التركيبي، والصوتي، والدلالي... إلخ، توازيها في المخّ عمليات عرفانية كبرى من الإنتاج والتحليل، كما تقدم آنفًا، بما يجعل الدماغ حاويةً كبرى لمجموعة من التمايزات اللغوية التي لا يمكن أن تركن إلى نظرة معيارية مقننة. وكل محطة تشغيل تشمل مجموعة من المراكز والأجهزة والأدوات التي يستخدمها الدماغ لتحليل اللغة وتركيبها؛ فالأمر ليس مجرد نشاط، بقدر ما هو عملية عرفانية تضافرية كبرى تعمل بصورة نمطية متكاملة تنسجم في سيمفونية أدائية شديدة التماسك والتناسق.

ولم تَتعدّ محاولات النمذجة الصورية لما يحدث في الدماغ بخصوص اللغة أن تكون تمثيلًا لبعض المخرجات فقط، وما زال الطريق طويلًا أمام البحث والفحص. فعلى سبيل المثال وصلت بحوث الأعصاب- اعتمادًا على حالات الحُبسة (Aphasia) المرتبطة بمنطقة بروكا خاصة- إلى أن المنطقة الأمامية للدماغ المخصّصة للمعالجة اللسانية أصبحت أوسع بكثير من منطقة بروكا،لأن الاضطراب تعدى إلى مناطق الوِصاد (Operculum)، والجزيرة الدماغية (Insula)،والمادة البيضاء الملاصقة لمنطقة بروكا (Subjacent White Matter) ...إلخ.

واللغة هي مركز لهذه المجرات المتجمعة في الدماغ (أو هذا الكون الصغير)، فإذا استطعنا مجازًا أن نُطفئ اللغة في العقل فسيعقبُ هذا انكباب تام لكل الوظائف؛ كما لو أنه خُفوتٌ لوميض الإشارات والسيالات العصبية، إلى أن يتحول المخ إلى كتلة هلامية تُصدرُ موجات لا معنى لها؛ مثل حاسوب فُصِلَ مُشغله عن بقية الدوائر! من ثم، ترى إنسانًا ينظر إليك وهو لا يراك حقيقةً!

وفي البند الأخير الآتي أقدم مقاربة تنفتح على بعض الآفاق التداولية والعلمية المعتبرة بهذا الخصوص.

رابعًا - مقاربة فرضية (وهم المعرفة) وأثرها في تكوين المعجم الذهني استنادًا إلى المعالجة العصبية العرفانية للغة وتداوليات التواصل الإنساني:

يرتبط بفكرة **النماء الذهني** للمفردات داخل الدماغ عند متلقي اللغة، ووفقًا لمطاطية النسيج العصبي، فرضية أُسميها **وهم المعرفة**، وهي مسألة تتعلق بالكثير من الظواهر الوجودية التي يعالجها الدماغ ويرتبها وينظمها، وسنتعامل هنا مع النموذج اللساني وتمثلات الصور الذهنية في حلقة التواصل. أساس هذه الفرضية أن **الدماغ يقوم ببناء النماذج ويَخلق عَالمًا من الافتراضات الخاصة بالتصورات**؛ فالدماغ دوما يُهيّئُ الفضاء الذهنيَّ، ويُقنعُ الفرد بأن كل شيء على ما يرام، وأنه لا نقصَ في الإدراك، وأن التلقي المرتبط بالحواس وما تنقله من معلومات إلى الدماغ للمعالجة يتم بصورة مناسبة، باستثناء حالات الخطر والانحراف النمطي عما هو مخزون في خبرة الفرد ووعيه ... إلخ، فتلك مسائل أخرى. في حالة النموذج اللغوي سأعالج ما يمكن تسميته **العمى العصبي وعمى الألفة الخاص بالكلمات**. ولاختبار ذلك قمتُ بتجربة بسيطة في أثناء تعليم بعض الكلمات للناطقين بغير العربية:

لدينا قائمتان: القائمة (أ) تحوي مجموعة من الكلمات التي تُعرض على جهاز العرض، يقدمها بفواصل زمنية ثابتة أمام المتلقي، ولمدة ١٥ ثانية. والقائمة (ب) تشمل مجموعة أخرى من الكلمات التي تُعرض بالطريقة ذاتها. مع إضفاء بعض عوامل التشتيت حول الكلمات، مثل الأشكال المزخرفة، واستخدام الألوان ... إلخ. المطلوب من المتلقي أن يعرف أيَّ الكلمات في القائمة (ب) موجود في القائمة (أ). والهدف هو اختبار معالجة

الدماغ للكلمات في الذاكرة القصيرة الأمد (العاملة) وهي الخاصة **بالاستيعاب**، من ثَم معالجته لعمليات الاستدعاء لاحقًا من الذاكرة الطويلة الأمد:

القائمة (أ)	القائمة (ب)
طائرة - سحاب - عربة - مطار - راكب - خَضروات - قائد - سفينة - معاناة - حقيبة - نظارة - حرارة	جناح - بحر - ألم - نار

مع ملاحظة أن الكلمات في (ب) أقل من (أ).

وما حدث مع ٨٠٪ من المُختبَرين هو أنهم اختاروا واحدة من هذه الكلمات في (ب) على الرغم من عدم وجودها في (أ)، لأنها ترتبط مع بعض كلمات (أ) ارتباطًا دلاليًّا مفاهيميًّا، أو مع لازم دلالي من لوازم كلمات المجموعة (أ):

الكلمة	اللازم الدلالي المفاهيمي
جناح	طائرة
بحر	سفينة
ألم	معاناة
نار	حرارة

والمسألة مرتبطة ببيولوجيا التوالد الذاتي، التي أؤكدها دومًا.

والتفسير الذي أقترحه هو أن الدماغ يعمل دومًا على ملء الفراغ المفاهيمي وإعادة إكمال النقص، وبناء **نماذج وهمية** أحيانًا ليس لها وجود فعلي، لأجل عمليات الاستمرار في التوازن الذهني للكَم المهيب من المعلومات والمُدخلات والمثيرات التي تصل إليه في كل ثانية، فقد قدر العلماء أن كمَّ المعلومات التي يتلقاها دماغ الفرد في اليوم الواحد تعادل في المتوسط ١٠٠ مليون ميجابايت[1]، ولو لم يقم الدماغ بفعله المعجز هذا لتخبط الإنسان من دون أن يُقدِمَ على أي تفاعل سلوكي أو أن يحرز أي خبرة ممكنة.

وقد دلل سيدني لامب (Sydney Lamb) باقتدار على أننا لا نستطيع التواصل والتفاهم والتفكير (العمليات العرفانية العليا) بغير أن نعتمد على ما اصطلح على

١- أندرو كوران: الدليل الموجز في أسرار المخ الكبرى.. القصة الحقيقية لدماغك المذهل، ترجمة أحمد موسى، القاهرة، المركز القومي للترجمة، العدد ٢٩٢٥، ٢٠١٨، ص ١٩ وما بعدها.

تسميته بـ (**الأوهام الدلالية semantic mirages**)[١]. ويمكن فهم ذلك بناء على الاستدلال العرفاني الآتي:

١. أن الانتباه والذاكرة - مُدخلا الإدراك الذهني- انتقائيان.

٢. أن منظومة العرفان جشطلتية (تعمل بصورة نمطية شمولية).

٣. أن التجربة الجسدية المُشكِّلة للنماذج والأطر الذهنية سياقية.

٤. أن السياق الثقافي التواصلي نسبي.

٥. أن تشكيل المفاهيم في الدماغ البشري خاضع لإيهام الإدراك الجزئي في خضم المحيط الكوني الشاسع.

غير أننا قد برعنا في تطوير آلياتِنا البيولوجية والثقافية من أجل تطويع سبل التواصل خصوصا؛ بداية من بزوغ توزيع البنية العصبية في (مقدم الفص الجبهي (FL، مرورًا بـ (المنطق الصوري) والنمذجة، حتى (الذكاء الاصطناعي AI).

وهذه إحالة لشبكة نموذج «نيل ماركوف» الشهيرة عن نمطية العمل العصبي العرفاني المتكامل؛ **فالدماغ البشري نظام معلوماتي ذاتي التنظيم**[٢]:

يُظهر هذا المخطط الشبكي نموذج **نيل ماركوف** (Neal Markov) حول محورية الفص الجبهي (**FL**) في عمل الدماغ[٣]. وقد أظهرت كثير من الأبحاث المختبرية التشريحية أن الدماغ هو شبكة مطاطية شديدة الترابط وعلى قدر كبير من التفاعل بين

١- عرّف سيدني لامب الوهم الدلالي بأنه كل علاقة دلالية بين الوحدة المعجمية والوحدة المفهومية في نظام إدراكي يقود الإسقاطات على عالَم الخصائص غير الموجودة حاليًّا. وتضمّ الأصناف الفرعية لهذه الأوهام مغالطة وجود لفظ واحد للشيء الواحد، والتشييء ومغالطة الوحدة:

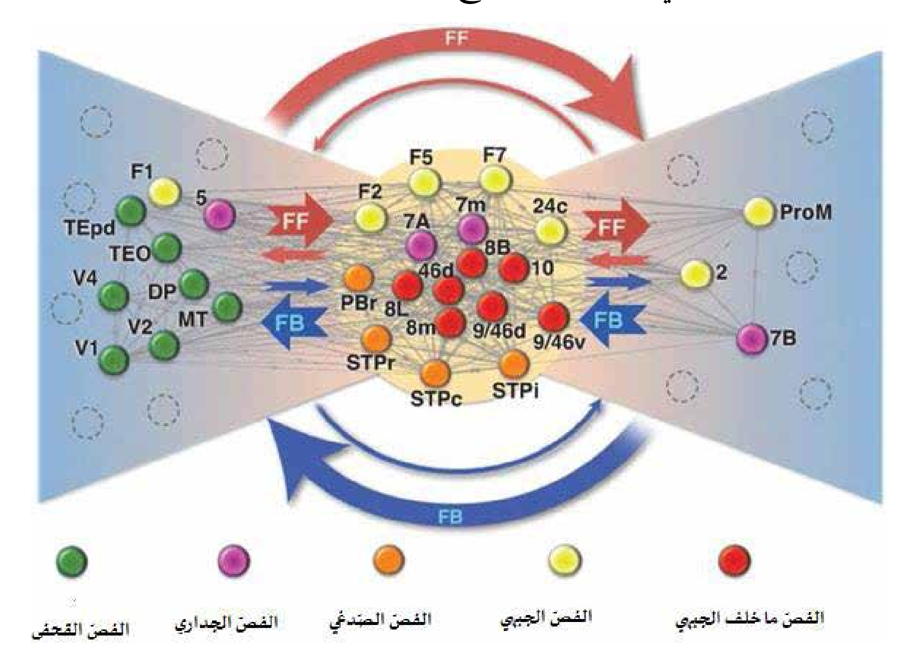
"Semantic mirage Any semantic relationship between lexical and conceptual units in a cognitive system that leads to projections onto the world of properties that are not actually there. Subtypes include the one-Iexeme-one-thing fallacy, reification, and the unity fallacy". Sydney Lamb: Language and Reality, Continuum, London and New York, 1st ed, 2004, P 504.

٢- راجع كذلك، عبد الرحمن طعمة: البحث المعرفي المعاصر.. نماذج من فلسفة اللغة وإبستمولوجيا العلوم، القاهرة، دار النابغة، ط ١، ٢٠١٨، ص ١٢٠.

٣- أنجز هذا الرسم من قبل نيل ماركوف سنة ٢٠١٣، ونشره ضمن كتابه «هندسات التكثيف العالي للقشرة الدماغية»، وضُمِّن لاحقًا في كتاب: «دليل المراقبة العرفانية» سنة ٢٠١٧، راجع:

Markov N T, Ercsey-Ravasz M, (et al): "Cortical High-Density Counter-stream Architectures", Science, 2013, p 342.

المناطق المختلفة- المشار إليها بالألوان- على أن درجة التكثيف تختلف من محور إلى آخر، كما هو واضح في قنوات الاتصال الظاهرة بين الخلايا العصبية. ومركزية اللغة البشرية في خضم هذا التفاعل أصبحت معروفة؛ فبدونها تختل العمليات العرفانية كلها ويتخبط الدماغ في فوضى كبيرة. وما يحدث الآن هو محاولة محاكاة هذا التشابك العصبي على مستوى الذكاء الصناعي، من خلال النماذج الحاسوبية، عبر آليات **النمذجة والصورنة**:



إن ما نسميه واقعًا هو عبارة عن أوهام يخلقها الدماغ، نتفق حولها من خلال أطر ثقافية متوارثة جينيًّا وأنثروبولوجيًّا؛ ولذلك يرى جون سيرل في محاولته شرح كيف أنّ العالم يُعرض علينا بصورة قبل لغوية pre-linguistically، حين يَستخدم الإنسان تمثيلاتٍ غيرَ لغوية لأجل بناء التمثيلات اللغوية، أنه: «يمكن للمعتقدات أن تؤثّر في الفينومينولوجيا بطرق مُغيّرة للمضمون القصدي، حتى لو ظل المحفز الإدراكي ثابتًا»[١]. ولكن بشرط أن تُرخي الطبيعة شيئا من قيودها في محيط إدراكنا الوجودي [٢].

١- جون سيرل: رؤية الأشياء كما هي.. نظرية الإدراك، ترجمة إيهاب عبد الرحيم علي، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٤٥٦، ٢٠١٨، ص ١٠٧.

٢- لتفاصيل العلاقة بين اللغة والطبيعة والوجود الكوني، راجع، جاي دويتشر: عبر منظار اللغة.. لِمَ يبدو العالم مختلفًا بلغات أخرى؟ عالم المعرفة، الكويت، العدد ٤٢٩، ٢٠١٥. من خلال الجزأين: الأول- مرآة اللغة، والثاني- عدسة اللغة.

إن اللغة الإنسانية لا تُحيل على العالَم الخارجي أو مملكة الأعيان (أنطولوجيا تحقق المفاهيم)، لكنها تُحيلُ على قضايا وموضوعات ومركبات يعيد الذهن ترتيبها وتنظيمها وتصنيفها، بل إنه يُخضعُها لنظام تطوري ذي أُطر تصورية لا حدود لها (مملكة التخييل)؛ فإذا تكلم أحدنا أو سمع مَن يتكلم فإن ما يحدث، على المستوى العصبي الدماغي، هو عمليات نوعية متخصصة لاستدعاء المحصول الذهني من ملايين المركبات التي صنعتها الهياكل الذهنية التصورية والأبنية العصبية البيوجينية، المتميزة بديمومة تطورية لا نهائية. إن اللغة الإنسانية تدلّ –فقط– على العالَم بوساطة ذهنية دماغية، ومن خلال عمليات عرفانية عليا ميّزت جنسنا. وتبادل الرسائل اللغوية بين أفراد جنسنا هو نوع من تلقّي الوسائل الخاصة بتنظيم العالَم وتأويل بنياته، وتلك مهمة لا نعرف، في حدود علمنا وإدراكنا، من يقوم بها غير أفراد جنسنا؛ فالمتكلم يُلقي بنفسه في خضم **عوالم التأويل الذهني** ليكون وسيطا لفهم العالَم من خلال اللغة، ولا دِلالة للغة على موضوعاتها المفتَرَضة من غير وساطة الذهن الفاحص المنظِّم، فالعملية تبادلية ونفعية؛ اللغة تتحكم في الذهن والإحالات ... إلخ، والذهن يحمل آلتها وسيروراتها [1].

هناك، إذن، **نسبة صحية من الوهم**، تحقق أمان استكمال حقول التصورات، لأجل جعل حلقة التواصل مرنة وسلسة (داخليًّا وخارجيًّا). وهذا الأمر هو الذي يفسر كيف أننا نقرأ النصوص بصورة جشطلتية كلية، فنحن لا نقرأ حرفًا حرفًا، ونُسقط معظم الحروف في أثناء فعل القراءة، بل وتَسقط كلمات كذلك، وما يحدث هو أن الدماغ يعوض الكلمات والمفقودات **بالمفردات الارتباطية**، لأن الذهن يمتلك **أنساق المعنى العام**، فمن خلال القدرة المطلقة على التوليد يمكنك من خلال عَشر كلمات فقط أن تصوغ عشرات المفاهيم، وتقدم عشرات التصورات حول ما يدور بخيالك عن العالم، ما بين الحقيقة والمجاز، في عملية توالدية ذاتية تتصف بالديمومة. ولذلك فلا يحتاج الدماغ إلى التوقف عند كل حرف وكل كلمة، إلا إذا كانت شاذة أو غير معلومة عند

١– للمزيد من التفاصيل والنقاشات راجع، عبد الرحمن طعمة: «تداولية المعنى عند حازم القرطاجني، الأسس المنطقية والتناول اللساني»، ضمن أعمال مؤتمر حازم القرطاجني وقضايا تجديد الرؤية والمنهج في البلاغة العربية القديمة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، المغرب، نوفمبر، ٢٠١٧، ص ٢٨٨ وما بعدها. وانظر أيضًا: البناء الذهني للمفاهيم. وراجع البناء العصبي للغة، دراسة بيولوجية تطورية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، عمّان، دار كنوز المعرفة، ط ١، ٢٠١٧، ص ٢٩٩ وما بعدها. وللمزيد من الأطروحات والمقاربات، راجع كتابنا: النظرية اللسانية العرفانية، دراسات إبستمولوجية، القاهرة، دار رؤية، طـ ١، ٢٠١٩.

المتلقي. ولذلك ففي المراحل الأولية لتعليم اللغات يجب أن يُراعَى هذا الأمر جيدا، بحيث يمكنني أن أقول إن على المعلم أن يُبطِئَ قليلا من عمل دماغ المتلقي، من خلال عوامل تركيز الانتباه والتَّكرار والإعادة ... إلخ، وإلا تشوه المعجم الذهني لديه بسبب عمل دماغه الجشطلتي.

ويتفق هذا الأمر مع **مبدأ الاقتصاد الذهني**- الذي سبق تفصيله- في معالجة الدماغ للجُمل وللتراكيب؛ حيث يقوم بالحذف والإضافة ويعوض المعلومات الدلالية ... إلخ.

أما ظاهرة عمى الألفة التي نتعرض لها جميعا، ونقصد بها أننا قد يمر أمامنا أخطاء كتابية أو إملائية ... إلخ، من دون أن نشعر بها إلا في القراءة الثالثة أو الرابعة، أي مع التَّكرار، وربما لا يلاحظ أحدنا التصحيف Anagram الذي قد يحدث في بعض الكلمات، فأنا أيضا أفسر ذلك بفرضية وهم المعرفة. وعليه، فإنه في مرحلة تعلم المفردات والأساليب وتنمية المفاهيم يحتاج المعلم إلى ضبط **كَمّ الدّفق المعرفي** للمعلومات، تمامًا مثلما أوضح ذلك فان ديك في قانون **مقروئية النص**، من حيث مراعاة التناسب بين كَمِّ القضايا المطروحة والزمن المناسب لها:

$$\text{مقروئية النص} = \frac{\text{عدد قضايا النص}}{\text{الزمن اللازم للقراءة}}$$

فكلما كان عدد الكلمات في النص ثابتًا نَقُصت سرعة القراءة بزيادة عدد القضايا [1].

وهو أمر مهم جدًّا في آليات التخزين والاسترجاع داخل المعجم الذهني للإنسان.

1- Kintch, W. & Van Dijk, T A: «Towards a Model of Text Comprehension and Production», Psychological Review, 85. 1978, P 372.

والحق أن الدماغ هنا يعمل بتوقيت ماهر، لأنه يوصف بـ **الآلة الزمنية الكونية الأذكى**، حيث يستطيع أن يعود بالزمن، وأن يقدم ويؤخر، حتى يصل إلى المعنى، في أثناء التواصل خصوصًا. ولذلك أيضًا اختبار يبرهن على المسألة:

في الجملة الإنكليزية:

- 1. The **Mouse** on the disk:
- 2. is broken
- 3. is eating cheese

يقف الدماغ عند كلمة Mouse (فأرة) في الجملة (١) ولا يستطيع تقرير دلالة التركيب؛ وعندما تعطيه الجملة الأولى متبوعة بالعبارة (٢) مباشرة فسوف يتوقف ثانية ليعود إلى كلمة Mouse ويربطها- تصوّريًّا- بفأرة الحاسوب. فإذا أعطيته العبارة (٣) مع (٢) مع الجملة الرئيسية (١)، سيستطيع تحديد المعنى (الفأرة الإلكترونية أو الحيوان) من خلال المراوحة والتنقل بين الاحتمالين وبحسب السياق.

ما أقصده هو أن الدماغ يقوم بعمليات من **التزمين synchronization ذي الاتجاهين**: الأمامي والخلفي في أثناء فعل القراءة، لتقرير المعنى المراد، وذلك بناء على الصورة البصرية التي يستدعيها من الذاكرة (صورة الفأر الحيوان، أو صورة فأرة الحاسوب)؛ فالمثير البصري والحفظ الأيقوني في غاية الخطورة من خلال دوره في تدعيم مفردات الخبرة في المعجم الذهني.

وفي الواقع فإن هذا الأمر يحدث في ثوان وبصورة جشطلتية شديدة التماسك والحَبك، وربما يفسر هذا لِـمَ نتوقف أحيانًا لأجل الاستيعاب، وقد يطلب أحدنا إعادة الجملة في حوار صحفي مثلًا، أو في ترجمة، أو في حال الاستماع إلى نص في تحقيق ما ... إلخ.

تأمل في المثال العربي:

- وجدتُ لديه **جُبنًا**:

١. في طِباعه

٢. في ثلاجته

وتأمل في جملة: الأمرُ **يسيرٌ** / الأمرُ **يسيرُ** على نحو بطيء

حيث الانتقالُ من الاسمية إلى الفعلية (بوساطة الوقف واستعمال التنوين ... إلخ).

فنحن نتعامل بصورة مستمرة مع المشترك اللفظي وتعدد المعنى ضمن آلاف السياقات والمحادثات، من دون جهد كبير، لأن الأساس العصبي لمعالجتها محكم وذو آلية مطردة.

تدخل كل هذه العمليات في سيرورة التداعي الذهني والاستنباط والربط المفاهيمي[١].

ومن ضمن الآليات الجشطلتية (الكلية) أيضا للدماغ **حذف المكررات** لأجل سلامة المعنى، من دون الشعور بتفاصيل هذا الأمر أيضًا في أثناء القراءة؛ تأمّل جملة مثل:

تقع جزيرة «بينانج»

في **المحيط**

المحيط الهندي

حيث يقرؤها ٩٠٪ من الناس من دون ملاحظة تَكرار كلمة **المحيط**، لأنها كلمة مألوفة في المعجم الذهني يمررها الدماغ مباشرة من خلال الربط التركيبي مع الصفة (الهندي)، أو مع المضاف إليه أو مع الخبر ... إلخ، في تراكيب أخرى.

- نموذج مهم عن **الربط الدلالي العصبي للاستدعاء المفرداتي المفاهيمي**:

بتجربة كلمة مثل (**قُرص**) في اللغة العربية، إذا طلبنا من المتلقي أن يقوم بذكر ما تستدعيه هذه الكلمة في ذهنه من مفاهيم وإدخالها في جمل مفيدة فسيكون لدينا أكثر من احتمال، وفقا للتصنيف الموالي:

١- راجع تفاصيل أكثر حول التوقع اللفظي من المنظور العرفاني الذهني، عبد الرحمن طعمة: البناء العصبي للغة، ص ٣١٩ وما بعدها.

الكلمة	المعنى الأصلي الفيزيائي (عام)	المتغير الدلالي المفاهيمي (خاص)	المفهوم التصوري الذهني
القُرص	شكل مادي دائري	قرص الشمس	نَجم
		قرص مضغوط CD/DVD	مادة للحفظ الإلكتروني
		قرص أسبرين	دواء
		قرص عسل	طعام
		قرص البوصلة	آلة للاتجاه
		قرص العجين	مادة لصناعة الخبز
		قرص الفقرات	مُكوِّن تشريحي

وكل احتمال وكل متغير من هذه المجموعة يكون على حسب مخزون الفرد من التصورات حول المُدخل المطروح، فهناك مثلًا من لا يعرفون قرص البوصلة Compass Disk أو قرص الفقرات Vertebrae في التشريح ... إلخ. وهكذا، فإن الدماغ يربط دوما بين المعنى الأصلي الفيزيائي العام، والمتغير الدلالي المفاهيمي الخاص، بحيث ينشأ عن هذا التفاعل الذهني استحضار المفهوم المُخزَّن في حقل التصورات، أو استيعاب المفهوم الجديد المطروح. ومن ثم يكون لكل مفردة **نموذج شبكي** ضخم مترابط مع النماذج الأخرى داخل المعجم الذهني غير المحدود عند الإنسان، تُستدعى منه الكلمات المرتبطة بالمفاهيم في أجزاء من الثانية، على حسب كل سياق ومقام وحال.

إنّ فهم هذه الأساسيات البنائية للجملة **عصبيًّا** قبل **تمثلها اللساني** يساعد كثيرًا في عمليات الصورنة والنمذجة الحاسوبية التي يبحث عنها كل علماء اللسانيات في عصرنا، من أجل رقمنة اللغة الإنسانية وتفعيل الترجمة الآلية، ودمج برامج تعليمية ملائمة لتدريب المتلقي على تعلم اللغات والتفاعل معها بمختلف الوسائل الممكنة.

وأنهي هذه الفرضية، التي أوضحت شيئًا من أسسها العصبية، بذكر أمثلة حول التلقائية الموهِمة التي يقع فيها نحو ٥٠ ٪ من البشر، ويجب مراعاتها في مرحلة تلقي المفاهيم الثقافية خصوصًا، وما شابهها؛ لأن التوالد الذاتي للمفاهيم في الدماغ قد يتدخل هنا لتدعيم فكرة خاطئة أو بلورة نماذج وهمية غير واقعية لدى متعلم اللغة.

أولًا- ففي أسئلة بسيطة مما سأورده، تجد أنه حتى ابن اللغة قد يُخطئُ:

- ما لون صفار البيض؟ أبيض
- ماذا تشرب البقرة؟ لبن
- ما عدد أصابع يد الإنسان (سؤال عن يد واحدة)؟ عشرة أصابع
- أين يطير السمك؟ في البحر
- تشرق الشمس في كندا (شمالًا – جنوبًا): نسبة كبيرة يختارون (شمالًا)، بسبب موقع كندا، على الرغم من أنه من الطبيعي أن تكون الإجابة: (شرقًا).
- هل أراك الأسبوع القادم في «المغرب»؟ ينصرف اعتقاد المتلقي أولًا إلى المكان (بلاد المغرب)، قبل الزمان (وقت المغرب)، والسبب يكمن في أن المكان يمثل **البنية الأنطولوجية لوقوع الزمن**، والذهن لا يفهم الزمن من دون احتواء مكاني. ولابن عربي هنا عبارة مأثورة غاية في الخطورة، يقول: «**المكان زمان سائل، والزمان مكان متجمد**»[1].
- يتحول قرص الشمس إلى هلال في (أول الشهر – منتصف الشهر – آخر الشهر): تجد أن كثيرين يجيبون بـ (منتصف الشهر)، من دون أن يلاحظوا أن الحديث عن الشمس وليس عن القمر، لأن الشمس والقمر مقترنان- دومًا- مفاهيميًّا برابط دلالي وعَقَدي ... إلخ، ولذلك يقع الوهم في الحديث عن خصائص أحدهما التي تتعلق بالآخر، مثلهما مثل غيرهما من ألفاظ **المثنى المتلازم** (الليل والنهار/ الحياة والموت/ الذكر والأنثى/ الجنة والنار ... إلخ).

بهذه الطريقة يظل الدماغ يوهمنا، بصورة مستمرة، بالفهم التام والإدراك الكلي للعالم من خلال **حيل اللغة**، وهو أمر ضروري وصحي مثلما سبقت الإشارة، لعبور الفجوات ومناطق الغموض الكبرى التي تغلف الوجود كله، تلك الغوامض التي تَسبر مكنوناتِها اللغةُ الإنسانيةُ، وتحاول تَخطّيها بأي طريقة، للاستمرار والبقاء.

١- لم أقف على المقولة في أحد كتب ابن عربي، ووجدتها متداولة بين كثيرين، وقد ذكرها صاحب رواية (موت صغير)، انظر/ محمد حسن علوان: موت صغير، دار الساقي، بيروت، ط ٢، ٢٠١٦، السفر الثالث، ص ١٦.

ثانيًا- النمذجة الذهنية وانحراف التفسير (نموذج تواصلي تداولي):

قد يؤدي **الانحراف عن (العبارات القياسية المعهودة)** في التواصل إلى كوارث مهيبة، وأخطر الأمثلة هو ما يحدث في حوادث الطيران التي كان سببها خطأ في التواصل اللغوي، ما أدى إلى إزهاق مئات الأرواح!

مثال من حوار متداول:

- المراقب: عند نهاية المخرج (٣) انعطف يسارًا باتجاه المَدرج.
- الطيار: عُلم.
- المراقب: انعطف يمينًا بعد **الإقلاع** وابق على ارتفاع (كذا) ...
- الطيار: حسنا، **الإقلاع**، ثم الانعطاف يمينًا، والمحافظة على ارتفاع (كذا) ...

إن المراقب يتحدث هنا عن انتظار أمر الإقلاع، ولم يُعطِ الأمر الفعلي بالإقلاع. وكان هذا الخطأ التواصلي سببًا في تصادم طائرتين كبيرتين في مطار (تنريف) Tenerife، أو ما يُسمى بمطار «لوس روديوس»، بإحدى جزر الكناري الإسبانية، في السابع والعشرين من مارس عام ١٩٧٧م، ونتج عنه وفاة ٥٨٣ إنسانًا[١]. وكانت توصية تقرير المحققين في سلامة النقل **استخدام العبارات القياسية المتفق عليها**، وعدم استخدام كلمة (الإقلاع)، كما في الحوار السابق، إلا إذا أراد المراقب إصدار الأمر للطيار بالإقلاع الفعلي، واقترحوا تعويضها بكلمة المغادرة أو ببدء التدرج ... إلخ[٢].

والتفسير العصبي المحتمل لما حدث هو أن الدماغ مبرمجٌ ومنمذجٌ على تخطي فجوات كثيرة وتفاصيل طويلة لا يحتاج إليها، لأجل الوصول إلى الهدف المقرر في المهمة التي يقوم بها الفرد، وفي حالة الطيار، فإن مسألة الإقلاع تمثل بؤرة الحدث في ذهنه، وبمجرد أن سمع عبارة مألوفة تحدد له الارتفاع ودرجة الانعطاف radius ... إلخ، وبها كلمة (الإقلاع)، انقدح التحفيز الذهني لاتخاذ الفعل، وترجم الدماغ الأحداث جملة واحدة، وبلور المفهوم وجعل الطيار ينطلق، من دون إذن فعلي من المراقب، لأن هذا أمر

1- Curran, William J: «The Medicolegal Lessons of the Tenerife Disaster», New England Journal of Medicine, 297 (18), Pp 986-987. November 3, 1977.

2- Weick, Karl E: «The Vulnerable System: An Analysis of the Tenerife Air Disaster», Journal of Management, 16 (3), p-p 571-593. July 1, 2016.

مألوف ومعتاد لدى الطيار؛ أعني أنه يقوم بالإقلاع والهبوط آلاف المرات، ومن ثم فقد تجاوز التفاصيل بسرعة ولم ينتبه. وكان مما حفز الحادثة أيضًا تأخر الطائرة على المدرج أكثر من ساعة ونصف، وخوف الطيار من إلغاء الرحلة إذا تأخروا عن مدة محددة، مما سيؤدي إلى تحمل الشركة نفقات إقامة المسافرين، وربما سحب رخصة الطيران منه، وكلها عوامل تفاعلية محيطة أدت إلى الترجمة العصبية الخاطئة لمجمل الأحداث.

وفي حالات كثيرة تم رصدها، إذا كنت تستمع إلى حديث بالفرنسية وهذا الحديث مترجم بالإنكليزية، مع ترجمة عربية أيضًا، ونقلت عينيك بين الترجمتين، فإنك سترى الإنكليزية فرنسية! **أي إنك سترى ما تسمع** [1]، مع ملاحظة أن حروف اللغتين الإنكليزية والفرنسية متشابهة. وقد اختبرتُ هذا الأمر شخصيًّا، وأصنفه أيضًا ضمن إيهام الدماغ بالواقع، وهو أمر خطير كذلك، وذو تأثير كبير على التواصل، وربما تكون له علاقة بما يُعرف بتأثير «**ماكجيرك** McGurk» وما يُطلق عليه **الإدراك المتعدد الوسائط Multi-Modal Perception**.

هذا التداخل يتفاوت في مدته الزمنية- بحسب كل فرد، وبحسب الخبرة اللسانية ومعرفة أكثر من لغة ... إلخ- حتى تكتشف في لحظة ما أن الترجمة المكتوبة هي الإنكليزية وليست الفرنسية التي يتحدثها المتكلم [2].

إن هذه المسائل في غاية الأهمية؛ وأقصد تحديدًا مسألة **النمذجة القياسية** للكلام الإنساني في أثناء حدث التواصل، والترجمة العصبية الدلالية للعبارات المألوفة. لك أن تتخيّل- في مقام آخر- لو أن جرّاحًا يقوم بعملية دقيقة، وقال لمساعده (اقطع هنا)، وكان يعني في ذهنه بكلمة (القطع) وضع قابض أوعية مثلًا (ضاغط لوقف النزيف) tourniquet،

١- السمع هو أبو الملكات اللسانية كما ذهب ابن خلدون في مقدمته. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (١٣٣٢ - ١٤٠٦م)، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤، ٣/ ١١٢٩. وللمزيد، علي أحمد مدكور: «تربية الملكة اللسانية عند ابن خلدون»، المؤتمر العلمي التاسع: كتب تعليم القراءة في الوطن العربي بين الانقرائية والإخراج، الجمعية المصرية للقراءة والمعرفة، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ص ١٤-٤٣.

٢- للمزيد من التفاصيل حول تلك المسألة، انظر:

Viorica Marian (et al): «Language Experience Changes Audiovisual Perception», Brain Sciences, 8, 85, 2018. Open Source on MDPI: www.mdpi.com

وراجع تفاصيل تأثير «ماكجيرك» في كتابنا: النظرية اللسانية العرفانية، ص ٢٠٦ وما بعدها.

لأجل إيقاف نزيف محتمل ... إلخ، ولا يقصد القطع بالمشرط، من ثم قام المساعد بقطع النسيج تأثرًا بأمر القائد وبخطورة الموقف والتوتر... إلخ، ستكون النتائج كارثية حتمًا، ولذلك فإن الاتفاق على العبارات القياسية والاتفاق على المترادفات ونسقها وتركيبها ... إلخ، خصوصًا في الوظائف والمهام المصيرية الحرجة، هو أمر لا مناص منه، تجنبًا لحيل الدماغ ونمذجته وسرعته في اتخاذ قرارات مبنية على مخزون المعلومات.

بهذه الطريقة يظل الدماغ- كما تقدم- يوهمنا بصورة مستمرة بالفهم التام والإدراك الكلي للعالم من خلال حيل اللغة، وهو أمر ضروري وصحي مثلما سبقت الإشارة إلى ذلك، لكن تنبغي هنا الحيطة وعدم الإفراط في الاستسلام اللاواعي للعمليات الذهنية الميكانيكية، التي لا نتدخل فيها إراديًّا، لأن الدماغ يسعى دومًا إلى عبور الفجوات لأجل الوصول إلى الهدف بأقل جهد عصبي ممكن.

الخاتمة:

أردنا في هذه الدراسة أن نقف على بعض المداخل العلمية البينية ذات الصلة بالنظرية اللسانية العرفانية المعاصرة، وكان الهدف الأساسي التعريف بمركزية هذه المسائل المطروحة ضمن أطروحات العلم الحديث، التي قدمت الدراسة مباحث مكثفة حولها؛ كما وقفنا على أطروحة تقرير «سلون» الممثّل لبزوغ العلم العرفاني عمومًا في حقل فلسفة العلوم الغربية، مثلما عرضنا بعض مرتكزات بنائية المعجم الذهني، وانتهينا إلى فرضية «وهم المعرفة» التي تمثل- من وجهة نظرنا- مدخلًا جديدًا منفتحًا على علوم أخرى تبحث في الظاهرة اللسانية الإنسانية وتعالقها مع مباحث الكون.

أما الهدف العام لما طرحته الدراسة فهو أن تكون هذه المباحث مقترَبًا لمزيد فحص مختلف الجوانب التي تعالجها اللسانيات العصبية العرفانية، وعلى رأسها بيولوجيا السيرورات العرفانية للّغة الإنسانية في الدماغ البشري، وانفتاح النسق اللساني على المحيط البيئي والكوني؛ فهذا الفرع من العلوم البينية قد أضحى- في عصرنا- على قمة هرم الدراسات الفلسفية والتجريبية، ولعل ما قدمناه بهذا الفصل يُبين جانبًا من مئات الجوانب التي نرجو أن نخصص لها أعمالًا مستقبلية في المسائل العالقة بين علوم اللسان والعلوم الطبيعية، لنخرج من ذلك بأطر جديدة تسمح بفهم أعمق للظاهرة اللسانية.

قائمة المراجع:

العربية:

١. أندرو كوران: الدليل الموجز في أسرار المخ الكبرى.. القصة الحقيقية لدماغك المذهل، ترجمة أحمد موسى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، العدد ٢٩٢٥، ٢٠١٨.

٢. جاي دويتشر: عبر منظار اللغة.. لِمَ يبدو العالم مختلفًا بلغات أخرى؟ عالم المعرفة، الكويت، العدد ٤٢٩، ٢٠١٥.

٣. ابن جني، أبو الفتح عثمان (توفي ٣٩٢ هـ): الخصائص، طبعة سلسلة الذخائر المصرية، تحقيق محمد علي النجار، ط ١، ٢٠٠٦.

٤. جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة صلاح إسماعيل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، العدد ١٨١٢، ٢٠٠٦.

٥. جون سيرل: رؤية الأشياء كما هي.. نظرية الإدراك، ترجمة إيهاب عبد الرحيم علي، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٤٥٦، ٢٠١٨.

٦. جيروم كيجان: الثقافات الثلاث.. العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانيات في القرن الحادي والعشرين، ترجمة صديق محمد جوهر، عالم المعرفة، الكويت، ٤٠٨، يناير، ٢٠١٤. وطبعة المركز القومي للترجمة، مصر، العدد ٢٤٧٦.

٧. حمادي صمود: نظرية المعنى في التراث العربي وأثرها في فهم وظيفة الصورة، ضمن كتاب (في نظرية الأدب عند العرب)، النادي الثقافي بجدة، ط ١، ١٩٩٠.

٨. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (١٣٣٢ - ١٤٠٦م): المقدمة، بتحقيق علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤.

٩. رسل لوف، واندا ويب: علم الأعصاب للمختصين في علاج أمراض اللغة والنطق، ترجمة محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، الرياض، ط ١، ٢٠١٠.

١٠. سوزان شنايدر: الخيال العلمي والفلسفة، من السفر عبر الزمن إلى الذكاء الفائق، ترجمة عزت عامر، المركز القومي للترجمة، العدد ١٨٥٩، القاهرة، ٢٠١١.

١١. السيوطي، جلال الدين (توفي ٩١١ هـ): الأشباه والنظائر، تحقيق عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة، طـ ٣، ٢٠٠٣.

١٢. عبد الرحمن طعمة: البناء العصبي للغة، دراسة بيولوجية تطورية في إطار اللسانيات العرفانية العصبية، دار كنوز المعرفة، الأردن، طـ ١، ٢٠١٧.

١٣. عبد الرحمن طعمة: البحث المعرفي المعاصر، نماذج من فلسفة اللغة وإبستمولوجيا العلوم، دار النابغة، مصر، طـ ١، ٢٠١٨.

١٤. عبد الرحمن طعمة: البناء الذهني للمفاهيم، بحث في تكامل علوم اللسان وآليات العرفان، دار كنوز المعرفة، الأردن، طـ ١، ٢٠١٩.

١٥. عبد الرحمن طعمة، وأحمد عبد المنعم: النظرية اللسانية العرفانية، دراسات إبستمولوجية، دار رؤية للنشر، القاهرة، طـ ١، ٢٠١٩.

١٦. عبد الرحمن طعمة: ميكانيزمات الإدراك في العقل البشري: دراسة في أساسيات اللغة والوعي من منظور تكنو - عصبي، المجلس الدولي للغة العربية، مؤتمر اللغة العربية الرابع، دبي، المجلد (٩)، ٢٠١٥.

١٧. عبد الرحمن طعمة: تداولية المعنى عند حازم القرطاجني، الأسس المنطقية والتناول اللساني، أعمال مؤتمر حازم القرطاجني وقضايا تجديد الرؤية والمنهج في البلاغة العربية القديمة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، المغرب، نوفمبر، ٢٠١٧.

١٨. عبد الرحمن طعمة: هندسة ماندلبروت الكسيرية نموذجا للتطبيق اللساني، مجلة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، المجلد ١٠، العدد ١، ٢٠١٩.

١٩. عبد الله جاد الكريم: الاختصار سمة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة، طـ ١، ٢٠٠٦.

٢٠. عبد القادر بن بدران الدومي الحنبلي: شرح كتاب الشهاب في الحكم والمواعظ والآداب، للإمام القضاعي، تحقيق وضبط نور الدين طالب، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، طـ ١، ٢٠٠٧.

٢١. عبد الكريم جيدور: اللسانيات العرفانية ومشكلات تعلم اللغات واكتسابها، مجلة العلامة، مخبر اللسانيات النصية وتحليل الخطاب، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد الخامس، ٢٠١٧.

٢٢. العسكري، أبو هلال الحسن (توفي ١٠٠٥م): كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، طـ ١، ٢٠٠٨.

٢٣. علي أحمد مدكور: تربية الملكة اللسانية عند ابن خلدون، المؤتمر العلمي التاسع (كتب تعليم القراءة في الوطن العربي بين الانقرائية والإخراج)، الجمعية المصرية للقراءة والمعرفة، القاهرة، ٢٠٠٩.

٢٤. علي النجدي ناصف: مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة، سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة، العدد ٧٣٣، ٢٠٠٩.

٢٥. الغزالي، أبو حامد الطوسي النيسابوري (توفي ٥٠٥ هـ): إحياء علوم الدين، طبعة دار القلم، طـ ٣، د.ت.

٢٦. فاتن فاضل وأمل الشرع: أصول ظاهرة التلاحق عند القدماء، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد ٢٣، العدد ٣، ٢٠١٥.

٢٧. فخر الدين قباوة: الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، الباب الأول: اقتصاد اللغة العربية، طبعة الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، طـ١، القاهرة، ٢٠٠١.

٢٨. الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (توفي ٢٠٧ أو ٢١٥ هـ): معاني القرآن، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق عبد الفتاح شلبي، وعلي النجدي ناصف، طـ ١، ٢٠٠١.

٢٩. القرطاجني، أبو الحسن حازم (١٢١١ - ١٣٨٦م): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، طـ ١، ١٩٦٦.

٣٠. محمد حسن علوان: موت صغير، دار الساقي، بيروت، طـ ٢، ٢٠١٦.

٣١. محمد الوحيدي: اللسانيات وعلم المعرفة، اللغة وبنية المعرفة البشرية، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد ١٧٥، سبتمبر، ٢٠١٨.

٣٢. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (توفى ٦٧٦هـ): المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (توفي ٢٦١ هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢ هـ.

الأجنبية:

1. Clark, E: The lexicon in acquisition, Cambridge University Press, 1993.
2. Curran, William J: «The Medicolegal Lessons of the Tenerife Disaster», New England Journal of Medicine, 297 (18), November 3, 1977.
3. De Mey, M: The Cognitive Paradigm, University of Chicago Press, 4th ed, 1992.
4. Kintch, W. & Van Dijk, T A: «Towards a Model of Text Comprehension and Production», Psychological Review, 85. 1978.
5. Lamb, Sydney: Language and Reality, Continuum, London and New York, 1st ed, 2004.
6. Laura H. Goldstein, Jane E. McNeil: Clinical Neuropsychology, A Practical guide to Assessment and Management for Clinicians, Wiley Publications, London, 1sted, 2004.
7. Markov N T, Ercsey-Ravasz M, (et al): «Cortical High-Density Counter-stream Architectures». Science, 2013.
8. Mark D. Houser, Chomsky (et al): «The Faculty of Language: what is it? Who has it? and how it evolve», Science Magazine, Vol 298, 2002.
9. Miller, George A: «The Cognitive Revolution; A Historical Perspective», TRENDS in Cognitive Sciences, Vol.7, No.3, Elsevier, 2003.
10. Wanda G. Webb: Neurology for the Speech-Language Pathologist,

Elsevier, 6th ed, 2017.

11. Wingfield, A, Alexander, A.H. & Cavigelli, S: «Does memory constrain utilization of top-down information in spoken word recognition? Evidence from normal aging», Language and Speech, Vol 37, Issue 3, 1994.

12. Weick, Karl E: «The Vulnerable System: An Analysis of the Tenerife Air Disaster», Journal of Management, 16 (3), July 1, 2016.

13. Viorica Marian (et al): «Language Experience Changes Audiovisual Perception», Brain Sciences, 8, 85, 2018. Open Source on MDPI: www.mdpi.com

المواقع الإلكترونية:

١. إيميل بنفينيست :Émile Benveniste مقولات الفكر ومقولات اللغة، ترجمة وتقديم عبد الكبير الشرقاوي، على الرابط المرفق، بتاريخ استرجاع (٩ فبراير ٢٠١٩): http://www.aljabriabed.net/n16_10charkawi.htm

٢. أكاديمية علم النفس: https://acofps.com/vb/65766.html

الفصل الثاني

ملامح من الأبنية الذّهنية للفضاء في النحو العربي

د. عفاف موقو[1]

١ – أستاذة مشاركة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سوسة، تونس.

مقدّمة

منطلقنا النظري، في هذا الفصل، هو علم دلالة النحو، وتحديدًا ما عُرف بلسانيات الفضاء التي اعتمدنا منها على نظرية ليونارد طالمي (L. Talmy)، وهي نظرية عرفانية متأسسة على اعتبار أنّ المعنى اللّساني معنى تصوّريّ، أي أنه لا يحيل بالضرورة على العلاقات بين الكيانات في العالم الممكن أو الواقعي، بل إن المعنى اللّساني يمثّل تصوّرًا مُبَنْيَنًا في الذّهن وقائمًا على طريقة فهم شخصية للوضعيات في العالم. ومن ثم فإن المعنى ليس ثابتًا ولكنه مسألة بناء ذهني لساني تُستمدّ آلياته من الآليات النفسية نفسها الموجودة ضمن آلية المعرفة الموسوعية والإدراك. ومن منظور طالمي، تمثّل الخطاطات أبنية ذهنية تشتغل لـ «بنينة» التجربة، ويمثّل نظام الخطاطات الفضائية جزءًا ممّا يُسمّيه «الأنظمة الخطاطية».

وعلى هذا الأساس، يعرّف طالمي اللّغة بما هي: «النظام المُبَنيِنُ للمقولات التصوّرية»، وهي تشكّل نظامًا عرفانيًّا مزدوجًا: نظامًا معجميًّا، ونظامًا نحويًّا.

فأمّا النظام المعجمي، فيمثّل «القسم المفتوح» للّغة الذي يضمّ أشكالًا لسانية عدّة مثل المشتقّات الاسمية والفعلية.

وأمّا النظام النحوي، فيمثّل «القسم المغلق» الذي يضمّ أشكالًا لسانية عسيرة الاشتقاق مثل الحروف.

ويكون التمثيل العرفاني مختلفًا بين النظامَيْن:

إذ تحدّد العناصر النحوية القسط الأوفر من «بنية» التمثيل العرفاني للملفوظ، وتحدّد العناصر المعجمية القسطَ الأوفر من «المضمون التصوّريّ» لذلك التمثيل.

بناءً على هذا الأساس النظري، عُني هذا البحث بدراسة المقولة التصورية للفضاء، والاستدلال على أنّ ظروف المكان وحدات نحوية منتمية إلى القسم المغلق للغة وممثلة لمستوى بنيوي خفيّ يؤدّي دورًا مركزيًّا في البناء الذّهني للفضاء.

ولتحقيق ذلك، نقترح قراءة لإشكالية مَقْولة الظروف في تراثنا النحوي العربي، وذلك اعتمادًا على المصنّفات النحوية الآتية: «الكتاب» لسيبويه، و«شرح شافية ابن الحاجب» للأستراباذي، و«شرح المفصّل» لابن يعيش، و«المرتجل في شرح الجمل» لابن

الخشّاب، و«الإيضاح في علل النحو» للزجّاجي، و«مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام، و«الإنصاف في مسائل الخلاف» للأنباري.

وفي هذا الإطار، اهتممنا في هذا الفصل بدراسة أنماط تمثيل اللّغة للفضاء من خلال الكشف عن بعض التصوّرات الهندسيّة الأساسيّة المتعلّقة بظروف المكان. إذ تنشأ عن استعمال ظروف المكان أبنية ذهنيّة ممثّلة للفضاء. وتتّضح هذه الأبنية من خلال أنماط تعيين موقع الصورة قياسًا إلى الخلفيّة في اللّغة العربيّة. إذ يعرّف التشكّل الخطاطي للفضاء بما هو «العمليّة المتضمّنة اختيارًا نسقيًّا لبعض أبعاد مشهد مرجعيّ معيّن من أجل تمثيل الكلّ، بصرف النظر عن بقيّة الأبعاد»[١]، ويتأسّس على مفهوم الصّورة (Figure) والخلفيّة (Ground) الذي ينتمي إلى حقل علم النّفس حيث أدرجه عالم النّفس الدّنماركي إدقار روبن (Edgar Rubin)، ثمّ نقله طالمي إلى المجال اللّساني في أطروحته «البنى الدّلاليّة في الإنكليزيّة ولغة الأتسوجواي»(١٩٧٢) وأصبح يحيل على الكيان المظروف (الصّورة)/ والظّارف (الخلفيّة)، مع حدوث بعض التغييرات منها أنّ الصورة، لدى روبن، هي شبيهة بالشّيء، والخلفيّة شبيهة بالمادّة، في حين أنّ كلًّا من الصّورة والخلفيّة، لدى طالمي، يشبهان الشّيء. وتجدر الإشارة، في هذا الصدد، إلى أنّ من الباحثين العرب من يترجم ثنائيّة (Figure / Ground) ترجمات مغايرة لعلّ أشهرها رسم/ أرضيّة[٢].

وقد رأينا الاقتصار في هذا الصدد، على التشكّل الخطاطي للفضاء الناشئ عن تعيين الصّورة على أساس خلفيّة واحدة.

الدّراسة التّطبيقية:

سنتناول، في الدّراسة التّطبيقيّة من هذا العمل، الظروف بما هي حروف، أي بما هي «قسم مغلق» ممثّل لعناصر نحويّة مفرغة دلاليًّا، أو بنية خفيّة منظّمة للمادّة التصوّريّة المُعبّر عنها بواسطة عناصر المقولات المعجميّة سواء أكانت أسماءً أم أفعالًا. وعلى هذا الأساس، فإنّنا سنهتمّ بنوعيْن من الظروف: الظروف المضافة، والظروف المبهمة.

1- Leonard Talmy. 2003. Toward a Cognitive Semantics. MIT. Cambridge. Massachusetts. Vol.1.p176.

٢- راجع ذلك لدى: الأزهر الزنّاد، نظرية النحو العرفاني لرونالد لانقكر، منوبة، كلية الآداب منوبة، ٢٠٠٣، ص١٢.

أمّا الظروف المضافة، فإنّها تشترك مع الحروف في أمريْن أساسيّيْن: أوّلهما التبعيّة الدّلاليّة، ثانيهما التبعيّة التركيبيّة. فأمّا التبعيّة الدلاليّة، فتعود إلى أنّ المعنى الذي يتطلّبه الفعل، لا يكون في الظرف المضاف بل يوجد في المضاف إليه، فالظرف المضاف تابع للمضاف إليه من الناحية الدّلاليّة لأنّ معناه ليس في ذاته: «وقال الكوفيّون إنما لزمت [الظروف] الإضافة لأنّها تكون أخبارًا عن الاسم كما يكون الفعل خبرًا عن الاسم إذا قلت زيد يذهب ويركب فلمّا كان الفعل يحتاج إلى فاعل وقد يتّصل به أشياء يقتضيها من المصدر والمكان والزمان والمفعول **ألزموا الظرف الإضافة ليسدّ المضاف إليه مسدّ ما يطلبه الفعل ويدلّ عليه**»[1]. أمّا التبعيّة التّركيبيّة، فتظهر، كما رأينا في الباب الأوّل، من خلال تقدير «في» قبل الظرف، ممّا يجعلها «في حكم المنطوق به» أي أنّ هذا الحرف ملازم للظرف من الناحية التصوّريّة. وهو ما يجعل الظروف تشترك في الخصائص الفضائيّة نفسها للحروف بما هي قسم الكلام الذي «لا ينفكّ من اسم أو فعل يصحبه»[2]. فالحرف غير مستقلّ من الناحية التركيبية لأنه يؤدّي معنى التعليق أي الرّبط بين الأجزاء المختلفة من الكلام وفق العلاقات الهندسيّة التي يكتسبها كيان ما في علاقته بكيان آخر. ومن ثم فإنّ الظروف لا تشتغل بما هي حروف إلاّ إذا كانت مضافة، لأنّ قطعها عن الإضافة يؤدّي إلى تحوّل الظرف إلى كيان-خلفيّة ومن ثم إلى عنصر معجمي.

إنّ معنى الظرفيّة ملازم لمعنى الحرفيّة وليس متضمّنًا له، وذلك باعتبار أنّ الحرف يُستدلّ من الظرف بحكم التّقدير لا الاشتمال: «اعلم أنّ الظرف في عرف أهل هذه الصّناعة ليس كلّ اسم من أسماء الزّمان والمكان على الإطلاق بل الظرف منها ما كان منتصبًا على تقدير «في» واعتباره بجواز ظهورها معه فتقول قمت اليوم وقمت في اليوم فـ«في مُرادةٌ وإن لم تذكرها. والذي يدلّ على ذلك أنك إذا قلت أكن عن اليوم، قيل قمت فيه، وكذلك سائر الظروف، **وليس الظرف متضمّنا معنى** «في» (..) وإنما «في» محذوفة من اللّفظ لضرب من التّخفيف فهي في حكم المنطوق به ألا ترى أنّه يجوز ظهور «في» معه ولا يجوز ظهور الهمزة مع «من» و«كم» في الاستفهام فلا يقال أمن ولا أكم وذلك من قبل أنّ «مَن» و«كم» لمّا تضمّنا معنى الهمزة صارا كالمُشتمليْن عليها فظهور

١- موفق الدين بن يعيش، شرح المفصّل، بيروت، عالم الكتب، د.ت.، ج٢، ص١٢٧.

٢- ابن يعيش، شرح المفصّل، ج١، ص٢٢.

الهمزة حينئذ كالتكرار **وليس كذلك الظرف فإنّ الظرفيّة مفهومة من تقدير «في» ولذلك يصحّ ظهورها** فاعرف الفرق بين المتضمّن للحرف وغير المتضمّن له»[1].

ويمثّل التّركيب الإضافيّ، في رأينا، شرطًا أساسيًّا لاشتغال الظروف بما هي عناصر نحويّة، ذلك أنّ الإضافة تجعلها تُستعمل بما هي **عنصر واصل** بين جزأيْن من أجزاء الكلام، جزء بارز سابق للظرف، وهو الصّورة، وجزء لاحق له، وهو الخلفيّة. وعلى هذا الأساس استنكر القدامى استعمال الظروف مفردة بل ذهب بعضهم إلى إخراج الظروف المفردة من الظرفيّة وإدخالها في الاسميّة: «(..) فإذا أفردت وقيل قام زيد خلفًا وذهب عمرو قدّامًا فهو عند البصريين نُصب على الظرف كما يكون مضافًا نحو قام قدّامك وذهب خلفك **إلاّ أنّه مبهم منكور** كأنك قلت قام خلف غيره وذهب قدّام شيء، ومنع الكوفيّون من ذلك وقالوا **لا تكون ظروفًا إلاّ مضافة وإذا أفردت صارت أسماء وكانت في تقدير الحال** كأنّه قال قام متأخّرًا وذهب متقدّمًا، وفائدة الخلاف تظهر في الخبر فعند البصريين تقول زيد خلفًا وعمرو قدّامًا فيكون خبرًا كما يكون مضافًا، والكوفيّون يرفعون ويقولون زيد خلفٌ أي متأخّر وقدّام أي متقدّم ويكون الخبر مفردًا هو الأوّل كما تقول زيد قائم»[2]، أمّا المضاف إلى الظّرف، فبالرغم من إمكانيّة وروده جملة فعليّة أو اسميّة، فإنّ ذلك لا يغيّر من وظيفته بما هو شيء–خلفيّة أو كيان ثابت، نظرًا إلى أنّ الجملة المضافة إلى الظروف، تؤوَّل، في المستوى الدّلالي، بمصدر. فالأصل في قولنا: «تاجرْ حيث يقيم أخوك»، «تاجر حيث إقامة أخيك»: «واختُلف في كون الظروف مضافةً إلى ظاهر الجملة، أو إلى المصدر الذي تضمّنته، والنّزاع في الحقيقة منتفٍ، لأنّ الإضافة في اللّفظ إلى ظاهر الجملة بلا خلاف، ومن حيث المعنى إلى مصدرها»[3].

وتُعدُّ «حيث» ظرف المكان الوحيد الواجب الإضافة إلى الجمل: «**لأنّ المكان لا يُضاف إلى الجملة إلاّ «حيث»**»[4]، ويندر استعمالها مضافة إلى المفرد: «تلزم «حيثُ»

١- ابن يعيش، شرح المفصّل، ج٢، ص٤١.

٢- ابن يعيش، شرح المفصّل، ج٢، ص١٢.

٣- الأستراباذي، شرح الكافية في النحو، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٢، ج٣، ص١٧٥.

٤- الأستراباذي، شرح الكافية في النحو، ج٣، ص٢٠٠.

الإضافة إلى جملةٍ، اسميّة كانت أو فعليّة، وإضافتها إلى الفعليّة أكثر [(والله أعلم حيث يجعل رسالتَه)]، ومن ثمّ رجح النّصبُ في نحو «جلست حيث زيد أراه» وندرت إضافتها إلى المفرد كقوله:

ونطعنهم تحت الكُلى بعد ضربهم ببيض المواضي حيثُ لَيِّ العمائم (..)

ومَن أضاف «حيثُ» إلى المفرد أعربها:

أما ترى حيْثَ سُهيلٍ طالعًا [نجمًا يُضيء كالشِّهاب لامعًا]»[1].

ومن ثم فإنّ بناء «حيث» عائد إلى أنّ إضافته، في الأصل، إلى مصدر الجملة لا إلى الجملة، ولمّا حُذف المصدر وقامت مقامه الجملة، شابهت «حيث» الغايات من جهة حذف المضاف إليه، فبُنيت على الضمّ مثلها: «(..) فالواجبة الإضافة إليها[الجملة]، واجبة البناء، **لأنّها مضافة في المعنى إلى المصدر الذي تضمّنته الجملة**، وإن كانت في الظاهر إلى الجملة، فإضافتها إليها كلا إضافة، فشابهت الغايات المحذوف ما أضيفت إليه، فلهذا **بُنيت «حيث» على الضمّ كالغايات**»[2]. ويبرّر ابن هشام ضعف الإضافة إلى الجملة تبريرًا إعرابيًّا مفاده عدم ظهور علامة الإعراب على الجملة: «حيثُ: الضمّ تشبيهًا بالغايات، **لأنّ الإضافة إلى الجملة كلا إضافة لأنّ أثرها وهو الجرّ لا يظهر**»[3].

أمّا النّوع الثّاني من الظروف التي سيشملها نطاقُ بحثنا، فهي ظروف المكان المبهمة سواء أكانت معربة (الجهات الستّ) أم مبنيّة (حيث، عند، لدى). ذلك أن الظروف المختصّة، مثلما سبق أن بيّنّا، أسماء محضة أي إنّها مادّة معجميّة ذات مضمون تصوّري. ولهذا السبب، أخرج ابن هشام الظروف المختصّة من مقولة ظروف المكان واشترط سمة «الإبهام» في الظرفيّة المكانيّة مثلما أسلفنا الإشارة إلى ذلك[4].

ومن هذا المنطلق، **تمثّل الظروف المبهمة بنية خطاطيّة منظّمة للمادّة التصوّريّة**. ويظهر ذلك من جهتيْن:

١- ابن هشام، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٨٧، ج١، ص- ص١٣٢-١٣٣.

٢- الأستراباذي، شرح الكافية في النحو، ج٣. ص١٨٠.

٣- ابن هشام، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، ج١، ص١٣١.

٤- ابن هشام، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، ج٢، ص٥٧٦.

أولاهما المستوى الدّلالي، إذ أنّ ظروف المكان المبهمة ذات دلالة عامّة غير محدودة ممّا يقرّبها من العناصر النّحويّة المفرغة دلاليًّا ويجعلها تشترك في تمثيل **خطاطة المسار الذي لا حدود له**: «فالمبهم ما لم يكن له نهاية ولا أقطار تحصره نحو الجهات الستّ كخلف وقدّام وفوق وتحت ويمنة ويسرة ووراء ومكان ونحو ذلك، والمختصّ ما كان له حدّ ونهاية نحو الدار والمسجد والجامع والسوق ونحو ذلك»[1]. وبهذا، فإنّ الفعل يرتبط، سواء كان لازمًا أو متعدّيًا (إلى مفعول أو أكثر) بالظروف المبهمة ارتباطًا مباشرًا دون حرف جرّ، فنقول: «وقف زيد خلفك»، و«لمحت زيدًا خلفك» و«أعطيت زيدًا درهمًا خلفك». ويُرجع النحاة هذا الأمر إلى أنّ **الظروف المبهمة تشترك مع الأفعال في صفة الإبهام فيتعدّى إليها الفعل مباشرة**: «**فلذلك يتعدّى كلّ فعل إلى كلّ زمان مبهمًا كان أو مختصًّا وليست الأمكنة كذلك لأنّ دلالة الفعل على المكان ليست لفظيّة وإنّما هي التزام ضرورة أنّ الحدث لا يكون إلاّ في مكان ولا يدلّ على أنّ ذلك المكان الجامع أو مكّة أو السوق**، ولذلك يتعدى إلى ما كان مبهمًا منه لدلالته عليه تقول جلست مجلسًا ومكانًا حسنًا ووقفت قدّامك ووراءك فتنصب ذلك كلّه على الظرف، فإن قيل فأنت تزعم أنّ **الفعل إنما يعمل بحسب دلالته** وليس في الفعل دلالة على مكان حسن ولا على قدّام زيد ولا على ورائه فالجواب أنّ الفعل غير المتعدّي إنما يتعدّى إلى المكان المبهم وقد ذكرنا أنّ المبهم ما ليس له نهاية ولا أقطار تحصره وأنت إذا قلت قمت مكانًا حسنًا لم ينحصر بالنهاية والحدود وكذلك إذا قلت قمت خلف زيد لم يكن لذلك الخلف نهاية تقف عليها وكذلك إذا قلت قدّام زيد لم يكن لذلك حدّ ينتهي إليه فكان مبهمًا من هذه الجهة فانتصب على الظرف بلا خلاف،(..) فإن كان المكان مخصوصًا لم يتعدّ إليه إلاّ كما يتعدّى إلى زيد وعمرو فكما أنّ الفعل اللاّزم لا يتعدّى إلى مفعول به إلاّ بحرف جرّ كذلك لا يتعدّى إلى ظرف من الأمكنة مخصوص إلاّ بحرف جرّ نحو وقفت في الدّار وقمت في المسجد وجلست في مكّة لأنّ الفعل لا يدلّ على أنّه في الدار أو المسجد أو مكّة فلم يجز أن يتعدّى إليه بنفسه، فأمّا قولهم دخلت البيت وذهبت الشام فهو شاذّ وجوازه على إرادة حرف الجرّ»[2].

١- ابن يعيش، شرح المفصّل، ج٤، ص٤٣.

٢- ابن يعيش، شرح المفصّل، ج٢، ص-ص٤٣-٤٤.

ثانيتهما المستوى التّركيبي، ذلك أنّ الظروف المبهمة ترد ضمن التركيب الإضافي في حالتيْن: أمّا الحالة الأولى فهي إضافة الظرف اختيارًا عند جواز استعماله اسمًا، وهو ما يصحّ بالنسبة إلى المعرب من هذه الظروف (كأن يختار المتكلّم أن يقول في تحديد مكان جلوسه: «جلست أمام زيد» على أن يقول: «جلست في الأمام»)، أمّا الحالة الثّانية فهي إضافة الظرف وجوبًا عند امتناع استعماله اسمًا، ويصحّ ذلك بالنسبة إلى الظروف المبنيّة.

إنّ اشتراط الإبهام في ظروف المكان لتكون منتصبة على تقدير «في»، راجع إلى أنّ الظروف المبهمة تحتاج إلى المضاف إليه ليقع إخراجها من الإطلاق إلى التّخصيص والتّعيين؛ أي إنّها تحدّد الفضاء تحديدًا نحويًّا لا معجميًّا أو اشتقاقيًّا. وذلك خلافًا للظرف المختصّ الذي يدلّ على المكان دلالة معجميّة أوّلًا، ولاسم المكان الذي يدلّ على المكان دلالة اشتقاقيّة، ثانيًا. أمّا الظروف المختصّة فتتضمّن تعيينًا داخليًّا للمواضع التي تشير إليها. وهو ما نلاحظه من خلال حديث الأستراباذي عن الفرق بين النّوعيْن من الظروف اللّذيْن يعبّران، في الحقيقة، عن نمطيْن مختلفيْن من التشكّل الفضائي للّغة: «الموقّت: ما كان له اسمه بسبب أمر داخلٍ في مُسمّاه كأعلام المواضع، فإنها أعلام لها اعتبار **عيْنِ تلك الأماكن**، وكذا مثل: بلدٍ، وسوق، ودار، فإنها أسماء لتلك المواضع **بسبب أشياء داخلة فيها**، كالدّور في البلد، والدّكاكين في السّوق، والبيت في الدّار. وأمّا نحو خلْفَ، وقدّام، ويمين، وشمال، وبين، وحِذاء، **فإنّ هذه الأشياء تُطلق على هذه الأماكن باعتبار ما تُضاف إليه**»[1]. أمّا اسم المكان ممّا في أوّله ميم زائدة مثل المجلس والمضرب والمقام، فهو من الأسماء المبهمة إلاّ أنّه مستثنى من أسماء المكان المبهمة المنصوبة على تقدير «في»، «لأنّه إنّما يُثْبَتُ مثلُ هذا الاسم للمكان باعتبار الحدث الواقع فيه، والحدث شيء خارج عن مسمّى المكان»، ومن ثم فهو دالّ على المكان بصيغته الصّرفيّة أي بوصفه مشتقًّا من حدث واقع في ذلك المكان، و«ينصبُه على الظرفيّة الفعلُ المشتقّ ممّا اشتُقّ منه اسم المكان نحو: المجلس والمقعد، والمأوى، والمسدّ، والمقتل، والمبيت، فتقول (..) قمت مقامه، وجلستُ مجلسه، وأويت مأواه، وسددت مسدَّه، وينصبه أيضًا كلُّ ما فيه معنى الاستقرار، وإن لم يُشتقّ ممّا اشتُقّ منه، نحو: جلست موضع القيام، وقعدت موضعك (..) وكذا: نمت مبيتَه، وأقمتُ مشتاه»[2].

١- الأستراباذي، شرح الكافية في النحو، ج١، ص٤٨٩.

٢- الأستراباذي، شرح الكافية في النحو، ج١، ص٤٩٠.

يتواتر التشكّل الخطاطي للفضاء الناشئ عن تعيين الصّورة على أساس خلفيّة واحدة، في الاستعمالات التي تُمثّل فيها الخلفيّة مرجعًا مركزيًّا مفردًا أي غير مرتبط بمرجع ثانويّ، ومن ثم تكون المرجعيّة داخليّة لأنّها تكتفي بتعيين الصّورة على أساس واحد هو الخلفيّة. ويمثّل هذا النّوع النّمطَ الأكثرَ بساطة للبناء الخطاطي، إذ تقوم العبارات الفضائيّة بتجزئة المشهد المرجعي بدرجة دنيا من التّعقيد لأنّها تعيّن تنظيم الصورة على أساس شيء-خلفيّة واحد بحيث تكون خصائصه البنيويّة الدّاخليّة، سواء كانت متناظرة أو لامتناظرة، كافية وحدها لتنظيم الفضاء.

وفي هذه الحالة، يمكن للكيان الخلفيّة أن يتّخذ تشكّلات خطاطيّة متعدّدة يمكن دراستها من خلال زاويتيْن اثنتيْن: أولاهما خصائص المشهد المرجعي للخلفيّة، ثانيتهما الشّكل الهندسيّ للخلفيّة.

١ .خصائص المشهد المرجعي للخلفيّة.

يمكن إرجاع خصائص المشهد المرجعي للخلفيّة إلى أمريْن أساسيّيْن: أوّلهما أنّه يمثّل هدفًا للمسار المنطلق من الصورة، ثانيًا أنّ الخلفيّة يمكن أن تمثّل كيانًا محسوسًا أو مجرّدًا.

١ , ١ .الخلفيّة بما هي هدف للمسار المنطلق من الصّورة.

وتتحقّق وظيفة الظرف في إيصال الصّورة إلى الخلفيّة، على مستوى البنية المُنجَزة للجملة أي دون اعتبار لعمليّة الوصل الخفيّة بين الفعل والظرف بواسطة حرف الجرّ المقدّر «في».

وسنشرح عمليّة الوصل المضاعفة من خلال المثاليْن الآتييْن:

(١) جلست خلفـــك

[ص] [خ]

(٢) زيـــد خلفـــك

[ص] [خ]

على مستوى البنية الخفيّة للقول (١)، يصل حرف الجرّ المقدّر بين الفعل والاسم (الظرف «خلف»)، أمّا على مستوى البنية المنجزة، فإنّ الظرف، قام مقام الحرف، فمثّل مسارًا واصلًا بين [ص] و[خ].

أمّا في القول (٢)، فإنّ حرف الجرّ المقدّر يقوم، على مستوى البنية الخفيّة للجملة، بالوصل بين الفعل المقدّر «يوجد» والاسم (الظرف «خلف»)، أمّا على مستوى البنية المنجزة، **فإنّ الظرف، قام مقام الحرف، فمثّل مسارًا واصلًا بين [ص] و[خ].**

وفي تقديرنا، أنّ نيابة الظرف عن الحرف من الناحية التركيبيّة ترجع إلى اعتبارات دلاليّة. وذلك بناء على ما أشرنا إليه سابقًا من ملازمة الظرف للحرف من الناحية الدّلاليّة، فالظرفيّة مفهومة من تقدير «في» أي من الحرف لا من الاسم، وهو ما جعل حذف الـ «في» يؤدّي إلى قيام الاسم مقام الحرف ووسمه بأنّه «ظرف»، ومن ثم إلى قيامه بدور «الواسطة» بين المكوّن البارز السابق له أي الصّورة، والمكوّن اللاّحق له أي الخلفيّة.

والدّليل على ذلك هو أنّنا إذا صرّحنا بـ «في» أو بغيرها من حروف الجرّ، خرج الظرف من الظرفيّة وتمحّض للاسميّة. وذلك راجع إلى أنّ بروز حرف الجرّ في مستوى التّعبير، قد أدّى إلى سقوط النّيابة وتولّي الحرف مهمّة الوصل بين الصّورة والخلفيّة التي احتلّ محلّها الظرف. وهو ما يظهر من خلال أمثلة كثيرة سواء كان الظرف فيها نكرة «أقبل من وراءٍ»، أو معرّفًا بالألف واللاّم أو الإضافة «أقبل من الوراء» أو «أقبل من وراء السّتار»: «من لدن صلاة العصر إلى وقت كذا ومن لدن الحائط إلى مكان كذا»[1].
ويشترك (١) و(٢)، في ضرورة انتهاء مسار الصّورة إلى الخلفيّة، وهو ما تترجمه العلاقة التركيبيّة بين الظرف-المضاف الممثّل للمسار والكيان المضاف إليه الممثّل للخلفيّة، وهي علاقة وحدةٍ غير قابلة للتّفكّك: «الفصل بين المضاف والمضاف إليه قبيح **لأنّهما كالشيء الواحد**؛ فالمضاف إليه من تمام المضاف يقوم مقام التّنوين ويعاقبه فكما لا يحسن الفصل بين التّنوين والمُنوَّن كذلك لا يحسن الفصل بينهما»[2]. وذهب البصريّون إلى عدم جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه «لأنّ المضاف والمضاف إليه بمنزلة

١- ابن يعيش، شرح المفصّل، ج٢، ص١٢٧.
٢- ابن يعيش، شرح المفصّل، ج٣، ص٢٠.

الشيء الواحد»، وذلك باستثناء بعض الاستعمالات التي يُفصل فيها بينهما بالظرف أو حرف الجرّ كما في «للّه درّ اليوم من لامها» أو في «هما أخوا في الحرب من لا أخا له». أمّا الكوفيّون فقد جوّزوا «الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف وحرف الخفض لضرورة الشّعر»[1]. وتظهر هذه العلاقة التركيبيّة العضويّة على المستوى الإعرابيّ من خلال اعتبار النحاة المضافَ والمضافَ إليه بمنزلة الاسم الواحد، فهما يكوّنان محلًا اسميًّا واحدًا بحكم كون المضاف اسمًا عاملًا عمل الحرف: «يقتضي الاسم العامل عمل الحرف ما به يكوّن محلًا اسميًّا واحدًا. و(..) النحاة لم يختلفوا في اعتبار المضاف والمضاف إليه بمنزلة الاسم الواحد (..) وقد ذهبوا إلى تشبيه المضاف والمضاف إليه في الاحتياج إلى التمام بالاسم الموصول وصلته. فسيبويه يقول مثلًا إنّ المضاف إليه «من الاسم الأوّل بمنزلة الوصل من «الذي» إذا قلت «الذي قال»، وبمنزلة التّنوين في الاسم»[2].

وتؤدّي الظروف المضافة، شأنها شأن حروف الجرّ، وظيفة وصف المسار الذي يعبّر عنه الفعلُ من خلال تعديته إلى الكيان الخلفيّة. وتمثّل الخلفيّة المحلّ الاسميّ الذي يؤدّي وظيفة وصف المسار وصفًا قائمًا على تنزيله ضمن بنية فضائيّة معيّنة عبّر عنها النحو القديم بمقولة المكان: «أكّد النحاة أنّ الأفعال كلّها تقبل التّعدية إلى مفاهيم مقوليّة كالحدث والزّمان والمكان والصّفة عن طريق المفعول المطلق والمفعول فيه والحال. فالعلاقة بين حروف التّعدية والمحلاّت الاسميّة تقوم حسب النحاة على أساس مضامين الأفعال وخصائصها المعنويّة المعجميّة «فكلّ فعل يطلب محلًا لا يعقل دونه ولا يعقل منفصلًا عنه. وهو مع ذلك يكتسب منه وصفًا. فلا يصل إليه إلاّ بحرف. وما طلبه ولم يكتسب منه وصفا تعدّى إليه بنفسه نحو الضّرب والقتل» وسمّيت هذه الحروف عند الكوفيين حروف الخفض أو حروف الصّفات»[3].

١- الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، القاهرة، دار إحياء التراث، ج١، ص-ص٤٣١-٤٤٣.

٢- المنصف عاشور، ظاهرة الاسم في التفكير النحوي: بحث في مقولة الاسمية بين التمام والنقصان، تونس، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ط٢، ٢٠٠٤، ص٦١٤.

٣- عاشور، ظاهرة الاسم في التفكير النحوي، ص٤٨٨.

وتجدر الإشارة إلى أنّه قد يقع تبئير المسار الذي يعبّر عنه الظرف من خلال تقديم الخبر على المبتدأ في استعمالات أهمّها: التّقديم الوجوبيّ للظرف كما في «عندك قلم»، أو التّقديم الاختياريّ كما في «أمامك زيدٌ». ويكون الكيان المتحرّك («قلم»، «زيد») ممثّلا للصّورة التي تراجعت درجة بروزها نتيجة التّأخير، في حين يمثّل ضمير المخاطب الخلفيّة لأنه الكيان المرجعيّ الذي يحدّد على أساسه موقع زيد. أمّا الظرف الممثّل للمسار فقد احتلّ الصّدارة من جهة درجة البروز. وفي رأينا أنّ تقديم الظرف يعبّر عن البروز الدّلالي للمسار لأسباب مرتبطة بتصوّرات إدراكيّة لدى المتكلّم. وقد أثّر هذا البروز في الجانب الإعرابيّ، فاعتبر الكوفيّون الظرف عاملًا الرّفعَ في المبتدأ المؤخّر واستبعدوا قول البصريين بارتفاع «زيد» بالابتداء [1].

ويرتبط الظرف بالفعل ارتباطًا وثيقًا، ممّا جعل النحاة يشبّهون الظروف بالمصادر من جهة شدّة طلب الفعل لها، فهو يتعدّى إليها بجميع أنواعه اللاّزم والمتعدّي. فالظرف هو **وعاء للفعل**: «اعلم أنّ الظرف ما كان وعاء لشيء وتُسمّى الأواني ظروفًا لأنها أوعية لما يُجعل فيها وقيل للأزمنة والأمكنة ظروف لأنّ الأفعال توجد فيها فصارت كالأوعية لها»[2]. وتتضمّن ظروف المكان حسب النحاة «**معنى الفعليّة** لأنّها «تكون أخبارًا عن الاسم». ويُعدُّ المضاف إليه من قبيل ما يطلبه الفعلُ. فقد حُلّل الظرف كفوق في معنى استقرّ أو مستقرّ فوق. والفعل دالّ على ما سمّاه الكوفيّون الصفات والمحال. فالظرف الزماني والمكاني كالصفة المحتاجة إلى مظروفها ليتمّ الاسم. فمعنى خلف وقدّام وأمام وبعد وقبل **معنى أفعالها**»[3].

ويعبّر عن المسار من خلال الفعل المتعلّق بالظرف سواء كان ذلك الفعل ظاهرًا أو مقدّرًا: أمّا في الحالة الأولى فيكون الظرف مفعولًا فيه متعلّقًا بمركّب إسنادي فعلي ظاهر. وقد استعمل النحاة مصطلحات عديدة لتسمية المفعول فيه نحو «الظرف» و«الوعاء» و«الصفة» و«المحلّ». وهي تشترك في الدلالة على أنّ المفعول فيه وعاء للحدث، أي أنّه الوظيفة النحويّة المحقّقة لبنية الفضاء في اللّغة.

١- الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ج١، ص٥١.

٢- ابن يعيش، شرح المفصل، ج٢، ص٤١.

٣- المنصف عاشور، ظاهرة الاسم في التفكير النحوي، ص-ص٦١٥-٦١٦.

أمّا في الحالة الثّانية، فيقع تقدير الفعل قبل الظرف في أربع حالات إعرابيّة هي وقوعه إمّا خبرًا أو صفة أو صلة أو حالًا: «وكذا حال الظرف في ثلاثة مواضع أخر: الصّفة، والصّلة، والحال، وفيما عدا المواضع الأربعة لا يتعلّق الظرف والجار والمجرور إلاّ بملفوظ مجرور»[1].

والدليل على أنّ الفعل المقدّر حامل لبنية فضائيّة ناشئة عن الظرف هي **اشتراط أن يكون ذلك الفعل ذا معنى عامّ يُلائم الدلالة الخطاطيّة للظرف**: «وينبغي أن يكون ذلك العامل من الأفعال العامّة، أي ممّا لا يخلو منه فعل نحو: كائن، وحاصل، ليكون الظرف دالاّ عليه، ولو كان خاصًّا كآكل وشارب، وضارب وناصر، لم يجز لعدم الدليل عليه»[2]. وهو ما يحيل على طبيعة الإضافة المعنويّة التي تؤوّل بالمعنى الإسنادي «فوق الجبل» أي «كائن فوق الجبل واعتلى الجبل وصعد الجبل»، فالإضافة المعنويّة التي يكون فيها المضاف ظرفًا «دالّة على **عمليّة إسناديّة مقترنة بمفهوم الوجود والكون**»[3].

وفي ظنّنا أنّ تغليب النحاة أن يكون العنصر المقدّر المتعلّق بالظرف فعلًا، عائد إلى قوّة دلالة الفعل على المسار مقارنة باسم الفاعل بالرغم من كونه أقرب مشتقّات الفعل دلالة على المسار: «وأكثرهم على أنّ المحذوف المتعلّق به **فعلٌ** لأنّنا نحتاج إلى ذلك المحذوف للتعلّق، وإنما يتعلّق الظرف باسم الفاعل في نحو: أنا مارٌّ بزيد لـ**مشابهته للفعل**، فإذا احتجنا إلى المتعلَّق به فـ**الأصلُ أولى** وأيضًا، للقياس على: الذي في الدار زيد، و«كلّ رجل في الدار فله درهم»، **والمتعلَّق في الموضعيْن فعل** لا غير»[4]. ومن بين التسويغات التي أوردوها لتسويغ ترجحيهم تقدير الفعل مسوّغ تركيبيّ مفاده وقوع الظرف صلة، والصّلة لا تكون إلاّ جملة «(..) الذي يدلّ على صحّة ما ذكرناه أنّا وجدنا الظرف يكون صلةً للّذي، نحو «رأيتُ الذي أمَامَك، والذي ورَاءَك» وما أشبه ذلك، والصّلة لا تكون إلاّ جملة فلو كان المقدّر اسم الفاعل الذي هو مستقرّ لكان مفردًا، لأنّ اسم الفاعل مع الضمير لا يكون جملة، وإنما يكون مفردًا، والمفرد لا يكون صلة البتّة،

١- الأستراباذي، شرح الكافية في النحو، ج١، ص- ص٢٤٤-٢٤٥.

٢- الأستراباذي، نفسه، ج١، ص٢٤٤.

٣- المنصف عاشور، ظاهرة الاسم في التفكير النحوي، ص٦١٨.

٤- الأستراباذي، شرح الكافية في النحو، ج١، ص٢٤٥.

فوجب أن يكون المقدّر الفعلَ الذي هو استقرّ، لأنّ الفعل مع الضمير يكون جملة»[1].

ولعلّ التّبرير الذي ذهب إليه الكوفيّون في تفسير لزوم الظروف للإضافة، عائد إلى ما لاحظوه من تشابه بين الظرف والفعل في التّعبير عن المسار الذي «اشتمّوا» رائحته من الظرف: «وقال الكوفيّون إنما لزمت [الظروف] الإضافة **لأنّها تكون أخبارًا عن الاسم كما يكون الفعل خبرًا عن الاسم** إذا قلت زيد يذهب ويركب فلمّا كان الفعل يحتاج إلى فاعل وقد يتّصل به أشياء يقتضيها من المصدر والمكان والزمان والمفعول **ألزموا الظرف الإضافة ليسدّ المضاف إليه مسدّ ما يطلبه الفعل ويدلّ عليه**»[2].

لقد أُشرب الظرف معنى المسار من الفعل، فأصبح الظرف نائبًا عن الفعل عاملًا الرّفعَ في الاسم الواقع بعده: «ذهب الكوفيون إلى أنّ الظرف يرفع الاسم إذا تقدّم عليه، **ويسمّون الظرف المحلّ**، ومنهم من يسمّيه الصّفة، وذلك نحو قولك «أمَامَكَ زيدٌ، وفي الدار عمرو» (..) واحتجّوا بأن قالوا: إنما قلنا ذلك لأن الأصل في قولك «أمَامَك زيد، وفي الدار عمرو» حلّ أمامك زيدٌ، وحلّ في الدار عمرو، **فحذف الفعل واكتفى بالظرف منه**، وهو غير مطلوب، فارتفع الاسم به كما يرتفع بالفعل»[3]. ويبدو أنّ تسمية الظرف بـ «المحلّ» عائد إلى سببيْن: أوّلهما دلالي متمثّل في أنّ الظرف وعاء يحلّ فيه الحدث كنا في «الكتاب في المحفظة» وتقديره «الكتاب استقرّ في المحفظة»، فالظرف «في»، هنا، هو «المحلّ» بمعنى أنّه **فضاء أو موضع فارغ يقع ملؤه من خلال الحدث المعبّر عن مسار حلول الصّورة في الخلفيّة**. ثانيهما إعرابي متمثّل في أنّ الظرف يحلّ محلّ الفعل المحذوف ويقوم مقامه في رفع الاسم بعده، إذ لا رافع للاسم، لدى أهل الكوفة، إلاّ الفعلُ سواء كان ظاهرًا أو غير ظاهر، ولهذا نابه الظرف عند حذفه. وهو ما يخالف مذهب البصريين الذين ينفون العمل الإعرابيّ عن الظرف نفيًا قاطعًا، وحجّتهم أنّ العامل لا تدخل عليه العوامل: «ولو كان [الظرف] هاهنا عاملًا لقيامه مقام الفعل لما جاز أن تدخل عليه العوامل فتقول: «إنّ أمامك زيدًا، وظننت خلفك عمرًا»، وما أشبه ذلك، لأنّ عاملًا

١- الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ج١، ص٢٤٧.

٢- ابن يعيش، شرح المفصل، ج٢، ص١٢٧.

٣- الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ج١، ص-ص٥١-٥٢.

لا يدخل على عامل، فلو كان الظرف رافعًا لزيد لما جاز ذلك»[1]. فـ«زيد» في «أمامك زيد» قد ارتفع بعامل معنويّ هو الابتداء لأنّ هذه البنية قد تعرّت من العوامل اللّفظيّة. وهو ما يتأكّد من خلال إرجاع هذا القول إلى أصله، وهو «زيد أمامك»، حيث لم يرتفع «زيد» بالظرف الآتي بعده، بل بالعامل المعنويّ.

ومهما يكن من أمر الخلاف بين المدرستيْن حول رافع الاسم الواقع بعد الظرف، فإنّ تجويز الكوفة لأن يكون الظرف عاملًا إعرابيًّا نيابة عن الفعل يقف دليلًا على قوّة حضور خطاطة المسار التي يعبّر عنها الظرف بوصفه محلًا للحدث يختزنه ويتضمّنه بالقوّة.

ويتميّز المسار الذي تعبّر عنه البنية الخطاطيّة للظروف المبهمة بكونه مسارًا بلا حدود، وذلك نظرًا إلى اشتراك هذه الظروف مع الأفعال المتعلّقة بها في صفة الإبهام، كما سبق أن أوضحنا. إلاّ أنّ استعمال هذه الظروف مضافة من شأنه أن يرسم حدودًا للمسار قائمة على طرفيْه: الصّورة والخلفيّة. ويمكن القول إنّ الخلفيّة المتحقّقة من خلال الوظيفة النحويّة للمضاف إليه، هي العنصر الأبرز المسؤول عن إخراج المسار من «الإطلاق» أو «اللاّمحدوديّة»، ذلك أنّ الصّورة يمكن أن تحضر ويبقى المسار المعبّر عنه الظرف غائم المعالم كما في قولنا: «زيد في الأمام» ولا يظهر حدّ المسار وغاية انتهائه إلاّ بإضافته في مثل قولنا: «زيد أمامك»: «وقال أبو العبّاس إذا قلت جلست مكانًا حسنًا وقمت خلف زيد فالفعل **إنما تعدّى إلى مكان مبهم** وإنما نعته بعد أن عمل فيه الفعل وكذلك جلست خلفك ووراءك **لأنّ خلفًا لا ينفكّ منه شيء أن يكون خلف واحد وإنما أضافه بعد أن كان مطلقًا** وعمل فيه الفعل»[2].

مثلما تتحقّق خطاطة المسار في الاستعمالات التي يكون فيها الظرف مسندًا خبرًا متعلّقًا بمسند إليه مبتدأ ضمن مركّب إسنادي اسمي كقولنا: الكأس فوق الطاولة. وذلك على أساس تقدير فعل سابق للظرف وعامل فيه إعرابيًّا: «[القول في عامل النّصب في الظرف الواقع خبرًا] ذهب الكوفيون إلى أنّ الظرف ينتصب على الخلاف إذا وقع خبرًا للمبتدأ، نحو «زيدٌ أمامَك، وعمرو وراءَك» وما أشبه ذلك. وذهب أبو

١- الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ج١، ص٥٢.

٢- ابن يعيش، شرح المفصل، ج٢، ص٤٣.

العباس أحمد بن يحيى ثعلب من الكوفيين إلى أنه ينتصب لأنّ الأصل في قولك: «أمامك زيدٌ» حلّ أمامك، فحُذف الفعل وهو غير مطلوب واكتُفي بالظرف منه فبقي منصوبًا على ما كان عليه مع الفعل. وذهب البصريون إلى أنه ينتصب بفعل مقدّر، والتقدير فيه: زيد استقرّ أمامك، وعمرو استقرّ وراءك. وذهب بعضهم إلى أنه ينتصب بتقدير اسم فاعل، والتقدير: زيدٌ مستقِرّ أمامَك، وعمرو مستقرّ وراءَك»[1].

إنّ الظرف، عند اشتغاله عنصرًا نحويًّا، يُفرغ من مضمونه التصوّري ليؤدّي دورًا تركيبيًّا متمثّلًا في الرّبط بين الصّورة والخلفية. وهو ما يفسّر، في رأينا، تبرير الكوفيين للحكم الإعرابيّ للظرف إذا كان خبرًا، بالاستناد إلى حجّة دلاليّة هي مخالفة الظّرف- الخبر المبتدأ في المعنى. ذلك أنّ الخبر يكون، في الاشتقاق، صفة للمبتدأ. والصّفة، في المعنى، جزء من الموصوف. ممّا يؤدّي إلى الاتّفاق المعنويّ بينهما أي إلى كون «خبر المبتدأ في المعنى هو المبتدأ». ومن ثم فإنّ المضمون التصوّريّ الذي يحمله الخبر مكمّل لمضمون المبتدأ: «خبر المبتدأ هو الجزء المستفاد الذي يستفيده السامع ويصير مع المبتدأ كلامًا تامًّا. والذي يدلّ على ذلك أنّ به يقع التصديق والتّكذيب، ألا ترى أنّك إذا قلت «عبد الله منطلق» فالصّدق والكذب إنما وقعا في انطلاق عبد الله لا في عبد الله لأن الفائدة في انطلاقه وإنما ذكرت عبد الله وهو معروف لدى السامع لتسند إليه الخبر الذي هو الانطلاق»[2]. وعلى خلاف ذلك، فإنّ الظرف في حدّ ذاته، أي دون اعتبار الاسم المضاف إليه، لا يحمل مضمونًا تصوّريًّا خاصًّا بالمبتدأ، لأنّه لا يدلّ على معنى مخصوص بقدر دلالته على الاتّجاه الفضائي، وهو معنى «خطاطي» عامّ. ومن هنا، يمكن فهم ما ذهب إليه الكوفيون من انتصاب الظرف-الخبر «بالخلاف» أي إنّ إعرابه خالف إعراب المبتدأ مثلما خالف معناه معنى المبتدأ: «إنما قلنا إنه ينتصب بالخلاف وذلك لأن خبر المبتدأ في المعنى هو المبتدأ، ألا ترى أنك إذا قلت «زيد قائم، وعمرو منطلق» كان قائم في المعنى هو زيد، ومنطلق في المعنى هو عمرو، فإذا قلت «زيد أمامَك، وعمرو وراءَك» لم يكن أمامك في المعنى هو زيد، ولا وراءك في المعنى هو عمرو، كما كان قائم في المعنى هو زيد ومنطلق في المعنى هو عمرو، فلما كان مخالفًا له نُصب على الخلاف ليفرّقوا

١- الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ج١، ص-ص٢٤٥-٢٤٦.

٢- ابن يعيش، شرح المفصّل، ج١، ص٨٧.

بينهما»[1]. «وانتصاب الظرف خبرًا للمبتدأ عند الكوفيين على الخلاف، يعنون أنّ الخبر لما كان هو المبتدأ في نحو: زيد قائم، أو كأنّه هو في: «وأزواجه أمّهاتهم»، ارتفع ارتفاعه، ولما كان مخالفًا له بحيث لا يُطلق اسم الخبر على المبتدأ، فلا يقال في نحو «زيد عندك»، إنّ زيدًا «عنده» خالفه في الإعراب، فيكون العامل عندهم معنويًّا وهو معنى المخالفة التي اتّصف بها الخبر، ولا يحتاج عندهم إلى تقدير شيء يتعلّق به الخبر»[2].

ولعلّ ما يُدعّم دلالة الظروف على المسار ظاهرة تسمية الأفعال بالظروف، ممّا يجعلها تُصنّف ضمن «أسماء الأفعال»: «(...) فمن ذلك قالوا «دونك زيدًا» أي خذه من تحت، و«عندك عمرًا» أي الزمه من قرب. وقالوا «مكانك» بمعنى اثبت، قال الله تعالى (مكانكم أنتم وشركاءكم) فأكّد الضمير في مكانكم حيث عطف عليه الشركاء فهو كقولك اثبتوا أنتم وشركاؤكم، وقالوا «بَعدك» و«وراءك» إذا قلت له تأخّر وحذّرته شيئًا من خلفه، وقالوا: «فرطك» و«أمامك» إذا حذّرته من بين يديْه شيئًا. فهذه كلّها ظروف أنيبت عن فعل الأمر فهي في مذهب الفعل»[3].

١,٢.الخلفيّة كيانًا محسوسًا أو مجرّدًا

يمكن للكيان الخلفيّة أن يمثّل مشهدًا مرجعيًّا محسوسًا أو مجرّدًا، وهو ما نتبيّنه من خلال الفرق بين (٣) و(٤):

(٣) العصفور فوق الشجرة.
ص خ

(٤) كنتُ أظنّ أنّ العقرب أشدُّ لسعةً من الزُّنبور فإذا هو إيّاها.
ص خ

يخفي الإسناد الإسميّ، في (٣)، مسارًا حركيًّا (يعبّر عنه الظرف «فوق») رابطًا بين (ص) و(خ)،ومندرجًا ضمن بنية دلاليّة خفيّة حاول النحاةُ القُدامى أن يفسّروا، انطلاقًا منها، عملَ النصب في الظرف الواقع خبرا. وتتمثّل هذه البنية في الفعل المقدّر

١- الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ج١، ص-ص٢٤٥-٢٤٧.

٢- الأستراباذي، شرح الكافية في النحو، ج١، ص-ص٢٤٣-٢٤٤.

٣- ابن يعيش، شرح المفصّل، ج٤، ص٧٤.

الذي عمل النّصبَ في الظرف. وذلك على أساس أنّ القول (٣) عبارة عن بنية سطحيّة تخفي بنية عميقة هي: «العصفورُ استقرّ في فوقِ الشّجرة». وذلك أنّ كلّ الظروف، كما بيّنّا، مقدَّرٌ بـ«في» ولا بدّ لحرف الجرّ أن يتعلّق بفعل دالّ على المسار الحركي الذي سلكته (ص)، وهو الكيان المتحرّك، في اتّجاهها نحو (خ)، وهو الكيان الثّابت. وعند حذف الحرف يتّصل الفعلُ بالظرف فينصبه. وقد اعتمد البصريّون عدّة حجج للدّفاع عن هذا المذهب ودحض ما ذهب إليه معظم الكوفيين من أنّ الظّرف ينتصب على الخلاف عند وقوعه خبرًا للمبتدأ. ولعلّ ترجيح الأنباري أن يكون المقدّر الفعل وليس اسم الفاعل كما ذهب إليه بعض البصريين، عائد إلى ما ذهبنا إليه من أنّ الفعل أشدُّ تعبيرًا عن المسار الخطاطيّ الحركيّ المتّجه من (ص) نحو(خ):«[القول في عامل النّصب في الظرف الواقع خبرًا] ذهب الكوفيون إلى أنّ الظرف ينتصب على الخلاف إذا وقع خبرًا للمبتدأ، نحو «زيدٌ أمامَك، وعمرو وراءَك» وما أشبه ذلك. وذهب أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب من الكوفيين إلى أنه ينتصب لأنّ الأصل في قولك: «أمامك زيدٌ» حلّ أمامك، فحذف الفعل وهو غير مطلوب واكتفي بالظرف منه فبقي منصوبًا على ما كان عليه مع الفعل. وذهب البصريون إلى أنه ينتصب بفعل مقدّر، والتقدير فيه: زيد استقرّ أمامك، وعمرو استقرّ وراءك. وذهب بعضهم إلى أنه ينتصب بتقدير اسم فاعل، والتقدير: زيدٌ مستقِرّ أمامَك، وعمرو مستقرّ وراءَك.

أمّا الكوفيّون فاحتجّوا بأن قالوا: إنما قلنا إنه ينتصب بالخلاف وذلك لأن خبر المبتدأ في المعنى هو المبتدأ، ألا ترى أنك إذا قلت «زيد قائم، وعمرو منطلق» كان قائم في المعنى هو زيد، ومنطلق في المعنى هو عمرو، فإذا قلت «زيد أمامَك، وعمرو وراءَك» لم يكن أمامك في المعنى هو زيد، ولا وراءك في المعنى هو عمرو، كما كان قائم في المعنى هو زيد ومنطلق في المعنى هو عمرو، فلما كان مخالفًا له نُصب على الخلاف ليفرّقوا بينهما.

وأمّا البصريّون فاحتجّوا بأن قالوا: إنما قلنا إنه ينتصب بعامل مقدّر وذلك لأن الأصل في قولك: «زيد أمامك، وعمرو وراءك»: في أمامِك، وفي ورائِك، لأن الظرف: كلّ اسم من أسماء الأمكنة أو الأزمنة يراد فيه معنى «في» وفي: حرف جرٍّ، وحروف الجرّ لا بدّ لها من شيء تتعلّق به، لأنها دخلت رابطة تربط الأسماء بالأفعال، كقولك «عجبت من زيد، ونظرت إلى عمرو» ولو قلت «من زيد» أو «إلى عمرو» لم يجز حتّى تقدّر لحرف

الجرّ شيئا يتعلّق به، فدلّ على أنّ التقدير في قولك: «زيد أمامك، وعمرو وراءك» زيد استقرّ في أمامِك، وعمرو استقرّ في ورائك ثمّ حذف الحرف فاتّصل الفعلُ بالظرف فنصبه، فالفعل الذي هو استقرّ مقدّر مع الظرف، كما هو مقدّر مع الحرف.

وأمّا من ذهب من البصريين إلى أن الظرف ينتصب بتقدير اسم الفاعل –وهو مستقرّ– قال: لأن تقدير اسم الفاعل أولى من تقدير الفعل، لأن اسم الفاعل اسم يجوز أن يتعلّق به حرفُ الجرّ، والاسم هو الأصل، والفعل فرع، فلما وجب تقدير أحدهما كان تقدير الأصل أولى من تقدير الفرع.

والصحيح عندي هو الأوّل، وذلك لأن اسم الفاعل فرع على الفعل في العمل وإن كان هو الأصل في غير العمل، فلما وجب هاهنا تقدير عامل كان تقدير ما هو الأصل في العمل –وهو الفعل– أولى من تقدير ما هو الفرع فيه وهو اسم الفاعل.

والذي يدلّ على صحّة ما ذكرناه أنّا وجدنا الظرف يكون صلة للذي، نحو «رأيت الذي أمامك، والذي وراءك» وما أشبه ذلك، والصلة لا تكون إلاّ جملة فلو كان المقدّرُ اسمَ الفاعل الذي هو مستقرّ لكان مفردًا، لأن اسم الفاعل مع الضمير لا يكون جملة، وإنما يكون مفردًا، والمفرد لا يكون صلة البتّة، فوجب أن يكون المقدّر الفعلَ الذي هو استقرّ، لأنّ الفعل مع الضمير يكون جملة فدلّ على ما بيّنّاه.

وأمّا الجواب عن كلمات الكوفيين: أمّا قولهم «إنّ خبر المبتدأ في المعنى هو المبتدأ، وإذا قلت «زيد أمامك، وعمر وراءك» فأمامك ليس هو زيد، ووراءك ليس هو عمرو، فلما كان مخالفًا له وجب أن يكون منصوبًا على الخلاف» قلنا: هذا فاسد، وذلك لأنه لو كان الموجب لنصب الظرف كونَه مخالفا للمبتدأ لكان المبتدأ أيضا يجب أن يكون منصوبًا، لأن المبتدأ مخالف للظرف كما أن الظرف مخالف للمبتدأ، لأن الخلاف لا يُتصوّر أن يكون من واحد وإنما يكون من اثنين فصاعدا، فكان ينبغي أن يقال «زيدًا أمامك، وعمرًا وراءك» وما أشبه ذلك، فلما لم يجز ذلك دلّ على فساد ما ذهبوا إليه.

وأمّا قول أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب: «إنه ينتصب بفعل محذوف غير مقدّر، إلى آخر ما قرّر» ففاسد أيضًا، وذلك لأنه يؤدّي إلى أن يكون منصوبًا بفعل معدوم من كلّ وجه لفظًا وتقديرًا، والفعل لا يخلو، إمّا أن يكون مُظهَرًا موجودًا أو مقدَّرًا في

حكم الموجود، فأمّا إذا لم يكن مظهرًا موجودًا ولا مقدّرًا في حكم الموجود كان معدومًا من كل وجه، والمعدوم لا يكون عاملًا، وكما يستحيل في الحسّيّات الفعلُ باستطاعة معدومة، [...] فكذلك يستحيل في هذه الصناعة النصبُ بعامل معدوم لأن العلل النحوية مشبّهة بالعلل الحسيّة. والذي يدلّ على فساد ما ذهب إليه أنه لا نظير له في العربية، ولا يشهد له شاهد من العلل النحوية، فكان فاسدًا»[1].

أمّا القول (٤)، فيُقدّمُ مشهديْن فضائيّيْن افتراضيّيْن: يتأسّس المشهدُ الأوّل على تركيب مفاضلة منعقد من خلال اسم التفضيل العامّ «أشدّ» وحامل لشبكة من العلاقات المرتبط بعضها ببعض والتي تفضّل بمقتضاها لسعة العقرب على لسعة الزنبور. ويحدث هذا المشهد في فضاء الاعتقاد الذي يُدرجه الفعلُ «أظنّ». أمّا المشهد الثّاني فيحافظ على عناصر المشهد الأوّل نفسها مع التغيير في الاستعداد الفضائيّ لطرفي المفاضلة اللذيْن يتّجهان بالمسار الرّابط بينهما من انعدام التّوازي نحو التّساوي والتّكافؤ بين طرفيْه. ويحدث المشهد الثّاني في فضاء الواقع الذي أدرجه الظرف «إذا» المتضمّن لمعنى المفاجأة، وهو فضاء اعتقاديّ ثان محوّر للفضاء الأوّل ومقوّض له ناشئ عن وجود معطيات جديدة تعرّف عليها المتكلّم في الواقع جعلته يعدل عن اعتقاده الأوّل. ولعلّ في معنى الوجود الذّهني الذي يتضمّنه الظرف «إذا»، مبرّرًا دلاليًّا يرجّح مذهب أهل الكوفة في اعتبار «إذا» ظرفًا يعمل عمل النصب في الخبر لأنّه بمعنى فعل الاعتقاد «وجدت». وبالرغم من معارضة البصريّين عمل النصب في الخبر نظرًا إلى اعتمادهم في تسويغ العمل الإعرابيّ على اللّفظ دون المعنى، فإنّهم لم يخالفوا الكوفيين في أنّ الظرف «إذا» مطابق، من الناحية الدلاليّة، لفعل الاعتقاد «وجدت». وهو ما يتّضح من خلال المناظرة التي وقعت بين سيبويه شيخ نحاة البصرة والكسائي شيخ نحاة الكوفة والتي اشتهرت باسم «المسألة الزّنبوريّة»: «ذهب الكوفيون إلى أنه يجوز أن يقال «كنتُ أظنُّ أنّ العقرب أشدُّ لسعة من الزُّنبور فإذا هو إيّاها». وذهب البصريّون إلى أنه لا يجوز أن يقال «فإذا هو إيّاها». ويجب أن يقال «فإذا هو هي» (..) الدليل الأوّل الذي قدّمه الكوفيون على صحّة مذهبهم سماعيّ والثّاني قياسي. أمّا الأوّل فظهر من خلال حكاية مناظرة بين سيبويه والكسائي أوردها الأنباري في الإنصاف، واتّخذها الكوفيون دليلًا على

١- الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ج١، ص-ص٢٤٥-٢٤٧.

صحّة مذهبهم: «فوجه الدليل من هذه الحكاية أنّ العرب وافقت الكسائي، وتكلّمت بمذهبنا، وقد حكى أبو زيد الأنصاريّ عن العرب «قد كنت أظنّ أنّ العقرب أشدّ لسعة من الزّنبور فإذا هو إيّاها» مثل مذهبنا فدلّ على صحّة ما ذهبنا إليه». أمّا الحجّة القياسيّة «فقالوا: إنما قلنا ذلك لأن «إذا» إذا كانت للمفاجأة كانت ظرفَ مكانٍ، والظرف يرفع ما بعده، وتعمل في الخبر عمل وجدتُ، لأنها بمعنى وجدتُ».

أمّا حجّة البصريين على عدم جواز النصب وأنه لا يجوز إلاّ الرفعُ فهي أنّ ««هو» مرفوع بالابتداء، ولا بدّ للمبتدأ من خبر، وليس ها هنا ما يصلح أن يكون خبرًا عنه، إلاّ ما وقع الخلاف فيه فوجب أن يكون مرفوعًا، ولا يجوز أن يكون منصوبًا بوجهٍ ما، فوجب أن يقال «فإذا هو هي» فهو: راجع إلى الزّنبور لأنه مذكّر، وهي: راجع إلى العقرب لأنه مؤنث. وأمّا الجواب عن كلمات الكوفيين: أمّا ما رووه عن العرب من قولهم «فإذا هو إيّاها» فمن الشاذّ الذي لا يعبأ به كالجزم بلن والنصب بلم وما أشبه ذلك من الشواذّ التي تخرج عن القياس (..) وأمّا قولهم «إنّ «إذا» إذا كانت للمفاجأة كانت بمنزلة وجدتُ فباطلٌ لأنها إن كانت بمنزلة «وجدتُ» في العمل فوجب أن يُرفعَ بها فاعل ويُنصب بها مفعولان كقولهم «وجدتُ زيدًا قائمًا» فترفع الفاعل وتنصب المفعولَيْن، وإن قالوا إنها بمعنى وجدت ولا تعمل عملها كما أن قولهم «حسْبُك زيدٌ» بمعنى الأمر وهو اسم وليس بفعل، وكقولهم «أَحْسِنْ بِزَيْدٍ» لفظُه لفظُ الأمر وهو بمعنى التعجّب، وكقولهم «رحِم اللهُ فلانًا» لفظه لفظ الخبر وهو في المعنى دعاءٌ (..) فكذلك نقول نحن ها هنا: «إذا» بمعنى وجدت وهي **في اللّفظ ظرف مكان، وظرف المكان** يجب رفع المعرفتيْن بعده، فوجب أن يُقال «فإذا هو هي». وإن قالوا «إنها تعمل عمل الظرف وعمل وجدتُ، فترفع الأوّل لأنها ظرف وتنصب الثاني على أنها فعل ينصب مفعولَيْن» فباطل، لأنهم إن أعملوها عمل الظرف بقي المنصوب بلا ناصب، وإن أعملوها عمل الفعل لزمهم وجود فاعل ومفعولَيْن، وليس لهم إلى إيجاد ذلك سبيل»[1].

١- الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ج٢، ص-ص٧٠٤-٧٠٥.

٢. الأشكال الهندسيّة للخلفيّة:

يمكن للظرف بما هو شكل فضائيّ، أن يستدعي خصائصَ هندسيّة معيّنة قائمة إمّا على تجزئة الخلفيّة، أو تشكيلها بطرق مميّزة، أو ربط الخلفيّة بإطار افتراضيّ ربطًا لا يوجد إلاّ في المستوى التّخييلي.

٢, ١. الخلفيّة المجزّأة:

تتنوّع طرق تجزئة الخلفيّة بحسب الظرف المستعمل، ويمكن إيضاح ذلك من خلال أربعة أشكال من المعالجة الخطاطيّة للخلفيّة، مرتّبة ترتيبًا تصاعديًّا من الوحدة إلى التفتّت. إذ توجد ظروف ضعيفة من حيث درجة تجزئة الخلفيّة يمثّلها الشّكل١، في حين تزداد درجة احتمال التجزئة تدريجيًّا مع الشّكليْن ٢و٣.

- الشّكل ١ الخلفيّة بما هي نقطة مفردة:

تدلّ عليه ظروف من قبيل: قرب، أمام، وراء، فوق، تحت، عند.

(٥) «كانت الدرّاجة واقفة قرب الصّخرة».

- الشّكل ٢ الخلفيّة بما هي نقطة ثنائيّة.

يختصّ بالدّلالة على هذا الشّكل، الظرفُ «بين» الذي يرد المضاف إليه إمّا اسمًا في صيغة المثنّى: «وقفت الدرّاجة[ص] بين الصخرتيْن[خ]»،

أو مركّبا بالعطف: «المسألة[ص] بين سمير وخالد[خ]»،

كما يمكن أن يتكرّر الظرف إذا كان المضاف إليه ضميرًا: «الكتاب[ص] بيني وبينك[خ]».

ونتج عن تقاطع «بين» مع الظرف «وسْط» في الدّلالة على «الشّركة»، إمكانيّةُ أن تتجاوز «بين» الدلالةَ على خلفيّة مكوّنة من نقطة ثنائيّة، إلى الدلالة على خلفيّة متعدّدة النقاط: «أمّا «بين» فظرف من ظروف الأمكنة بمعنى وسط ولذلك يقع خبرًا عن الجثّة نحو قولك: الدار بين زيد وعمرو، والمال بين القوم، وهي توجب الاشتراك من حيث كان معناها «وسط» والشركة لا تكون من واحد وإنما تكون بين اثنيْن فصاعدًا نحو المال بين الزّيْديْن والدار بين القوم فإن أضفتها إلى واحد وعطفت عليه بالواو جاز

نحو: المال بين زيد وعمرو، لأنّ الواو لا توجب ترتيبًا ولو أتيت بالفاء فقلت: المال بين زيد فعمرو، لم يحسن لأنّ الفاء توجب الترتيب وفصل الثّاني من الأوّل فأمّا قول امرئ القيس: «بين الدّخول فحومل» فقد عابه الأصمعي ورواه بالواو وحجّة من رواه بالفاء أنّ الدّخول وحومل موضعان يشتمل كلّ واحد منهما على أماكن كالشام والعراق فلو قلت: عبد الله بين الدّخول تريد بين مواضع الدّخول لتمَّ الكلامُ وصلُح كما تقول سرنا بين الشام والمراد بين مواضع الشام فعلى هذا قال: بين الدخول، أي بين مواضع الدخول، ثمّ عطف بالفاء فقال: فحومل»[١].

_ الشّكل٣: الخلفيّة بما هي جملة من النقاط أو كتلة إجماليّة–مسترسلة من النّقاط.

تدلّ على هذا الشّكل ظروف من قبيل: ضمن، وسْطَ، سواءَ، عرْضَ، خلال.

(٦) «سبحت الأسماك خلال النّهر»(استعمال حركي).

عادة ما تدلّ «ضمن» على خلفيّة ممثّلة بجملة من النقاط التي تتجاوز النقطتيْن بكثير أو بقليل كما في: «المقال ضمن صفحات الكتاب» و«زيد ضمن أصدقائي الأربعة المفضّلين»، أمّا «وسْط» و«عرض» و«سواءَ» فهي أقرب للدلالة على الخلفيّة بما هي كتلة إجماليّة مسترسلة من النّقاط، كما في: «وقفت الدرّاجة وسْط الأحجار»، و«غرقت السفينة عرض/ سواءَ البحر»: « تكون [سواء] بمعنى مستو [ويُوصف به المكان بمعنى أنّه نصفٌ بين مكانيْن] والأفصحُ فيه حينئذ أن يقصر مع الكسر نحو (مكانًا سِوى) (..) وبمعنى الوسط، وبمعنى التامّ، فتُمَدُّ فيهما مع الفتح، نحو قوله تعالى (في سَواءِ الجحيم) (...) **وعند سيبويه والجمهور أنّها ظرف مكان ملازم للنصب**، لا يخرج عن ذلك إلاّ في الضّرورة»[٢].

أمّا «خلال» فتدلّ على شكل كتلة من النقاط المسترسلة التي غالبًا ما تكون في حالة حركة، كما في: «سبحت الأسماكُ خلال النّهر»، وتكون في معنى «بين» و«وسط» إذا كانت الخلفيّة ساكنة: «جلسنا خلال الحيّ وخلال دور القوم» أي جلسنا بين البيوت

١- ابن يعيش، شرح المفصّل، ج٢، ص١٢٨.

٢- ابن هشام، مغني اللبيب، ج١، ص١٤١ وص١٩٩.

ووسط الدّور»[1]، و«سار المحارب خلال العدوّ» أي بينهم، و«أدخل العود خلال أسنانه» أي بينها.

٢, ٢. التّشكّل الهندسي المتفرّد للخلفيّة:

قد تتّخذ الخلفيّة، في استعمالات معيّنة، أشكالًا هندسيّة متفرّدة يمكن التمثيل على بعضها بواسطة الخطاطات الآتية:

ـ سطح ذو حدّيْن: يدلّ على هذه الخطاطة الظرفُ «عبْر» لأنّ العبور يقتضي حدّيْن أو جانبيْن: «عبرت النهرَ والطريق أعبُره عبرًا وعبورًا إذا قطعته من هذا العِبر (الجانب) إلى ذلك العِبر»[2].

(٧) «جرت الدرّاجة عبر الطريق».

ـ سياج خطّي ذو شكل أسطواني: تنتُج هذه الخطاطة عن الظرف «خلال» في بعض استعمالاته.

(٨) «جرت الدرّاجة خلال النّفق»

ـ وعاء تنحدر نحوه الصّورة، وفق حركة نمطيّة، لتدخل فيه: يدلّ على هذا النّوع من الشّكل الهندسيّ، كلّ من الظرفيْن «في» و«داخل»:

(٩)«وضعت الثمار في/ داخل السلّة»، «وضعت المال في/ داخل الجراب»، «سكبت الماء في/ داخل الحوض»، «سقطت الكرةُ في/ داخل الصّندوق»، «قطعة الحلوى في/ داخل الفرن»، «بيضة الأنوق» في/ داخل بطنه».

والفرق بين هذيْن الظرفيْن أنّ «داخل» لا يمكن أن تدلّ إلاّ على خلفيّة في شكل وعاء صلب، ومن ثم فهي مختصّة بالدلالة على هذه الخطاطة. أمّا «في» فتتجاوز هذا الاستعمالَ لتدلّ كذلك على الشكل الهندسي الممثّل لوضعيّة الانغماس في سائل، إذ نقول: «سقطت الكرةُ في الماء». لا نقول: سقطت الكرة داخل الماء.

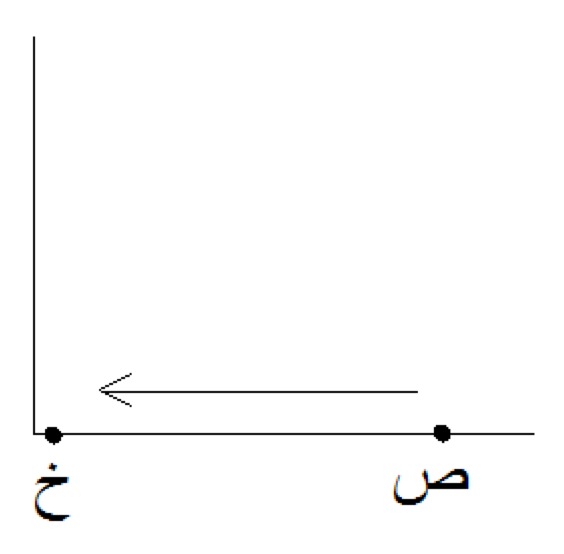
١- ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٩٩٣. مادة (خ ل ل)

٢- ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص١٧.

٢,٣. ارتباط الخلفيّة بإطار:

يحيل كلّ من الظرفيْن «خارجَ»(«تتّجه السفينة تدريجيّا خارج الجزيرة»)، و«نحوَ» (تتّجه السفينة تدريجيًّا نحو الجزيرة») على حركة خلفيّة شبيهة بالنّقطة من وجهة النظر الخطاطيّة.

إلاّ أنّ الفرق بين هذيْن الظرفيْن يتمثّل في أنّ «نحو» ظرف يحيل على معنى الطريق والقصد «النّحو: القصدُ والطريقُ، يكون ظرفًا ويكون اسمًا» و«القصدُ استقامة الطريق»[1]. وهو ما يجعلنا نتصوّر أنّ الخلفيّة توجد في مستوى خطّ عموديّ، أمّا الصّورة فتواجه ذلك الخطّ مكوّنة معه زاوية قائمة. ويبدأ مسار الصورة من نقطة بعيدة عن الخلفيّة متّجهًا نحوها لإدراك خطّ الوصول. ويمكن التمثيل على ذلك من خلال الرّسم الآتي:

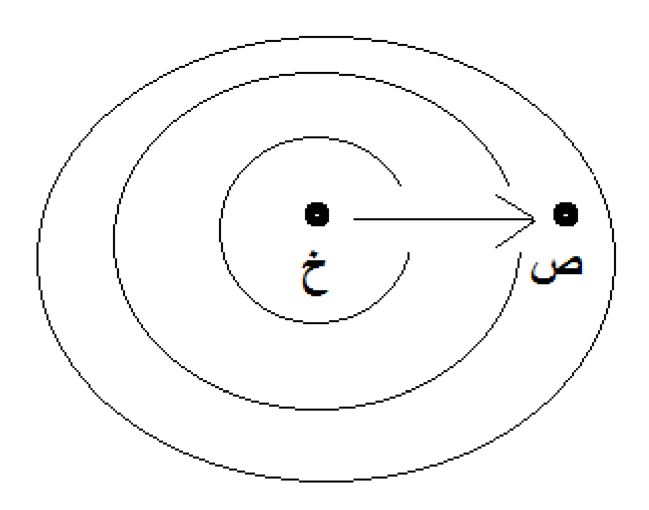


أمّا «خارج» فيحيل على حركة الانتقال من باطن الشيء إلى ظاهره، فـ«خارج كلّ شيء: ظاهره» وهو عكس الداخل «وداخل كلّ شيء: باطنه الداخل»[2] وهو ما يجعلنا نتصوّر أنّ الخلفيّة توجد في مركز مجموعة من الدّائرات المركّزة، وأنّ مسار الصّورة يبدأ

١- ابن منظور، لسان العرب، ج١١-١٤، ص-ص٧٧-١٧٩.

٢- ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٣٠٧.

في مستوى نقطة الخلفيّة ويتّسع اتّساعًا إشعاعيًّا بطريقة متشعّبة، عبر تلك الدّوائر، كما يمثّله الرّسم الآتي:



خاتمة

لقد اهتممنا، في هذا الفصل، بدراسة طريقة تمثيل اللّغة للفضاء من خلال الكشف عن الأبنية النّاشئة عن تعيين الصّورة على أساس خلفيّة مفردة. وقد حاولنا الإلمام بمختلف التشكّلات الخطاطيّة للكيان الخلفيّة من خلال النّظر في خصائصه المشهديّة أوّلًا، وأبرز أشكاله الهندسيّة ثانيًا.

وتفضي بنا الدراسة التطبيقية إلى الإقرار بأنّ ظروف المكان عناصر نحويّة تؤدّي دورًا مركزيًّا في بَنْيَنة المقولة التصوّريّة للفضاء. ومردّ ذلك أنّها تحدّد الأبنية الذّهنيّة الممثّلة للفضاء، من خلال الاختيار النّظاميّ لبعض مظاهر مشهد فضائيّ معيّن وترشيحها لتمثيل المشهد الفضائيّالكليّ دون سائر مظاهره المكوّنة له.

وعلى هذا الأساس، سعينا إلى البرهنة على كيفيّة اشتغال الظروف بما هي عناصر تابعة دلاليًّا وتركيبيًّا لـ «غيرها» لأنّها عناصر نحويّة ممثّلة للمسار الذي يتطلّب تعيين موقع الصّورة على أساس الخلفيّة التي ينتهي إليها. وهذا ما جعلنا نعدّ الظروف، خلافًا للاسم والفعل، جزءًا من الكلام يحتاج إلى ما بعده احتياج الحرف إليه.

لقد حاولت دراستنا التّطبيقيّة الإحاطة بالتمييزات الفضائيّة الرّئيسيّة النّاشئة عن الظروف بما هي عناصر نحويّة، ممّا أدّى بنا إلى ضرب من الشمول الوصفي لمجال دلالي بأسره، ألا وهو الأبنية الذّهنيّة للفضاء المتحقّقة عبر الخطاطة، وإذا ما سلّمنا بما ذهب إليه الشّريف، من أنّ «الدّلالة لا تُحصر وأنّها ظاهرة فوضويّة لا يمكن للسانيات أن تستوعبها إلاّ من خلال البحث عن أبنية دلاليّة قادرة على التّوليد بفضل ما فيها من فقر دلاليّ مصحوب بقوّة احتماليّة كبيرة»[1]، فإنّ الخطاطة بما هي التّمثيل الذّهنيّ للأبنية النحوية المحقّقة لبنية الفضاء في اللّغة، هي الكفيلة، من منظورنا، بأن تمثّل «الأسس البسيطة» المولّدة للأبنية، أو الآليّات اللاّقضويّة المخزّنة بقوّة احتماليّة قادرة على حصر الدلالة واستيعابها.

وعلى أساس ما توصّلنا إليه في هذا المجال، يمكننا اعتبار أنّ الرّؤية التّقليديّة للظروف ضمن التّراث النحوي، قائمةٌ على نظام تصنيفيّ يتميّز بتجانس مقولاته النحويّة، بحيث تبدأ كلّ مقولة من الحدّ الذي تنتهي عنده المقولة المغايرة، وبقدرته الكبرى على استيعاب العناصر ضمن المقولات المشتملة عليها، وبإقصائه للتّداخل بين العناصر المنتمية إلى مقولات مختلفة. إلاّ أنّ صلاحيّة هذا التصوّر تتطلّب، في اعتقادنا، كثيرًا من الفحص والمراجعة ، وهو ما اقترحناه في هذا البحث، إذ أبرزنا مساهمة هذه الظروف في التشكّل النحوي لمجال الفضاء، وذلك اعتمادًا على مقاييس عدّة منها: تجزئة التشكّل الفضائي من أجل إنتاج الصّورة والخلفيّة، والهندسة الخطاطيّة للشيء الصّورة، والهندسة الخطاطيّة للشيء الخلفيّة، والتّناظر واللاّتناظر في هندسة الصّورة والخلفيّة، وهندسة الشيء اللاّمتناظرة المؤسّسة على أجزائه وعلى اتّجاهيّة معيّنة داخله، والأبعاد المناسبة لهندسة الشيء الخطاطيّة، والشروط المتعلّقة بحدود هندسة الشيء الخطاطيّة، وتوجّه الصّورة قياسا إلى الخلفيّة، ونسبيّة حجم الصورة قياسًا إلى الخلفية، وحضور/ أو غياب الاتّصال بين الصّورة والخلفيّة، وحضور/ أو غياب المرجعيّة الذاتيّة بالنسبة إلى التشكّل صورة/ خلفيّة، وحضور/ أو غياب أشياء مرجعيّة أخرى، والإسقاط الخارجي لهندسة الشيء المرجع الثانوي، ونسبة اللاّتناظر إلى الشيء المرجع الأوّلي، واتّجاه الصّورة أو الخلفيّة نحو الأرض/ أو المتكلّم/ أو الشيء المرجع الثانوي، وتبنّي

---

١ – الشريف. الشّرط والإنشاء النّحوي للكون، ج١، ص١٨١.

زاوية وجهة النظر التي نرى من خلالها التشكّل، وتغيير موقع الصّورة أو زاوية وجهة النظر خلال الزّمن. واستنادًا إلى هذه المقاييس، تطلّب التشكّل الخطاطي لمجال الفضاء، عددًا قليلًا -نسبيًّا- من ظروف المكان، ممّا يدلّ على ثراء النظام الرّمزي للّغة العربيّة القادرة، بواسطة عدد محدود من العناصر النّحويّة المنتمية إلى المقولة نفسها، على التّغطية الدّلاليّة الشّاملة لمجال الفضاء. وذلك بالرّغم ممّا لاحظنا من قصور قائمة الظروف المتوفّرة، عن الإمساك ببعض التشكّلات الفضائيّة الدّقيقة، ممّا دفعنا إلى استبدال بعض الظروف الناقصة الضّبط، بظروف بديلة مستحدثة.

وبهذا، تكشف الظروف، بما هي نموذج للتمثيل العرفاني قائم على طريقة اشتغال متفرّدة من حيث بنية المشاهد الفضائيّة، عن قدرة اللّغة العربية على بنية المركبات التجريبيّة من خلال تنظيمها وفق جشطلت أو نظام كليّ مخصوص قائم على البناء الذّهنيّ للمجالات التصوّريّة، ممّا من شأنه أن يفيدنا في إبراز جوانب نظاميّة مختلفة عن تلك التي توجد ضمن التّصنيف التقليدي القائم على تقسيم المجالات الدلاليّة تقسيمًا متجانسًا.

قائمة المراجع:

العربيّـــة:

١. الأستراباذي (رضيّ الدين): **شرح شافية ابن الحاجب**، تحقيق وضبط محمّد نور الحسن ومحمد الزقراف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٢.

٢. الأستراباذي (رضيّ الدين): **شرح الرضيّ على الكافية**، تحقيق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة بنغازي، بيروت، مطابع الشروق، ١٩٧٨.

٣. الأنباري (أبو البركات عبد الرحمان): **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين والبصريين والكوفيين**. تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد، القاهرة، إحياء التراث.

٤. ابن الخشّاب: **المرتجل في شرح الجمل**، تحقيق علي حيدر، دمشق، ١٩٧٢.

٥. الزجّاجي (أبو القاسم): **الإيضاح في علل النحو**، تحقيق مازن المبارك، ط٤، بيروت، دار النّفائس.

٦. الزنّاد (الأزهر): **المعجم بين التّركيب والدلالة**، تونس، كلية الآداب بمنوبة، ١٩٩٨.

٧. الزنّاد (الأزهر): **نظرية النحو العرفاني لرونالد لانقكر**، تونس،كلية الآداب منوبة، ٢٠٠٣.

٨. ابن السرّاج: **الأصول في النحو**، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٩٩.

٩. سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر) **الكتاب**، علّق عليه ووضع حواشيه وفهارسه الدكتور إميل بديع يعقوب، بيروت، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٩.

١٠. السّيوطي (جلال الدين): **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق عبد العال سالم مكرم، الكويت، دار البحوث العلمية، ١٩٧٩.

١١. الشّريف (محمد صلاح الدين الشريف): **الشّرط والإنشاء النّحويّ للكون: بحث في الأسس البسيطة المولّدة للأبنية والدلالات**، تونس، جامعة منوبة، ٢٠٠٢.

١٢. عاشور (المنصف): **ظاهرة الاسم في التّفكير النحوي: بحث في مقولة الاسميّة بين التمام والنقصان**، تونس، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ط ٢، ٢٠٠٤.

١٣. غاليم (محمّد): **التّوليد الدّلالي في البلاغة والمعجم**، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ١٩٨٧.

١٤. غاليم (محمّد): **المعنى والتّوافق: مبادئ لتأصيل البحث الدّلالي العربي**، الرباط، منشورات معهد الدراسات والأبحاث، ١٩٩٩.

١٥. غاليم (محمّد): «هندسة التّوازي النّحوي وبنية الذّهن المعرفيّة»، ضمن كتاب: آفاق اللّسانيّات، دراسات-مراجعات-شهادات، تكريمًا للأستاذ الدكتور نهاد الموسى، إشراف: هيثم سرحان، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة.

١٦. غاليم (محمّد): «المعرفة النواة دليلًا على استقلال الدلالة وبنيتها». ضمن كتاب: قضايا المعنى في التّفكير اللّساني والفلسفي. إشراف عبد السلام العيساوي، تونس، جامعة منوبة، كليّة الآداب والفنون والإنسانيّات، ط١، ٢٠١٥، ص-ص١١-٤١.

١٧. الفاسي الفهري (عبد القادر): **اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلاليّة**، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ١٩٨٨.

١٨. ابن منظور: **لسان العرب**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٩٩٣.

١٩. موقو (عفاف): «تحليل المعنى المعجمي: من منوال الشّروط الضّروريّة والكافية إلى المنوال الطّرازي.» **مجلّة موارد عدد٩**، ٢٠٠٤. نشر كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بسوسة. وهذا المقال في الأصل مداخلة قدّمت ضمن ملتقى الدّلالة المعجميّة الدّولي ٣-٦ ماي ٢٠٠٢.

٢٠. موقو (عفاف): **التصوّرات المجازيّة في القرآن. مقاربة عرفانيّة لبلاغة النصّ القرآني**. أطروحة الدكتوراه. تحت إشراف الأستاذ عبد الله صولة، منشورات جامعة سوسة، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بسوسة، ٢٠١٤.

٢١. موقو (عفاف): «في الأسس الفلسفيّة للمبحث اللّغوي العرفاني»، ضمن أعمال يوم العلم (١٣ جانفي ٢٠١٤)، مخبر نحو الخطاب وبلاغة التّداول في كليّة الآداب بمنّوبة، منشورات جامعة منّوبة، كليّة الآداب والفنون والإنسانيات.

٢٢. ابن هشام (محمّد عبد الله جمال الدين): **شرح قطر الندى وبل الصدى**، القاهرة، مطبعة السعادة، ط ١١، ١٩٦٣.

٢٣. ابن يعيش (موفّق الدّين): **شرح المفصّل**، بيروت، عالم الكتب، د.ت.

الأجنـــبيّـــة:

1. Bennett (David C.). 1975. Spatial and Temporal Uses of English Prepositions: An Essay in Stratificational Semantics. London: Longman.

2. Brien (Ed.): 22th Annual Round Table. Linguistics: developments of the sixties-viewpoints of the seventies, Vol.24 de Monograph Series on Language and Linguistics, Georgetown University Press, Washington D.C., 35-56.

3. Brugman (Claudia).1983. The use of body-part terms as locatives in Chalcatongo Mixtec. Report 4 of the Survey of California and Other Indian Languages, University of California: 235-90.

4. Brugman (Claudia).1988. The Story of Over: Polysemy, Semantics, and the Structure of the Lexicon. (Outstanding Dissertations in Linguistics) New York/London: Garland. (M.A. Thesis, University of California, Berkeley, [1981]).

5. Brugman (Claudia), and Lakoff (George).1988. Cognitive topology and lexical networks. In Lexical Ambiguity Resolution: Perspectives from Psycholinguistics, Neuropsychology, and Artificial Intelligence, Steven1. Small, Garrison W. Cottrell, and Michael K. Tanenhaus (eds.), 477-508. San Mateo, CA: Morgan Kaufmann Publishers, Inc.

6. Celce-Murcia(Marianne)/ Larsen-Freeman(Diane).1999. The Grammar Book. An ESL/EFL Teacher's Course. Second Edition. Heinle & Heinle Publishers.

7. Clark(Herb).1973. Space, time, semantics, and the child. In Cognitive development and the acquisition of language, edited by Timothy E. Moore. New York : Academic Press.

8. Dictionnaire des sciences cognitives : Guy Tiberghien et Hervé Abdi, Jean- Pirre Desclés, Nicolas Georgieff, Mark Jeannerod, Jean-François Le Ny, Pierre Livet, Gérard Sabah. Armand Colin, 2002.

9. Gärdenfors (Peter). 2014. The Geometry of Meaning. Semantics based on conceptual spaces. MIT. Press Books.

10. Gruber (Jeffrey S). 1965. Studies in lexical relations. Doctoral dissertation, MIT, Cambridge, Mass.

11. Jackendoff (Ray) .1983. Semantics and cognition. Cambridge. The MIT Press.

12. Jackendoff (Ray).1991. Semantic Structures. Cambridge. Mass. MIT Press.

13. Jackendoff (Ray), Barbara(Landau). 1991. Spatial language and spatial cognition. In Bridges between Psychology and Linguistics: A Swarthmore Festschrift for Lila Gleitman, Donna Jo Napoli, and

Judy Anne Kegl (eds.), 145-170. Hillsdale, N.J.: Lawrence Erlbaum Associates.

14. Johnson (Mark). 1987. The Body in the Mind: The Bodily Basis of Meaning, Imagination, and Reason. Chicago: University of Chicago Press.
15. Johnson(Mark)/Lakoff(George).2002. Why cognitive linguistics requires embodied realism. Cognitive linguistics13 :245-263.
16. Lakoff (George) . 1987. Women, Fire and Dangerous Things. What Categories Reveal about the Mind. Chicago: The University of Chicago Press.
17. Lakoff (George)&Johnson (Mark). 1980. Metaphors we live by. Chicago: University of Chicago Press.
18. Lakoff(George)&Johnson(Mark).1999. Philosophy in the Flesh: The Embodied Mind and its Challenge to Western Thought. New York: Basic Books.
19. Lakoff (George), Nunez(Rafael).2000. Where Mathematics Comes From: How the Embodied Mind Brings Mathematics into Being. New York: Basic Books.
20. Lakoff (George), Turner(Mark).1989. More than cool reason: a field guide to poetic metaphor. Chicago: University of Chicago Press.
21. Langacker (Ronald W.). 1976. Semantic Representations and the linguistic relativity hypoyhesis. Foundations of Language 14: 307-357.
22. 1987. Foundations of Cognitive Grammar, Vol.1: Theoretical Pre-requisites.Stanford University Press.

23. Langacker (Ronald), and Eugene (Casad). 1985. « Inside » and « Outside » in Cora Grammar. International Journal of American Linguistics 51: 247-281.

24. Levinson (Stephen). 2003. Space in Language and Cognition: Explorations in Cognitive Diversity. Cambridge: Cambridge University Press.

25. Lindner (Susan). 1982. What goes up doesn't necessarily come down: the ins and outs of opposites. Chicago Linguistic Society 18: 305-323.

26. Lindner (Susan).1983. A Lexico-Semantic Analysis of English Verb-Particle Constructions. Trier: L.A.U.T. (series A: 101).

27. Merleau-Ponty(Maurice). 1968. The visible and the Invisible. Translated by Alphonso Lingis, Evanston: Northwestern. University Press. (French original 1964).

28. Narayanan (Srini). 1997. Karma: knowledge-based active representations for metaphor and aspect. Ph.D. Dissertation, Computer Science Division of The University of California at Berkeley.

29. Leech (Geoffrey). 1969. Towards a Semantic Description of English. New York: Longman. Mark, David M., and Barry Smith.

30. Talmy (Leonard). 1972. Semantic structures in English and Atsugwi. Doctoral dissertation, University of California, Berkeley.

31. Talmy (Leonard). 1975. Semantics and syntax of motion. In Syntax and Semantics, Vol.4. John P.Kimball (ed.), 181-238. New York: Academic Press.

32. Talmy (Leonard). 1978. Relation of grammar to cognition. In syntax and Semantics. Vol.6: The Grammar of Causative Constructions, Masayoshi Shibatani (ed.), 43-116. New York: Academic Press.

33. Talmy (Leonard). 1983. How language structures space. In Spatial orientation: Theory, research, and application, Herbert L. Pick, Jr., and Linda P. Acredolo (eds.), 225-282. New York: Plenum Press.

34. Talmy (Leonard). 2003. Toward a Cognitive Semantics. MIT. Cambridge. Massachusetts. Volume1.

الفصل الثالث

التّحليل الدّلاليّ في المقاربة العرفانيّة

د. الحبيب المقدميني [1]

١ – قسم اللغة العربية، المعهد العالي للغات بباجة، تونس.

مقدّمة

يحظى المكوّن الدّلالي في اللّغة باهتمام اللّسانيين على اختلاف مقارباتهم ومدارسهم، أمّا في المقاربة العرفانيّة فيمكن القول إنّ هذا المعطى قد مثّل بؤرة الاهتمام، وشكّل منعرجًا في الدّراسات والبحوث اللّغويّة المعاصرة؛ ونعني هنا ما يُصطلح عليه باللّسانيّات العرفانيّة (cognitive linguistics) تحديدًا. ولئن كان هذا المبحث العامّ جامعًا لكلّ المباحث اللّسانيّة، فإنّه ينقسم في الدّراسات والأعمال المعاصرة إلى قسمين أساسيّين هما الدّلالة العرفانيّة (cognitive semantic) والنّحو العرفانيّ (cognitive grammar). إذ نجد اختلافًا في محاور الاهتمام والبحث بين القسمين. لكنّ هذا الاختلاف لا يمثّل في الواقع إلاّ اختلافًا إجرائيًّا يخفي تكاملًا في المنطلقات وكذلك النّتائج، فطرائق التّحليل الدّلالي في المقاربة العرفانيّة لا تقصي المكوّن النّحويّ، وكذلك بالنّسبة إلى النّظريّات النّحويّة العرفانيّة، فهي بدورها تعتمد في جانب كبير منها على المكوّن الدّلالي في رسم مناهجها وطرائق تحليلها للنّظام النّحوي. لذلك يحتاج الوقوف على طرائق التّحليل الدّلاليّ في المقاربة العرفانيّة إلى الإحاطة بطرائق التّحليل النّحويّ العرفانيّ كذلك، وقبل كلّ ذلك نحتاج إلى الوقوف على مفهوم اللّسانيّات العرفانيّة عمومًا ومسار تطوّرها، ومحاور اهتمامها حتّى نفهم طبيعة التوجّه في الدّراسات العرفانيّة المهتمّة بالدّلالة.

١ - اللّسانيّات العرفانيّة؛ مفهومها وتطوّرها

العرفان أو العلوم العرفانيّة مبحث شامل انطلق مع علوم الحاسوب، ويضمّ الفلسفة وعلوم الأعصاب علم النّفس والمنطق واللّسانيّات وكلّ ما من شأنه أن يكشف عن طبيعة عمل الذّكاء الإنسانيّ أو الاصطناعيّ (artificial intelligence)، وقد اقترن تعريفه بطرائق معالجة المعلومة (information processing)، فهو يعرّف بكونه الوظيفة التي تحقّق المعرفة، أو هو مجموعة الأنشطة والموادّ التي تتضافر لإنتاج المعرفة[1]. وقد مثّلت اللّغة ميدانًا أساسيًّا للبحث في العرفان بوصفها تمثّل أهمّ المظاهر التي يمكن أن تكشف عن طبيعة الذّكاء البشريّ. لذلك استقلّ هذا المجال تحت مبحث اللّسانيّات العرفانيّة، لكنّه بقي منفتحًا على سائر المباحث من قبيل علوم الأعصاب والذّكاء الاصطناعيّ

1- Tiberghien, G : Dictionnaire des Sciences Cognitives, Paris, Armand Colin.71.

والأنثروبولوجيا (anthropology)، وسعى إلى الاستفادة ممّا تشهده هذه المجالات من تطوّر واكتشافات، أسهمت بدورها في تطوير هذا الاختصاص وتطوير مفهومه، ونجد لهذه التّطوّرات أثرًا في تعريف هذا المبحث الذي مازال يشهد تجديدًا وتغيّرات متسارعة.

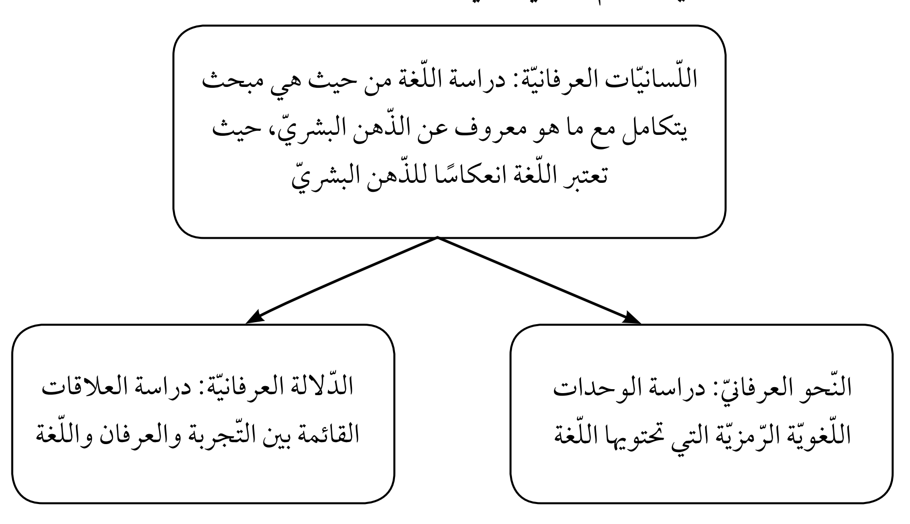
تعرّف اللّسانيّات العرفانيّة بكونها «توجّهًا في البحث متعدّد الاختصاصات، ظهر مع أواخر سنة خمسين وتسع مائة وألف (١٩٥٠) في الولايات المتّحدة. ويهتمّ هذا التّوجه بالنّظر في طبيعة العمليّات الذّهنيّة في اكتساب المعارف واللّغة وطرائق استعمالها. وتهدف هذه البحوث اللّسانيّة العرفانيّة إلى الكشف عن طبيعة البنية الذّهنيّة وأوجه انتظامها، وذلك من خلال تحليل الاستراتيجيّات العرفانيّة التي يعتمدها الإنسان في تفكيره ونمط تخزينه للمعلومات، وطريقة معالجته للّغة إنتاجًا وفهمًا»[1]. وقد بقي هذا المبحث تحت تأثير العلوم الحاسوبيّة (computer sciences) ذات المنحى الموضوعيّ (objectivist) إلى حدود سنة سبعين وتسع مائة وألف (١٩٧٠)، إذ ستتّخذ العلوم العرفانيّة صبغة جديدة تبلورت عند التّفطّن إلى دور الجسد والمادّة في تشكيل العرفان والذّهن ليصبح الحديث عن العرفان المجسدن (embodied cognition) أو الجسدنة (embodiment) في مقابل العرفان الحوسبيّ الكلاسيكيّ. وما تجدر الإشارة إليه في هذا المستوى أنّ اصطلاح «العرفانيّ» قد تمحّض في الاستعمال للإحالة على المرحلة الثّانية من التّطوّر. فقد قامت هذه المرحلة على التوجّه الطّبيعي (naturelness)، أو ما يعرف بالعرفان المجسدن الذي قام نقيضًا للنّظريّات الشّكلية التّوليدية (generativist) من قبيل نظريّة النّحو الكونيّ (universal grammar) لـــ«شومسكي» (Chomsky) أو نظريّة شروط الصّدق (Truth conditions) والدّلالة الشّكليّة (formal semantic).

وقد جمع لايكوف (Lakoff) هذه النّظريّات الأخيرة تحت ما يصطلح عليه بالمنوال الأصليّ الشّكلي (The original formalist nativist pardigm)[2]. في مقابل ذلك نجد أنّ العرفان المجسدن قائم على ما يعرف بالرّؤية المفهوميّة المشكّلة من مجموعة من النّظريّات أو المناويل. وتتّفق هذه النّظريّات المفهوميّة في عدد من الخصائص لعلّ أهمّها

1- Routledge Dictionary of Language and Linguistics. 1998. 80.

2- Lakoff, G: A review of The MIT Encyclopedia of the Cognitive Sciences. Published by Elsevier Science B.V.1.

عدم التّسليم بالشّكلنة في الوصف والتّحليل، ورفض اعتبار اللّغة مكوّنًا مستقلًّا بذاته عن سائر المكوّنات الذّهنيّة. وقد اعتنت هذه المقاربات بالدّلالة في جميع مظاهرها، واعتبرتها جزءًا من التّصوّرات العرفنيّة العامّة[١]. ويمكن لنا أن نلخّص محاور اهتمام اللّسانيات العرفانيّة في الرّسم البيانيّ الآتي[٢].



تقدّم اللّسانيّات العرفانيّة بفرعيْها النّحويّ والدّلاليّ جملة من الآليّات وطرائق التّحليل، تتناول من خلالها اللّغة لا بما هي نظام من العلامات مستقلّ عن سائر الأنظمة العرفانيّة من قبيل الإدراك والذّاكرة والانتباه، بل بما هي نشاط منفتح على بقيّة القدرات العرفانيّة، ويكشف جانبًا منها. فالنّشاط اللّغوي يخضع بدوره لمعطيات بيولوجيّة. وتحيط به مجموعة العوامل الاجتماعيّة والثّقافيّة.

ومن شأن هذه العوامل أن تعكس طبيعة التّفكير والفهم، فكانت اللّغة بمنزلة «الكوّة»، من خلالها يمكن النّظر في هذه الظّواهر العرفانيّة. واستتبع ذلك أنّ اللّسانيّات العرفانيّة ليست مجرّد منوال لسانيّ لمقاربة المعنى، بل هي أقرب إلى أن تكون منوالًا

١ – الزّناد (الأزهر)، نظريّات لسانيّة عرفنيّة، منشورات محمّد علي الحامّي، تونس. الدّار العربيّة للعلوم، بيروت. منشورات الاختلاف، الجزائر. ٢٠١٠، ٩٥.

2- Evans, V. & Green, M: Cognitive Linguistics: An Introduction. Edinburgh University Press. 2006. 156-157.

نظريًّا عامًّا حول الذّهن [1]، فكان من أهمّ مبادئها الإشارة إلى دور الجسد في تشكيل الذّهن والتّجربة والعرفان من خلال دراسة الأبنية اللّغويّة، ورصد أسسها التّصوريّة المجسدنة، ومثّلت الدّلالة اللّغويّة أبرز حقول البحث والإجراء.

٢- الدّلالة العرفانيّة في المقاربة المفهوميّة (التصوّريّة)

أشرنا إلى أنّ الدّلالة العرفانيّة قسم من المبحث العامّ المعروف باللّسانيّات العرفانيّة، لكنّ هذا القسم ذو أهميّة من حيث التّأسيس ومن حيث الأعمال والدّراسات التي انضوت تحته، فقد أضحت الدّلالة العرفانيّة تيّارًا ينازع نظريّة النّحو التّوليديّ وما سبقها من النّظريّات اللّسانيّة ذات الطّابع الموضوعيّ الشّكليّ في العديد من القضايا والمنطلقات النّظريّة. ولعلّ أهمّ هذه المنطلقات عدم التّسليم بمركزيّة المكوّن الإعرابيّ. إذ يرى الدّارسون أنّ المؤشّر الأساسيّ الذي دفع في اتّجاه تغيّر موقع الدّلالة في علم اللّغة هو مناهضة مركزيّة التّركيب/ الإعراب في عمليّة الإنتاج والتّقبّل اللّغويّة. فمع التّوجّه العرفانيّ أصبحت الدّلالة بما هي عمليّة ذهنيّة أساسَ عمليّة الإنتاج والتّقبّل في استعمال اللّغة». وقد قام هذا التّصوّر على رؤية جديدة للمعنى اللّغويّ تجاوز عند العرفانيّين المعنى المعجميّ والمعنى المتقوّم بالسّمات الدّلاليّة المجرّدة باستقراء الاستعمال، ليصبح عمليّة فكريّة تتشكّل بمقتضاها صورة من الصّور الذّهنيّة [2]. فالمعاني من منظور الدّلالة العرفانيّة لا تكون عبر شروط الصّدق في المنطق الصّوريّ، ولا تحصل في ما يكون من التّطابق الموضوعيّ بين الكلمات والأشياء في العالم الخارجيّ. إنّ المعاني عند العرفانيين تحصل في الذّهن، وتكون عبر آليّة الفهم أو المفْهمة (conceptualisation) [3]. ويرى الدّارسون أمثال إيفانس وغرين (Evans & Green) أن أهمّ المبادئ التي ارتكزت إليها الدّلالة العرفانيّة يمكن أن تختزل في النقاط الأربع الآتية:

- البنية المفهوميّة مجسدنة.

1- ibid, 48-49.

٢- منّانة حمزة الصّفاقسيّ، الدّلالة العرفانيّة الإدراكيّة وتراجع دور التّركيب، مجلة اللّسانيّات العربيّة، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدّوليّ لخدمة اللّغة العربيّة، ٢، ٢٠١٥، ٩٦.

٣- نحيل هنا على مقال الأستاذ إبراهيم بن مراد: في المفهمة في المعجم، مجلّة المعجميّة، تونس، عدد ١٨ و١٩، ٢٠٠٣، ص ٣٥-٥٢.

- البنية الدّلاليّة بنية مفهوميّة.
- تمثيل المعنى موسوعيّ (encyclopaedic).
- انبناء المعنى قائم على المفهمة[1].

ينفتح بعض هذه المبادئ العامّة على بعض، وينتظمها معطى مركزيّ يتمثّل في «المفهوم» (concept) وكيفيّة حصوله في ذهن المتكلّم أو السّامع. ويمثّل هذا المعطى البناءَ النّظريّ الأساسيّ والأهمّ في النّظريّات الدّلاليّة العرفانيّة، فهو الوحدة الأساسيّة والمركزيّة في التّمثيل الذّهنيّ (mental representation). وقد ميّزت مركزيّة المفهوم هذه الدّلالة العرفانيّة عن غيرها من النّظريّات الدّلاليّة الشّكليّة المعتمدة على التّفكيك الدّلالي (semantic decomposition). ذلك أنّ المفهوم يساوي المعاني الحاصلة في التّعبير اللّفظيّ في الدّلالة العرفانيّة. إذ يمكن للمفاهيم أن تنطبق على المقولات المختلفة المجرّدة أو المادّية التي نعاينها في التّجربة (مثل مفهوم الكرسيّ أو الحبّ). ويمكنها كذلك أن تنطبق على الأفراد من قبيل أسماء الأعلام (سيبويه مثلا). في حين أنّ العبارات من منظور الدّلالة الشّكليّة لا تحيل إلاّ على أشياء نسبيّة محدّدة، يضبَطُ مضمونها بحزمة من السّمات الدّلاليّة (semantic features) أو المعينمات (semes). ثمّ إنّ من المبادئ الأساسيّة التي ركّزتها الدّلالة العرفانيّة أنّ المفهوم لا يكون حادثًا في الذّهن وحدة ذرّية منعزلة، وإنّما يفهم (من قِبَل المتكّلم أو السّامع) في سياق الخلفيّات المفترضة للأبنية العرفانيّة التي تشكّله[2]. هذه الخلفيّات تقصيها المقاربة الشّكليّة للّغة، أو ما يعرف بالمقاربة المنظوماتيّة القائمة على جملة من المبادئ النّظريّة الموضوعيّة. ويمكن أن نعرض في ما يلي أهمّ هذه المبادئ:

- اللّغة نظام عرفانيّ منغلق مستقلّ عن سائر الملكات العرفانيّة.
- منظومة اللّغة خاضعة بدورها إلى أبنية منظوماتيّة داخليّة (صرف-صوتميّة، تركيبيّة، دلاليّة..).

1- Evans, V. & Green, M: Cognitive Linguistics: An Introduction. Edinburgh University Press. 2006, p157.

2- Clausner Timothy C. and William Croft: Domains and image schemas, Cognitive Linguistics, 10, 1, 1999, p2.

- الدّلالة اللّغويّة مستقلّة عن السّياق اللّغويّ، بمعنى أنّ المعارف الدّلاليّة مستقلّة عن الاستعمال (التّداوليّة).
- معاني الجمل مرتبطة بالعالم الخارجيّ وفق منوال موضوعيّ خاضع لشروط الصّدق (التّطابق)، حيث يوصف المعنى وفق لغة واصفة (metalanguage) منطقيّة. أمّا العبارات المجازيّة فهي استثناء.

فاللّغة من هذا المنظور نظام مستقلّ عن بقيّة الأنظمة العرفانيّة، وما هو إلاّ نظام رمزيّ متعال عن الواقع والتّجربة. أمّا في المقاربة العرفانيّة فاللّغة نظام محايث للتّجربة، وله فيها الخلفيّات والأسس التي يستمدّ منها دلالاته ومعانيه.

٢-١- البنية الدّلاليّة بنية مفهوميّة

يقول ليونارد طالمي (Talmy): «إنّ البحث في الدّلالة العرفانية هو بحث في المحتوى المفهوميّ وكيفيّة انتظامه داخل اللّغة»[1]. ويذهب رونالد لانقاكر (R. Langacker) إلى أنّ معاني العبارات اللّغويّة تكمن في المفْهمة، وهي عمليّة متعلّقة بكلّ مظاهر التّجربة الذّهنيّة القديمة أو الحادثة. ولا تقتصر هذه العمليّة على المفاهيم المجرّدة، بل تتجاوزها إلى المفاهيم الحسّيّة الحركيّة (sensorimotor) والانفعاليّة (emotional)، وتنظر في دلالات المفاهيم اللّغوية وتحوّلاتها عبر التّاريخ، وحسب التّغيّرات الفيزيائيّة واللّغويّة والسّياقات الثّقافيّة والاجتماعيّة». بحيث يكون المعنى اللّغويّ مظهرًا من مظاهر البنية المفهوميّة التي هي طبيعة تمثيلاتنا الذّهنيّة وطبيعة انتظامها بكلّ ما تتوفّر عليه من ثراء واختلاف[2]. فالرّؤية المطروحة من هذا المنظور تتمثّل في كون الدّلالة جزءًا من النّظام المفهوميّ بمختلف مظاهره وطرق معالجته للأشياء والأحداث والظّواهر في العالم من حولنا، ولا يقتصر الأمر على اللّغة فحسب، بل ينطبق على جميع الأنظمة العلاميّة وأنماط التّعامل مع ما يحيط بنا من الظّواهر والمعلومات والمفاهيم. وقد أوجد المنظّرون في اللّسانيّات العرفانيّة عمومًا والدّلالة خاصّة مناويل مختلفة ومقاربات متنوّعة، سعوا من خلالها إلى تبيين مظاهر الارتباط بين ما هو دلاليّ لغويّ رمزيّ من جهة، وما هو مفهوميّ إدراكيّ (perceptual) من جهة أخرى.

1- Talmy, Leonard: Toward a Cognitive Semantics, Cambridge, MA: MIT Press.2000, p4.

2- Langacker, R.: Metonymy in grammar. Journal of Foreign Languages 27: 2–24.2004 a, 1.

تعود هذه المقاربات إلى مرحلة متقدّمة من تاريخ البحث اللّسانيّ العرفانيّ، ويمكن القول إنّ المحاولات ذات الأثر في هذا التّيار قد بدأت مع ما قدّمته إليانور روش (Rosch E.) في نظريّتها المعروفة بـ«الطّراز» (prototype theory)، وما شهدته من تطوّر عندها أو في الأعمال التي تلتها وخاصّة في ما قدّمه جورج لايكوف (١٩٨٧) في كتابه الموسوم بـ«نساء ونار وأشياء خطيرة» [1] حول نظريّة «المنوال العرفانيّ المؤمثل» (idealized cognitive model) التي اعتبرها بديلًا يغطّي نقائص نظريّة الطّراز الأصليّة والموسّعة. وقد سعت هذه النّظريّات والمقاربات المختلفة إلى معالجة قضايا عجزت المقاربات الدّلاليّة الموضوعيّة عن الفصل فيها من قبيل قضيّة العبارات الاستعاريّة والمجاز عمومًا، وكذلك مسائل من قبيل الاشتراك اللّفظيّ والاشتراك الدّلاليّ. وقد سعى لايكوف (١٩٨٧) إلى تقديم مقاربة جديدة للمفهمة عمومًا وللدّلالة اللّغويّة خاصّة من خلال عرضه لنظريّة المناويل العرفانيّة، حيث ربط بين البنية الدّلاليّة والبنية المفهوميّة والبنية ما قبل المفهوميّة المتجسّدة (pre-conceptual structure). فالدّلالة اللّغويّة بالنّسبة إليه خاضعة للنّظام المفهوميّ، ويخضع هذا النّظام بدوره إلى التّجربة ما قبل المفهوميّة، وهي أساسًا تجربة الجسد في محيطه المادّي والاجتماعيّ الثّقافي، أو ما يعرف اختصارًا بالجسدنة. وفي هذا السّياق يعرض لايكوف معطيْن أساسيّين يشكّلان المظهر الأوّل لارتباط الدّلالة اللّغويّة بالبنية المفهوميّة والبنية ما قبل المفهوميّة، يتمثّلان في مفاهيم المستوى القاعدي للمَقْوَلة (basic-level of categorization) والخطاطة الصّورة (image schema).

تمثّل مقولة «المستوى القاعديّ للمَقْوَلة» ونظريّة خطاطة الصّورة أهمّ المقاربات التي شغلت الدّراسات العرفانيّة وارتبطت بالجسدنة نظريّةً ومرتكزًا عرفانيًّا ارتباطًا مباشرًا، سواء أكان ذلك في الكتب الأمّهات المؤسّسة لهذه المفاهيم (لايكوف (١٩٨٧)، جونسون (١٩٨٧)، لايكوف وجونسون (١٩٩٩))، أو فيما جاء بعد ذلك من الدّراسات والكتب التّي اهتمّت بهذه النّظريات وشرحتها.

١- نحيل هنا على مقال الأستاذ عبد الله صولة: «المعنى القاعدي في المشترك: مبادئ تحديده وطرائق انتشاره؛ دراسة في نظريّة الطّراز»، مجلّة المعجميّة، تونس، عدد ١٨ و١٩، ٢٠٠٣، ص ١٩-٣٤.

وما يمكن قوله في هذا الصّدد إنّ بنية المستوى الأساسيّ والخطاطة الصّورة كانتا قد مثّلتا الإجابة عن كيفيّة ارتباط المعنى بالجسدنة، وهو السّؤال المركزيّ الذّي طرحه لايكوف (١٩٨٧) حول كيفيّة ارتكاز المفاهيم والأفكار المجرّدة على أسس جسديّة، في إطار الواقعيّة التّجريبيّة (experiential realism) تيّارًا فلسفيًّا عامًّا والدّلالة العرفانيّة تخصيصًا.

يفترض لايكوف – في هذا الشّأن– أنّ لتجربتنا الجسديّة بنية تحكمها، وليست قائمة على الفوضى؛ لأنّ بنية ما لا يمكن أن تنشأ من شيء آخر غير ذي بنية [١]. وقوام هذا الافتراض أنّ مفاهيم المستوى الأساسيّ والمفاهيم القائمة على الأبنية الخطاطيّة تحمل المعاني في ذاتها، لأنّها تجعلنا في تماسّ مباشر مع البنية ما قبل المفهوميّة من خلال الجسد واشتغاله في العالم. وعلى حدّ عبارة «لايكوف وجونسن» فإنّ هذه الأبنية المفهوميّة تحمل معنى لأنّ الجسد [موجود] في الذّهن [٢]. ونحن نصطلح على هذا الاسترسال بين الجسد والمفاهيم بالتّصافح (interfacing) بين المستوى التّجريبيّ (الجسد في العالم) والمستوى المفهوميّ (الذي مفاده أنّ البنية المفهوميّة موجودة ومفهومة لأنّ بنية ما قبل– مفهوميّة موجودة ومفهومة سلفا، وينضّدها الجسد في تجربته).

أمّا المقصود ببنية المستوى الأساسيّ فهو تلك البنية التي تتشكّل من خلال التّصوير الذّهنيّ والحركة الجسديّة والإدراك الشّكلي أو الجشطلتي (gestalt perception). من خلالها نكتسب مفاهيم المستوى الأساسيّ. وتكون هذه المفاهيم ذاتيّة نسبيّة؛ ومن ذلك على سبيل المثال أنّنا نسقط مفهوم «الكرسيّ» على الأشياء التي تناسب الصّورة الذّهنيّة التي نشكلّها عن الكرسيّ، ويتماشى هذا الفهم مع برنامجنا الحركيّ للجلوس، ويناسب إدراكنا الجشطلتيّ لهيئة الكرسيّ وشكله.

تشكّل هذه المكوّنات الثّلاثة (التّصوير الذّهنيّ، الحركة الجسديّة، الإدراك الجشطلتيّ) في بنية المستوى الأساسيّ التمثّلَ العرفانيّ الإدراكيّ لعناصر مقولة معيّنة أو مفهوم من خلال استخدام منظوماتنا الإدراكيّة والمفهوميّة والحركيّة في حياتنا اليوميّة،

1- Lakoff, G.: Women, Fire, and Dangerous Things: What Categories Reveal about the Mind.1987, p267.

2- Lakoff, G. & Johnson, M.: Philosophy in the Flesh; The embodied mind and its challenge to western thought, Basic Books, 1999, p292.

فتتكوّن جملة المعاني المحصّلة في الذّهن مباشرة، وذلك بسبب من الجسد ودوره من خلال تفاعله المباشر مع محيطه وتصافحه مع العالم المّاديّ والاجتماعيّ الثّقافيّ، بوصفه يمثّل نقطة البداية الضّروريّة في الوجود والحياة. وعادة ما تحصّل هذه المفاهيم في مرحلة مبكّرة من النّموّ حيث يكتسب الإنسان جملة من المفاهيم الأساسيّة عبر الإدراك (الأحجام والألوان والحرارة والألم والطّعم... وما إلى ذلك من المفاهيم الحسّيّة). ويذهب لايكوف إلى أنّ هذه المفاهيم أساسيّة ولا تتضمّن تعقيدًا في اكتسابها أو فهمها لاعتبارات أربعة تخصّ الإدراك والوظيفة والتّواصل وتنظيم المعارف:

- **الإدراك**: - يتمّ إدراك هذه المفاهيم بشكل إجماليّ كلّي من حيث تشكّلها.
  - نتمثّلها في صورة ذهنيّة واحدة.
  - يتمّ تحديدها بشكل سريع ومباشر.
- **الوظيفة**: للبرنامج الحركيّ العامّ الوظيفة الأساسيّة في تحديد هذه المفاهيم.
- **التّواصل**: - نعتمد في تعبيرنا عن مثل هذه المفاهيم على ما قلّ من المفردات، وقصُر واستقلّ سياقيًّا.
  - لهذه المفردات السّبق في دخول المعجم [الذّهني]. فهي أوّل ما يتعلّمه الأطفال من الكلام.
- **تنظيم المعارف**: تكون معظم خصائص هذه «المقولات المفاهيم» مخزّنة في هذا المستوى الأساسيّ[1].

أمّا بالنّسبة إلى الخطاطة الصّورة فهي تمثّل الطّرف الأساسيّ الثّاني، وعليها تنهض الأبنية المفهوميّة المجرّدة. إذ تقوم- إلى جانب مفاهيم المستوى الأساسيّ- بربط البنية ما قبل المفهوميّة بالبنية المفهوميّة والدّلاليّة في المستوى الذّهني؛ فهي إذن بنية قائمة على التّخوم بين التّجربة والذّهن مثلما تشير تعريفاتها المختلفة. والأساس في تكوّن مثل هذه الخطاطات الصّور هو التّجربة المتكرّرة لتفاعل الجهاز الحسّي الحركيّ مع المدركات في مسار من الحسّي المدرك، وصولًا إلى المجرّد مثلما يشير إلى ذلك مارك جونسون (١٩٨٧).

1- Lakoff, G: 1987, 36-47.

المدركات ⟵ الصّورة الذّهنيّة ⟵ الخطاطة الصّورة

يعرّف جونسون الخطاطة الصّورة بكونها نمطًا ديناميًّا متكرّرًا لتفاعلنا الإدراكيّ وبرامجنا الحركيّة، تضفي على تجربتنا انسجامًا وبنيةً [١]. وتنبثق هذه البنية من التّجربة الحسّية الإدراكيّة مباشرة فهي تتشكّل من خلال هذه التّجارب في المراحل الأولى من النّموّ السّابقة لمرحلة تكوّن المفاهيم. فإذا ما أُخذت أنماط هذه المعلومات الحسّيّة المتكرّرة، وخُزّنت في شكل الخطاطة الصّورة، تقدّم التّجربة حين ذلك تمثيلًا مفهوميًّا قائمًا على التّأسيس المادّي الفيزيائيّ النّاتج عن التّفاعل مع العالم الخارجيّ ومع ما نكوّنه من الملاحظات عنه. ومن أمثلة هذه الخطاطات ما أشار إليه جونسون حول خطاطة القوّة ومنشئها، فهي بنية مفهوميّة لا تنبثق إلاّ من خلال تفاعلنا مع بقيّة الأشياء في محيطها؛ فنحن لا نعير مفهوم القوّة اهتمامًا إلاّ إذا سُلّطت علينا أو على أحد الأشياء في مجالنا الإدراكيّ، ومن ذلك أنّنا نختبر الخاصيّة التّفاعليّة للقوّة إذا اصطدمنا بحافّة طاولة في غرفة مظلمة. ويحدث الأمر نفسه إذا بالغنا في الأكل، فالطّعام الذي نبتلعه سيمارس ضغطًا على المعدة. والمهمّ من كلّ ذلك أنّه لا وجود لخطاطة تمثّل القوّة إذا لم تنطو على تفاعل حادث أو ممكن [٢]. ومفادُ كلّ ذلك أنّ المعاني متأصّلة في خطاطة القوّة وغيرها من أنواع الخطاطات بما هي نتاج تفاعل قائم على التّخوم بين مجاليْ التّجربة الحسّية الحركيّة والمستوى المفهوميّ والدّلاليّ بالاستتباع. ونسوق قائمة في أهمّ الخطاطات في الجدول الآتي [٣]:

المجال التّجريبي	الخطاطة الصّورة
الفضاء	فوق-تحت/ أمام-وراء/ يمين-شمال/ قريب-بعيد/ مركز-طرف/ تماسّ/ الاستقامة/ العموديّة
الاحتواء	الحاوية/ داخل-خارج/ السّطحيّة/ الفراغ-الامتلاء

1- Johnson, M.: The Body in the Mind: The Bodily Basis of Meaning, Imagination and Reason. Chicago: Chicago University Press.1987, xiv.

2- Ibid.

3- Evans, V. & Green, M: Cognitive Linguistics: An Introduction. Edinburgh University Press. 2006, p190.

المجال التّجريبي	الخطاطة الصّورة
الحركة	النّشاط/ مصدر-مسار-هدف
التّوازن	محور التّوازن/ كفّتا التّوازن/ نقطة التّوازن/ التّوازن
القوّة	الإجبار/ الحاجز/ القوّة المضادّة/ انحراف المسار/ إزالةالقيد/ القدرة/ التّمكّن/ الجذب / المقاومة
الوحدة/ التّعدّد	الدّمج/ المجموعة/ الانقسام/ التّكرار/ جزء-كلّ/ الكتلة-المعدود/ الرّبط
الهويّة	التّطابق / التّراكم
الوجود	الإزالة / الفضاء المحدّد/ الدّور / الشّيء/ العمليّة

تشكّل هذه الخطاطات المنبثقة من التّجربة الجسديّة خلفيّات تمكّننا من فهم الدّلالة اللّغويّة أو غيرها من الأنظمة العلاميّة، ولها من المرونة ما يخوّل لها أن تتوسّع استعاريّا ومن ذلك مثلا خطاطة الحاوية (container image-schema) التي نبني من خلالها تصوّرات عديدة خطّيّة من قبيل (أنا في المكتب) أو استعاريّة من قبيل (أنا في سعادة كبيرة). وكذلك نستطيع أن نتمثّل مقولة الاسميّة والفعليّة عبر خطاطة الشّيء (thing) والعمليّة (process). فالاسم ما كان مدلوله الطّرازيّ في التّجربة شيئًا مادّيًّا (زيد، جدار، فرس)، فهذه الأسماء في دلالتها الأوليّة المجرّدة نتمثّلها بما هي أشياء ذات شكل ووجود في هذا العالم. أمّا مقولة الفعل فنتمثّل دلالتها بماهي عمل يجري في الزّمان والمكان وفيه تتابع وخطّيّة. وقد سعى الدّارسون في اللّسانيّات العرفانيّة إلى بلورة مناويل نظريّة عملوا من خلالها على الكشف عن الأسس التّجريبيّة التي ترتكز إليها اللّغة في نظامها النّحويّ والدّلاليّ في استرسال(continuum) يوشك أن يلغيَ الحدود بين ما هو نحويّ وما هو دلاليّ تداوليّ.

٢-٢- الخلفيّة التّجريبيّة والاسترسال النّحويّ الدّلاليّ

الاسترسال مفهوم مركزيّ في اللّسانيّات العرفانيّة، وله مظاهر عديدة لعلّ أبرزها أنّ المقاربة العرفانيّة للدّلالة لا تعترف بحدّ فاصل بين ما هو دلاليّ وما هو تداوليّ. ويمكن أن نشير إلى ذلك بعبارة أخصّ، فالمعارف اللّغويّة (linguistic knowledges)

التي من بينها علم الدّلالة غير مستقلّة تمامًا عن المعرفة بالعالم (world knowledge) كما هو الحال في المقاربة الموضوعيّة التي تعتبر الدّلالة مقتصرة على المعرفة اللّغويّة وما تعلّق بالدّلالة المعجميّة للألفاظ (حزمة المعانم) دون غيرها من المعارف. إنّ المقاربة العرفانيّة للدّلالة ترى أنّ المعنى حاصل من خلال التّفاعل بين المكوّن الدّلاليّ والمكوّن التّداوليّ، حيث يمكن لمستعمل اللّغة باثًّا أو متقبّلًا أن يتأوّل معاني الألفاظ والعبارات بالرّجوع إلى السّياق الذي قيلت فيه والمعطيات التي حايثتها[1] بالإضافة إلى ما يعرفه من الخصائص الدّلاليّة المعجميّة. ومن هذا المنطلق يبرز مفهوم الموسوعيّة في التّعامل مع الدّلالة.

٢-٢-١- الخلفيّة التّجريبيّة والمعارف الموسوعيّة

يقوم مفهوم «المعرفة الموسوعيّة» على مبادئ من أهمّها رفض الفصل بين الدّلالة والتّداوليّة، فالدّلالة ليست حادثة بذاتها وإنّما تكون حين الاستعمال وما يحايثه من المعاني المفهوميّة غير اللّغويّة الاجتماعيّة منها والثّقافيّة. ولا تمثّل الوحدات المعجميّة في هذا السّياق إلاّ مجرّد نقاط اهتداء في شبكة هذه المعارف الموسوعيّة المنظّمة لمعرفتنا بالعالم عمومًا ومعرفتنا بتجربتنا الخاصّة في معاملاتنا اللّغويّة. ولا تعني الموسوعيّة من منظور «لانقاكر» الاتّساع والفوضى بل تمثّل شبكة من المعارف منظّمة بدورها تسمح لنا بتحديد معاني الكلمات تحديدا يقوم بدوره على مبدإ المركزيّة (centrality). فمن المعارف الموسوعيّة المرتبطة بالكلمات ما يكون أكثر بروزا ومركزيّة من غيره في هذا التّحديد، وذلك بالرّجوع إلى طبيعة هذه المعرفة الموسوعيّة ويقسّمها «لانقاكر» إلى أربعة أنواع هي:

-**المعارف التّواضعية** (conventional knowledge): تتمثّل في جملة المعارف المتواضع عليها داخل المجموعات اللّسانيّة وتكون في المجال اللّسانيّ خاصّة. ويمكن أن نمثّل لذلك بكلمة «الكتاب» التي تعني ذلك الشّيء الورقيّ بين دفّتين من قبيل كتاب القراءة، أو كتاب صدر لمؤلّف ما، ويمكن أن تعني الرّسالة أو كلّ ما هو مكتوب أو مطبوع، ويمكن أن نشير بها إلى القرآن في المصحف أو غيره من الكتب السّماويّة.

1- Ibid.171.

-**المعارف الجامعة** (generic knowledge): تشكّلها المعارف العامّة من قبيل معرفتنا بأنّ الكتاب كلمة قد تمحّضت في الاستعمال لذلك الشّيء الورقيّ أو المجلّد الذي نستعمله في الدّراسة ونشتريه من المكتبات..

-**المعارف الذّاتية الدّاخليّة** (intrinsic knowledge): مجموعة المعارف الدّاخلية بخصائص شيء ما، وعادة ما تكون حكرًا على المختصّين، ومن ذلك أنّ «الكتاب» في عرف النّحويين المختصّين في التّراث النّحويّ العربيّ يحيل على كتاب سيبويه المعروف.

-**المعرفة بالخصائص** (characteristic knowledge): المعرفة بالخصائص المميّزة لكيان معيّن أو علاقة في مقام مخصوص، كأن نتأوّل كلمة الكتاب في قوله: «كتْب الكتاب» على أنّه عقد الزّواج الشّرعيّ». ونتأوّلها في قوله: «ترك لهم كتابه» بمعنى ترك لهم وصيّته.

إنّ الألفاظ والعبارات من هذا المنظور لا تحمل معانيها بمعزل عن طريقة الفهم وسياق القول، فالدّلالة المعجميّة التي نجدها في القواميس لا تكفي لفهم مقاصد المتكلّم وتأويل المعنى، بل نحتاج إلى خلفيّات معرفيّة وثقافيّة واجتماعيّة حتّى نتمكّن من الفهم. وقد ترد هذه الخلفيّات تحت مسميّات مختلفة عند اللّسانيين العرفانيين؛ إذ نجدها عند رونالد لانقاكر تحت مسمّى المجال المفهوميّ (conceptual domain)، ونجدها عند شارل فيلمور (Fillmore) تحت مسمّى الإطار (frame)، أمّا جيل فوكونيي (Fauconnier) فيصطلح عليها بالفضاء الذّهنيّ (mental space). ويذهب زولتان كوفتش (Kövecses) إلى أنّ هذه التّسميات تحيل على فكرة واحدة تحتكم إليها المقاربات العرفانيّة للدّلالة وإن اختلفت في الجهاز النّظري. إذ يقول:

«إنّ فكرة الإطار يمكن أن توسم بمسمّيات مختلفة في الأدبيّات والبحوث (الخاصة بالعلوم العرفانيّة) إذ نجد- إضافة إلى الإطار-الخطيطة (script) والسّيناريو (scenar-io) والمشهد (scene) والمنوال الثّقافيّ والمنوال العرفانيّ المؤمثل والخطاطة والجشطلت التّجريبيّ، وتحيل كلّ هذه المفاهيم على التّنظيم المنسجم للتّجربة الإنسانيّة»[1]. فهذه الاصطلاحات المختلفة تنطلق من اعتبارات نظريّة واحدة لعلّ أبرزها دور التّجربة

1- Kövecses, Z.: Language, Mind, and Culture. A Practical Introduction. Oxford & New York: Oxford University Press.2006. 64.

ما قبل المفهوميّة ودورها في تنضيد المفاهيم عموما والدّلالة اللّغويّة خاصّة. ويمكن أن نستعرض من هذه المقاربات النّظريّة فكرة الإطار ودوره في تحليل الدّلالة عند «فيلمور».

ينظر «فيلمور» إلى الدّلالة بما هي العلاقة بين الأشكال اللّغويّة ومعانيها. وبناء على ذلك فهو يرى أنّ التّحليل الدّلاليّ الجيّد يكمن في عرض الكيفيّات التي بها تركّز خصائص المعنى في خصائص الأشكال اللّغويّة. ووجب على دارس اللّغة حينئذ أن ينظر إلى هذه العلاقة من زاويتين مختلفتين، لأنّ لها مظهرين: يتعلّق المظهر الأوّل بحلّ الشفرة (decoding)، وتتمّ خلاله عمليّة تفسير المضمون الدّلاليّ للبنية اللّغويّة. وأمّا المظهر الثّاني فيتعلّق بالتّشفير (encoding)، وتتمّ في أثنائه عمليّة اختبار الطّرائق المناسبة للتّعبير عن المفاهيم لغويّا. فالتّعبير عن المعنى يتمّ بالرّجوع إلى أبنية عرفانيّة (أطر) تشكّل فهم المتكلّم و/ أو السّامع للعبارات اللّغويّة وتوجِّهه. ويذهب «فيلمور وبايكر» (٢٠٠٩) إلى أنّ جزءًا من تعلّم اللّغة يكون من خلال اكتساب الشّفرة اللّغويّة للتّجارب اليوميّة المألوفة المقترنة بها. ويشكّل هذا الاقتران -عرفانيًّا- فهمنا ويبرّره، بأن يربط اللّغة بالتّجربة في مختلف أبعادها. وبناء على هذه المنطلقات، يتحدّد مفهوم الإطار-بحسب فيلمور- بما هو عمليّة تخطيط (schematization) لتجربة معيّنة، يكون ممثّلًا في المستوى المفهوميّ، تحفظه ذاكرة طويلة المدى (long-term memo-ry)، ويربط بين العناصر والكيانات المرتبطة بمشهد ثقافيّ معيّن من التّجربة الإنسانيّة. فالإطار يعرّف بما هو مجموعة من المعارف المنظّمة والمعتقدات والأنشطة التّي تشكّل التّجربة الإنسانيّة وتكسِبها معنى. وتؤدي الأطر بهذا المفهوم دورًا أساسيًّا في الكشف عن الطّرائق التي ندرك بها أنفسنا والعالم من حولنا والكيفيّات التّي بها نتذكّر تجاربنا أو نفكّر فيها. وتمكّن الأطر كذلك من الكشف عن الطّرق التّي بها نشكّل آراءنا وفرضيّاتنا عن خلفيّات هذه التّجارب، وما يمكن أن يكون بينها من ترابط. ونحن نهتدي إلى بعض هذه الأطر بفضل من طبيعة عيشنا، فنحن كائنات نعيش على الأرض، ونخضع لطبيعة حركتها ودورانها اليوميّ والسّنويّ، وندرك ما نعايشه من أشياء فيها. كما أنّنا نهتدي إلى أطر أخرى بسبب من طبيعة نوعنا، فنحن بشر ذوو أجساد خاضعة للجاذبيّة وذات احتياجات بيولوجيّة وشعوريّة، ولنا بفضل هذه الأجساد قدرات إدراكيّة عامّة. ومن الأطر أيضًا ما نهتدي إليه بسبب من انتمائنا لثقافة معيّنة نستجيب لمؤسّساتها

ورموزها ومنتجاتها وقيمها بطريقة واعية أو دون وعي. والأهمّ من كلّ هذا أنها أطر نفهمها؛ لأنّنا ننتمي إلى مجموعة خطابيّة ذات ثقافة خاصّة تستنِد إليها. إنّنا بالاستناد إلى كلّ ذلك نكوّن معارف خطاطيّة حول الجاذبيّة والحرارة والظّلّ، ونميّز بين الحيّ من الكائنات والجماد، وكذلك ندرك الألوان ونفهم الألم واللّذّة والغيرة. ونكوّن معارف حول الزّواج والحكم والعقيدة وما إلى ذلك من الأشياء والمؤسّسات (١). وبهذا المعنى تشكّل الأطر أبنية مركّبة من المعارف، تقود إلى فهم المترابط من الكلمات، وتسهم في فهم السّلوك النّحويّ في هذا التّرابط والتّعليق. ومن هنا نتبيّن مفهوم الاسترسال بين مستويات مختلفة تنطلق من التّجريبيّ الفيزيائيّ ما قبل اللّغويّ لتصل إلى الرّمزيّ المجرّد المتمثّل في الدّلالة والنّحو. وممّا تجدر الإشارة إليه في هذا السّياق أنّ النّظريّات العرفانيّة في النّحو والدّلالة لا تميّز تمييزًا مطلقًا بين ما هو نحويّ وما هو دلاليّ، ولعلّ أبرز دليل على ذلك أنّ «لانقاكر» مؤسّس نظريّة النّحو العرفانيّ في كتابه «تأسيس النّحو العرفانيّ (Foundation of cognitive grammar) الصّادر سنة ١٩٨٧، قد أفرد فصولًا متعدّدة فيه للحديث عن الدّلالة المفهوميّة في إطار نظريّة المجال حتّى يبيّن تفاعل الدّلالة والنّحو وعدم وضوح الحدود بينهما. وهو يذهب إلى أكثر من ذلك حين يشير إلى أنّ المقولتين النّحويّتين الأساسيّتين (الاسم والفعل) في حدّ ذاتهما تحتاجان تعريفين دلاليّين بشكل مفهوميّ وما قبل مفهوميّ، يقول: «لقد بات، إلى حدّ الآن، من المقبول على نطاق واسع كون التّوصيفات المفهوميّة ممكنة للأعضاء المركزيّين أو الطّرازيّين في المقولات الأساسيّة. فالاسم الطّرازيّ، إذن، هو اسم يجري علمًا على شيء ماديّ (مثل ملعقة، سيّارة، كلب، مطريّة). ويكون الأمر كذلك في الأفعال الطّرازيّة بأن تعيّن الأعمال والأحداث (جرى، انفجر، ضرب) ...»(٢). أمّا ليونارد طالمي الذي ألّف كتاب «نحو دلاليّات عرفانيّة» (Towards a cognitive semantics) فقد سطّر نظامًا نحويًّا عرفانيًّا كان مركز اهتمامه بالرغم ممّا يشير إليه عنوان كتابه المذكور. وقد بيّن خلال عرضه لهذا التّصوّر مدى الاسترسال والتّفاعل بين الدّلالة والنّحو.

1- Fillmore, C. & Baker: A frames approach to semantic analysis. Edited by Bernd Heine & Heiko Narrog. 2009. 314.

٢- رونالد لانقاكر، مدخل في النّحو العرفانيّ، ترجمة الأزهر الزّنّاد، منشورات دار سيناترا، معهد تونس للتّرجمة، تونس، ط١، ٢٠١٨، ١٦٠.

٢-٢-٢- الاسترسال النّحويّ الدّلاليّ؛ طالمي نموذجًا

يسعى طالمي في مقاربته الدّلاليّة إلى البرهنة على وجود استرسال نحويّ معجميّ (دلاليّ)، فهو ينفي وجود اختلافات مبدئيّة بين النّحو أو ما يصطلح عليه بـ (القسم المغلق) والمعجم (القسم المفتوح)[١]. غير أنّه يميّز في هذا السّياق بين نوعين من المعنى:

-المعنى الخطاطيّ (schematic meaning) المتحقّق عبر المقولات النّحويّة.

-المعنى الثّريّ الذي تشكّله الوحدات المعجميّة ودلالتها.

يمثّل المعنى الخطاطيّ النّاتج عن المقولات النّحويّة هيكلًا ينضّد المعنى الثّريّ، لا من حيث طبيعته الشّكليّة، بل من خلال ما تنضوي عليه هذه الأبنية والقيود من مفاهيم تتعلّق بظواهر عرفانيّة إدراكيّة من قبيل القدرة الانتباهيّة والمنظوريّة، أو بما تعلّق بهذه الظّواهر من مجالات ما قبل- مفهوميّة مرتبطة بالجسد وتجربته. ويُعدُّ الفضاء والزّمان أهمّ هذه المجالات. فكلاهما يمثّل مجالًا أوّليًّا أساسيًّا (primary basic domain). ويربطهما طالمي بالتّعبير اللّغويّ من خلال اعتماد مفهوم الكمّيّة (quantity) الموجود في كليهما؛ إذ نجد في مجال الزّمن الكمّيّة متجسّدة في الحركة، أمّا طبيعة الكمّيّة الموجودة في مجال الفضاء فتتجسّد في المادّة (matter). وتكون هذه المفاهيم في المجالَيْن إمّا مسترسلة أو متفاصلة (discrete) كما يبيّن الجدول الآتي:

المجال	مسترسل	متفاصل
الفضاء (المادّة)	كتلة (mass): الطّعام،الحيوان، السّحاب	شيء: تفاحة/ سيّارة/ علبة التّبغ
الزّمان (الحركة)	نشاط (activity): نام/ مشى/ صلّى	عمل معيّن (act): زفر/ سعل/ أوتر (صلّى الوتر)

ويرى طالمي أنّ هذين المجالين ينعكسان في مستوى الفهم بالطّريقة نفسها التي تعكس بها الأنظمة النّحويّة الأفكارَ والتّمثيلات العرفانيّة؛ فالأفعال والمركّبات الفعليّة

١- تعدُّ قضيّة القسم المغلق والقسم المفتوح نسبيّة وتبقى مجرّد اصطلاح إجرائيّ، فالنّحو أو ما يصطلح عليه طالمي بالقسم المغلق ليس مغلقا نهائيًا، فهو نظام خاضع للتّغيّر بالإضافة أو الحذف، ويكفي هنا أن نشير إلى ظاهرة الإنحاء (grammaticalization)، حيث يمكن أن تضاف عناصر جديدة لهذا القسم. ونحيل في هذا السّياق على العمل الموسوم بـ «ظاهرة الإنحاء في اللّغة العربيّة؛ الفعل النّاقص نموذجًا» لـثريّا السّكري عامر، منشورات كليّة الآداب والفنون والإنسانيّات منّوبة، وحدة بحث اللّسانيّات العرفنيّة واللّغة العربيّة، ٢٠٠٩.

تمثّل معروضًا لمقولات من مجال الزّمان (نشاط/ عمل). أمّا الأسماء والمركّبات الاسميّة فتمثّل معروضًا لمقولات من مجال الفضاء (كتل/ أشياء). لكنّ هذه المسائل غير ثابتة، وتخضع لما يصطلح عليه طالمي بالتّناوب المفهوميّ (conceptual alternativity)[1]. ودليل ذلك أنّ المقولات النّحويّة (الاسميّة/ الفعليّة) مثلًا يمكن أن تتغيّر في سياق الاستعمال، فالعمل أو النّشاط المقترن بالزّمان (م١) يمكن أن يتحوّل إلى شيء أو مادّة مقترنة بالفضاء (م٢) تفهم من خلاله:

-م١- **أقرضه** المصرف مالًا. [عمل مسترسل].

-م٢- قدّم المصرف **قرضًا**. [كتلة، مسترسل].

ويذهب طالمي إلى التّفصيل في هذا الجانب من خلال ضبط الأنظمة الخطاطيّة المسؤولة عن هذا التّنضيد وهي على التّوالي: نظام تشكّل البنية (configuration-al structure system) والنّظام المنظوريّ (perspectival system) والنّظام الانتباهيّ (attentional system) ونظام القوّة الدّيناميّة (force-dynamic system).

أ- **نظام تشكّل البنية**: ينضّد هذا النّظام الخصائص الزّمانيّة والمكانيّة لمشهد معيّن، ويتضمّن بدوره أربعة أنظمة صغرى تتمثّل في وضعيّة الكمّيّة ودرجة الاتّساع ونمط التّوزيع والمحوريّة.

-وضعيّة الكّميّة: نجد فيها ثلاثة أنظمة صغرى أو حالات أوّلها حال التّعدّد، وهي مقولة تنطبق على الأفعال (مجال الزّمان) كما تنطبق على الأسماء (مجال الفضاء)؛ لنجد المفرد (uniplex) والمتعدّد (multiplex).

- الأسماء: هي -بحسب طالمي- إمّا معدود أو كتلة، ويخضع الصّنفان لمقولة العدديّة هذه:

  - سماء [كتلة، مفرد] .... سماوات [كتلة، متعدّد].
  - ولد [معدود، مفرد] ....أولاد [معدود، متعدّد].

1- Evans, V. & Green, M: Cognitive Linguistics: An Introduction. Edinburgh University Press. 2006.516.

- الأفعال: يمكن أن تكون مسترسلة أو متفاصلة، وتخضع بدورها لمقولة العدديّة في مسألة المظهر النّحويّ وكذلك المظهر المعجميّ الدّلالي، فالفعل من قبيل (توفّي) مفرد بطبيعته ولا يحدث إلاّ مرّة واحدة. وكذلك تستمدّ بقيّة الأفعال مفهومها عبر التّفاعل النّحويّ الدّلاليّ: - بكى زيد [فعل ماض منقض] يمثّل حقيقة واحدة فهو مفرد.

  - كان زيد يبكي [فعل استمرّ في الماضي وانقضى] كان+ فعل ماض= متكرّر، فهو متعدّد.

  - زيد يبكي [فعل مضارع غير منقض]: متكرّر متعدّد.

أمّا حال التّحديد فتعنى بالمحدّد وغير المحدّد من الأسماء والأفعال:

- الأسماء: نجد من الأسماء ما هو محدّد (bounded) ومعدود من قبيل (كرة، كرسيّ، فتاة) وما هو غير محدّد (unbounded) كتلة من قبيل (هواء، وماء وضجيج).
- الأفعال: تقترن بمجال الزّمان ومنها المنقضية المحدّدة (غادر زيد القاعة)، ومنها غير المنقضية وغير المحدّدة (يغادر زيد القاعة).

أمّا حال القسمة فترتبط بالتّقطيع الدّاخلي (internal segmentation) للكمّيّة، وتتضمّن مقولتي الاسترسال والتّفاصل وتتقاطع مع المقولات الخطاطيّة المذكورة سابقًا، ويمكن أن نمثّل لها بالأسماء الآتية: الهواء [اسم كتلة، غير محدّد، مسترسل]. الأثاث [اسم كتلة، غير محدّد، متفاصل].

-درجة الاتّساع (degree of extension): يعنى هذا النّظام بكيفيّة تصوّرنا للزمان أو الفضاء من خلال المساحة، وهو يتقاطع مع مقولة التّحديد.

- مجال الفضاء(الأسماء): نجد فيه تصنيفًا إلى نقطة (point)، واتّساع محدّد (bounded extent)، واتّساع غير محدّد (unbounded extent). ونمثّل لذلك بـ:

  -مدينة تونس (نقطة).

  -القارّة الإفريقيّة (اتّساع محدّد).

-الكون/ المجرّة (اتّساع غير محدّد).

- مجال الزّمان (الأفعال)

- تشرق الشمس الساعة السّادسة (نقطة).

- تشرق الشّمس بين السّادسة والسّابعة (اتّساع محدّد).

- تشرق الشّمس كلّ يوم (اتّساع غير محدّد).

- نمط التّوزيع: تهتمّ هذه المقولة بكيفيّة توزّع المادّة في الفضاء والحركة في الزّمان، ونجد فيها من الأسماء والأفعال الأصناف الآتية:

- ما يقع مرّة ولا يتكرّر [توفّي، وِلِد/ الوفاة]

- ما يقع مرّة ويتكرّر [ذاب، ذوبان].

- ما يكون دورًا (cycle) [طاف، تمايل، الطّواف].

- ما يكون حالة ثابتة [أسلم، نام، يدرس].

- ما يكون متعدّدًا [تنفّس، التّسبيح].

- -المحوريّة (axiality): يمثّل لها طالمي بمغيّرات الدّرجة أو المسوّرات في الإنكليزيّة نحو (almost, slightly). وقد نجد ما يقابلها في العربيّة من قبيل (قليلًا، كثيرًا، جدًّا..).

ب- **النّظام الانتباهيّ**: ينبثق هذا النّظام من الطّبيعة الجسديّة الإدراكيّة للإنسان ويحتكم بدوره إلى ثلاثة عوامل تتمثّل في قوّة الانتباه وبؤرته، ثمّ نمط الانتباه:

- قوّة الانتباه وبؤرته: هما عاملان متقاطعان، حيث ترتبط قوّة الانتباه بمدى النّتوء أو البروز (prominence) الذي يمثّله المشاركون في مشهد معيّن تعرضه عبارة ما أو جملة. يخضع هذا البروز إلى نظام الوجه والخلفيّة (figure-ground organisation). ومن أمثلته إطار الحدث التّجاري الذي يمكن أن يبرز مشاركين دون غيرهم: اشترى عمرو سيّارة من زيد. (البروز لعمرو).

باع زيد سيّارة لعمرو. (البروز لزيد).

يقوم هذا التّنضيد على نظام ترتيب الكلم داخل الجملة (يصطلح عليه طالمي بالأيقونيّة النّحويّة (grammatical iconicity).كما ينضّده دلاليًّا التّضاد الدّلاليّ المعجميّ بين (باع/ اشترى).

- نمط الانتباه: نجد في هذا النّظام بؤرة الانتباه التي أشرنا إليها إلى جانب نافذة الانتباه ومستواه. وتختلف نافذة الانتباه عن نظام الوجه والخلفيّة، وقد ترتبط بالسّلوك النّحويّ في مستوى المتمّمات التي يمكن أن تكون ضروريّة أو اختياريّة في ارتباطها بالمشهد المعبّر عنه كما هو الحال في الأمثلة الآتية:
  - وضعيّة بداية: انطلقت الرّصاصة من البندقيّة.
  - وضعيّة وسط: انطلقت الرّصاصة في الهواء.
  - وضعيّة نهاية: استقرّت الرصّاصة في الهدف.

أمّا بالنّسبة إلى مستوى الانتباه فينضّد بؤرة الانتباه التي يمكن أن تكون كلّية جشطلتيّة، مثل قولنا (غابة الأشجار جميلة)، أو مكوّنيّة كما في قولنا (أشجار الغابة جميلة).

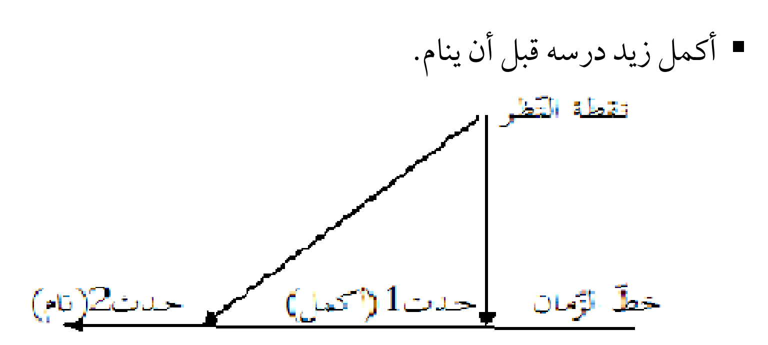
ج- **النّظام المنظوريّ**: يتشكّل من أنظمة ثلاثة يتعلّق أوّلها بالموضع والمسافة، ويتعلّق الثّاني بالمظهر، أمّا الثالث فيتعلّق بالاتّجاه.

- الموضع والمسافة: المقصود بهما المسافة التّصوّريّة بين المتكلّم والسّامع والمشهد الموصوف، وتنضّده نحويّا المشيرات المقاميّة نحو أسماء الإشارة (القريب: هذا، البعيد: ذاك)، والظّروف (القريب: هنا، البعيد هناك).

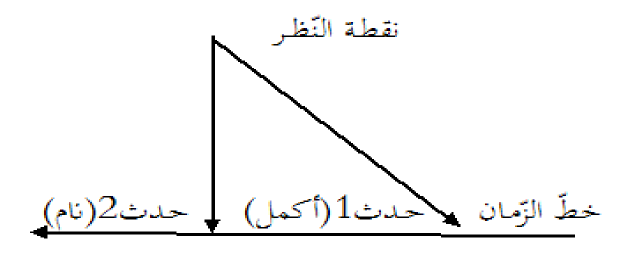
-المظهر ويحدّد نقطة النّظر هل هي ثابتة أو متحرّكة:

- إذا كانت هذه النّقطة ثابتة فإنّ مظهر المنظوريّة يكون مجملًا (synoptic) مثل: نظر نظرة في النّجوم.
- إذا كانت هذه النّقطة متحرّكة فإنّ المظهر يكون تتابعيًّا مثل: أخذ ينظر في النّجوم.
- الاتّجاه: يرتبط بالحدث أو المشهد الموصوف وكيف تتمّ رؤيته من نقطة النّظر، حيث يمكن أن يكون استباقيًّا (prospective) نحو قولنا في المثال الأوّل:

- أكمل زيد درسه قبل أن ينام.



- نام زيد بعد أن أكمل درسه



د- **نظام القوّة الدّيناميّة**: يتلخّص هذا النّظام في طبيعة التّفاعل الفيزيائيّ بين الكيانات في الخارج، ونتمثّلها في نظامنا المفهوميّ من خلال ثنائيّتي المُعاني (agonist) والمُعارض (antagonist)، يدرسها طالمي في إطار دلالة الجعليّة (causation). ويمكن أن تدرس في العربيّة بالنّظر في مقولات التّعدية واللّزوم ودلالة أوزان الأفعال. وتتوسّع هذه المقولة استعاريًّا في أمثلة متعدّدة قد تحملها معظم العبارات اللّغويّة في المستوى الدّلاليّ التّداوليّ. ويمكن أن نمثّل لذلك بـ:

- أدار زيد مفتاح السّيّارة: زيد: معاني/ المفتاح: معارض.

-استدار زيد: المعاني والمعارض في الوقت نفسه لدلالة الانعكاس.

تمثّل هذه الأبنية الخطاطيّة تصوّرًا لمنوال تعاملنا مع اللّغة ودلالاتها باعتماد القدرات العرفانيّة المختلفة من ذاكرة وانتباه وإدراك حسّي حركيّ. ولئن بدا هذا المنوال في ظاهره شكليًّا فإنّه يبيّن في الواقع مجموعة من الأبنية التّصوّريّة المساهمة في إضفاء الدّلالة على

العبارات. ذلك أنّ دلالة عبارة ما لا تتكوّن في مضمون العبارة وما تحمله من دلالة معجميّة، وإنّما تتكوّن في طريقة انبناء العبارة وطريقة استعمالها في سياق التّلفّظ ومقام القول. ثمّ إنّ الألفاظ والكلمات لا تمثّل في الحقيقة إلاّ نقاط اهتداء تحيلنا على خلفيّات ما قبل مفهوميّة نستعيدها آن المعالجة اللّغويّة ونستحضرها آن-القول بالطّريقة نفسها التي نستعملها في توجيه الكلام عبر الأنظمة الخطاطيّة المذكورة، ثمّ إنّ معظم كلامنا قائم على الاستعارات والمجاز والقياس وما إلى ذلك من الآليّات العرفانيّة، فنحتاج حينئذ إلى تحليل هذه الآليّات وفهم ما تقوم عليه من الإسقاط والرّبط والمزج أكثر من احتياجنا إلى التّفكيك المكوّني للكلمات؛ لأنّ هذا التّفكيك حوسبيّ، بينما يتعامل الإنسان مع اللّغة والمحيط من حوله بطريقة طبيعيّة تستند إلى تجربته الجسديّة والثّقافيّة الاجتماعيّة بالاستتباع.

خاتمة

إنّ البحث في الدّلالة العرفانيّة منفتح على مجالات بحث متعدّدة، لعلّ أوّلها أنّ الدّلالة في هذه المقاربة لا يمكن أن تدرس في منأى عن المقاربات النّحويّة العرفانيّة، لأنّ كلا الفرعين (الدّلالة والنّحو) متفاعل مسترسل، ويقوم كل فرع منهما على المنطلقات والرّكائز ذاتها في الإطار العامّ المعروف باللّسانيّات العرفانيّة. ولعلّ المبدأ العامّ في هذا المبحث هو الانفتاح على سائر العلوم والمباحث والاستفادة منها في رسم المعالم النّظريّة للمناويل العرفانيّة في الدّلالة أو النّحو أو في كليهما معًا. وقد سعينا في هذا العمل إلى استعراض أهمّ هذه المبادئ من العامّ إلى الخاصّ، فاستعرضنا الإطار النّظريّ العامّ للسانيات العرفانيّة، ثمّ عرضنا أهمّ المبادئ في دراسة الدّلالة وخاصّة مفهوم الموسوعيّة، لنعرض في الأخير مقاربة طالمي في الدّلالة اللّغويّة. وهي مقاربة من مقاربات عدّة تطرّقت إلى الدّلالة بتفصيل بأن سعت إلى تبويب القدرات العرفانيّة الإدراكيّة وتنضيدها وفق تصوّر معيّن، يسهم إجرائيًّا في فهم الكثير من الظّواهر الدّلاليّة النّحويّة.

قائمة المراجع

العربيّة

١. ابن مراد (إبراهيم)، في المفهمة في المعجم، **مجلّة المعجميّة**، تونس، عدد ١٨ و١٩، ٢٠٠٣.

٢. الزّناد (الأزهر)، **نظريّات لسانيّة عرفنيّة**، منشورات محمّد علي الحامّي، تونس/ الدّار العربيّة للعلوم، بيروت/ منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٠.

٣. الصّفاقسيّ (منّانة حمزة)، الدّلالة العرفانيّة الإدراكيّة وتراجع دور التّركيب، مجلة **اللّسانيّات العربيّة**، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدّوليّ لخدمة اللّغة العربيّة، ٢، ٢٠١٥، ٩٦.

٤. صولة (عبدالله)، المعنى القاعدي في المشترك: مبادئ تحديده وطرائق انتشاره؛ دراسة في نظريّة الطّراز، **مجلّة المعجميّة**، تونس، عدد ١٨ و١٩، ٢٠٠٣.

٥. عامر (ثريّا السّكري)، **ظاهرة الإنحاء في اللّغة العربيّة؛ الفعل الناقص نموذجًا**، منشورات كليّة الآداب والفنون والإنسانيّات منّوبة، وحدة بحث اللّسانيّات العرفنيّة واللّغة العربيّة، ٢٠٠٩.

٦. لانقاكر (رونالد)، **مدخل في النّحو العرفنيّ**، ترجمة الأزهر الزّنّاد، منشورات دار سيناترا، معهد تونس للتّرجمة، تونس، ط١، ٢٠١٨،

الأجنبيّة

1. Clausner Timothy C. and William Croft: Domains and image schemas, Cognitive Linguistics, 10, 1, 1999.
2. Evans, V. & Green, M: Cognitive Linguistics: An Introduction. Edinburgh University Press. 2006.
3. Fillmore, C. & Baker: A frames approach to semantic analysis. Edited by Bernd Heine & Heiko Narrog. 2009.
4. Johnson, M.: The Body in the Mind: The Bodily Basis of Meaning, Imagination and Reason. Chicago: Chicago University Press.1987.

5. Kövecses, Z.: Language, Mind, and Culture. A Practical Introduction. Oxford & NewYork: Oxford University Press.2006.
6. Lakoff, G. & Johnson, M.: Philosophy in the Flesh; The embodied mind and its challenge to western thought. Published by Basic Books, A member of the perseus books group. 1999.
7. Lakoff, G.: Women, Fire, and Dangerous Things: What Categories Reveal about the Mind.1987.
8. Lakoff, G: A review of The MIT Encyclopedia of the Cognitive Sciences. Published by Elsevier Science B.V.1.Evans, V. & Green, M: Cognitive Linguistics: An Introduction. Edinburgh University Press. 2006.
9. Langacker, R.: Metonymy in grammar. Journal of Foreign Languages 27: 2–24.2004.
10. Routledge Dictionary of Language and Linguistics. 1998.
11. Talmy, Leonard: Toward a Cognitive Semantics, Cambridge, MA: MIT Press.2000.
12. Tiberghien, G: Dictionnaire des Sciences Cognitives, Paris, Armand Colin.

الفصل الرابع

المنهج العرفاني في المقام التربوي

د. عمر بن دحمان [1]

١- أستاذ محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها جامعة مولود معمري، تيزي وزو- الجزائر.

ملخص:

يندرج هذا العمل في دائرة البحوث والدراسات المهتمة بتطبيق المناهج العرفانية (المعرفية/ الإدراكية) في المجالات ذات الصلة بإنتاج الخطاب وتلقيه في المقام التربوي، والنظر في الآليات والاستراتيجيات الخطابية المعتمدة، وهي كثيرة ومتنوعة بتنوع العمليات الذهنية البشرية وتعقُّدها، لكننا سنركز الحديث في هذا الفصل عن واحدة من هذه الآليات التي عُدّت أساسية ومركزية ولا غنى عنها في الفهم والإفهام والتواصل بشكل عام. نقصد بذلك التفكير التمثيلي أو القياسي (Analogical thinking) في مظاهره المختلفة. وسنحاول أن نبرز أهمية تجلياته في اللغة والخطاب من منظور عرفاني/ معرفي وإسهامه المركزي في عملية بناء المعنى وتأويله أثناء التواصل، وبخاصة بعد المكانة التي صارت تحظى بها ظاهرة الاستعارة بعد اكتشاف أهميتها ودورها المركزي في الأنشطة البشرية الحياتية اليومية وغيرها خاصة تلك المتعلقة بالمعرفة والتواصل البشريين. في هذا الإطار رصدت بعض الأبحاث ذات المنطلق اللساني العرفاني الحضور الاستعاري والتمثيلي في المقام التربوي بوصفه من الأنشطة الإنسانية الخصبة التي تُستخدم فيها استراتيجيات تواصلية وإبلاغية يوظفها المعلمون والبيداغوجيون من أجل إيصال الفكرة إلى المتعلمين الذين يُطلَب إليهم التفاعل مع ما يُعرض عليهم سواء أكان ذلك داخل الصف أم عبر المناهج والمقررات التعليمية المنشورة في شكل كتيبات أو دوريات أو من خلال وسائط مختلفة.

كلمات مفتاحية: لسانيات عرفانية/ معرفية-استعارة- استعارة تصورية -تمثيل- مقام تربوي-تعليم.

تمهيد:

يهمّنا في هذا الحيّز أن نلقي نظرة على جوانب من علاقة الاستعارة (بوصفها مظهرًا رئيسيًّا من مظاهر التفكير التمثيلي) بالتعليم وبعض الإسهامات التي أخذت على عاتقها مقاربة حضورها في العملية التربوية بشكل عام، ونركز على بعض التخصيصات المرتبطة بالإحالة إلى أدوار خاصة تؤدّيها الاستعارة في بعض مناحي العملية التربوية، مثل أهميتها البيداغوجية وعلاقتها بالنصوص التعليمية وغيرها من

المسائل ذات الصلة. ونستهلّ الحديث بمدخل تعريفي باللسانيات العرفانية التي برزت خلال سبعينات القرن الماضي (الجيل الثاني منها على وجه الخصوص) وما اقترحته من افتراضات أساسية توجّه المشتغلين فيها، واهتمامها الذي أولته للاستعارة بصفتها آلية ذهنية وعرفانية في المقام الأول. لنعرّج على الحضور الاستعاري في العملية التعليمية من خلال اقتراح بعض النماذج من دراسات مختلفة حفلت بالدور المهم للتفكير الاستعاري والتمثيلي في العملية التربوية والتعليمية في تخصصات مختلفة، وكلها تعكس ولو بشكل جزئي هذه الأهمية التي نود الإلماع إليها، دون غض الطرف عن بعض المخاطر المحتملة والمرتبطة بسوء استخدام الاستعارة-وما يماثلها من وسائل عرفانية أخرى-بوصفها وسيلة مساعدة وناجعة لكنها تبقى سلاحًا ذا حدّين كشأن كثير من الوسائل المفيدة.

١- ما اللسانيات العرفانية/ المعرفية؟

اللسانيات العرفانية/ المعرفية Cognitive Linguistics مدرسة لسانية معاصرة، انبثقت ضمن الإطار العام للعلم العرفاني/ المعرفي[1] Cognitive science الذي انبثق أواسط القرن العشرين مع انعقاد ملتقى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا MIT سنة ١٩٥٦ الذي ضم علماء من تخصصات مختلفة يجمع بينهم الاهتمام بالبحث في المعرفة عمومًا بتناول الذهن والدماغ والسلوك البشري من منظور يناقض ما كان سائدًا لدى النزعة السلوكية السائدة آنذاك. لذا كان خروج اللسانيات العرفانية عن المنهج الإجرائي القائم على الوصف البنيوي والتوزيعي وعلى المنهج الصوري واحدًا من أهمّ ما ميّز انطلاقتها تلك.

١- العلم العرفاني/ المعرفي cognitive science كما يحدده جورج لايكوف هو «مجال جديد يجمع معا ما عرف عن الذهن في اختصاصات أكاديمية عديدة: علم النفس واللسانيات والأنثروبولوجيا وعلم الحاسوب. وهو ينشد أجوبة مفصلة عن هذه الأسئلة: ما هو التفكير العقلي؟ كيف نعطي معنى لتجربتنا؟ ما هو النسق التصوري وكيف يتم تنظيمه؟ هل يستعمل الناس جميعهم النسق التصوري نفسه؟ إن كان الأمر كذلك فما هو هذا النسق؟ وإن لم يكن كذلك، ما هو بالتحديد الشيء المشترك بين البشر في طريقة تفكيرهم؟ هذه الأسئلة ليست بجديدة ولكن نوع الأجوبة الراهنة هي كذلك». ينظر:

- George Lakoff, Women, Fire, and Dangerous Things, What Categories Reveal about the Mind. The University of Chicago Press, Chicago and London, 1987. p. xi (preface)

تجري تسمية هذه اللسانيات عامّة على تيار أو حركة تضم عددًا من النظريات التي تشترك في الأسس والمنطلقات ولكنها مختلفة ومتنوعة ومتداخلة في بنائها ومشاغلها وتوجهاتها ومجالات الانشغال فيها. يمكن التمييز هنا بين اتجاهين لسانيين عرفانيين يشتركان في هذه التسمية، وبالعودة إلى بعض تحديدات هذا المصطلح نعثر على ملامح هذا التمايز، من ذلك مثلًا ما أدرجه هادمود بوزمان في قاموسه، عندما وصف اللسانيات العرفانية بأنها «اتجاه في البحث متداخل التخصصات، تطور في نهاية الخمسينات في الولايات المتحدة الأمريكية، ويُعنى بدراسة العمليات الذهنية لاكتساب المعارف واللغة واستخدامها. وعلى خلاف النزعة السلوكية المركزة على السلوك القابل للملاحظة والسيرورات القائمة على المثير والاستجابة، يؤدي السلوك في اللسانيات العرفانية دور الواسطة بقدر دعمه رؤى متعمقة للسيرورات العرفانية. والهدف من الدراسة العرفانية هو البحث في البنية والتنظيم العرفانيين أو الذهنيين من خلال تحليل الاستراتيجيات العرفانية التي يستخدمها البشر في التفكير وتخزين المعلومات وفهم اللغة وإنتاجها»[1].

أما التحديد الثاني فاخترناه من «معجم اللسانيات والتداولية» لواضعه ألان كروز الذي حدد اللسانيات العرفانية بأنها: «مقاربة لدراسة بنية اللغة والسلوك اللغوي والتي تطورت فعليًّا منذ الثمانينات. يندرج خلف هذه المقاربة عدد من الفرضيات الأساسية. تقول الأولى إن غرض اللغة هو تبليغ المعنى، وسواء أكانت بنياتها دلالية أم نحوية أم صوتية، فإنه ينبغي لها أن ترتبط بهذه الوظيفة. وتقول الفرضية الثانية بتجسد القدرات اللغوية، وأنها غير منفصلة عن القدرات العرفانية الكلية، إذ لا وجود لقسم من الدماغ مستقل بذاته مخصوص باللغة. نتيجة لهذا لا يمكن تكلّف وضع تمييز مبدئي بين المعنى اللغوي والمعارف الكلية بالنسبة إلى علم الدلالة. أما الفرضية الثالثة فتقوم على أن المعنى تصوري طبيعة ويتضمن صورة مشتركة أو متأثرة بالمادة الخام المدركة حسّيًّا والمتصوّرة بطرق مخصوصة. واللسانيات العرفانية تؤمن بأن مقاربة شروط الصدق لا تستطيع

1- Hadumod Bussmann, Routledge Dictionary of Language and Linguistic, translated and edited by Gregory Trauth and Kerstin Kazzazi; edition published in the Taylor & Francis e-Library, London and New York, 2006. p.197.

إعطاء تعليل كافٍ للمعنى. وللسانيات العرفانية اتصال وثيق بعلم النفس العرفاني، وإنّها تتكفل بشكل خاص بالاشتغال على بنية التصورات وطبيعتها...»[١].

نلاحظ للوهلة الأولى اختلاف التحديدين في تحديد البداية التاريخية لهذا الفرع من الدراسة اللغوية، ففيما يرجعه الأول إلى نهاية الخمسينات يصعد به الثاني إلى بدايات الثمانينات، فهما يرتبطان باتجاهين مختلفين وإن كانا يندرجان ضمن الإطار العام نفسه للعلم العرفاني.

أما مكمن الاختلاف فيرجع إلى إنّ الاتجاه الثاني لم يقم إلا ردة فعل على الاتجاه الأول الذي يمثله نعوم تشومسكي بنظريته التوليدية التي تعد عرفانية أيضًا، إضافة إلى نظرية دلالة شروط الصدق (المنطقية) truth-conditional (logical) semantics[٢]، للأسباب التي يذكرها ويليام كروفت وألان كروز[٣] عند تعيينهما لمبادئ اللسانيات العرفانية وفرضياتها الأساسية (التي تختلف عن لسانيات تشومسكي) والتي يختصرانها في ثلاثة رئيسية[٤] وهي:

- اللغة ليست ملكة عرفانية مكتفية بذاتها.

1- Cf. Alan Cruse, A Glossary of Semantics and Pragmatics, Edinburgh University Press, 2006, p.26

٢- المقصود بدلالة شروط الصدق تلك الأفكار التي ارتبطت بما يسمى «فلسفة اللغة»، تتعلق هذه الأفكار بالمعنى، والصدق/ أو الحقيقة والواقع، وكيف يمكن للمعنى أن يمثل وفقا للغة واصفة صورية مستمدة من المنطق. هذه الأفكار كان لها تأثير كبير على اللسانيات الصورية في سنوات الستينات والسبعينات. يراجع لتفصيل أوفى:

- William Croft & D. Alan Cruse, Cognitive Linguistics, Cambridge University Press, 2004, p .446.

3- Cf. William Croft & D. Alan Cruse, Ibid. pp. 1-2.

٤- تمثل هذه الافتراضات الثلاث ردّة فعل على الأشكال الأولى من اللسانيات العرفانية للمقاربة النحوية والدلالية التي ما تزال مهيمنة إلى وقتنا الحالي، أي النحو التوليدي (generative grammar) ودلالة شروط الصدق (المنطقية). يعارض المبدأ الأول الفرضية الشهيرة للنحو التوليدي بكون اللغة ملكة عرفانية مكتفية بذاتها (أو فطرية على الأصح) أو مكونا منفصلا عن القدرات العرفانية غير اللغوية. ويعارض المبدأ الثاني دلالة شروط الصدق، أين تقيّم اللغة الواصفة الدلالية (semantic metalanguage) من خلال الصدق والكذب المرتبطين بالعالم (أو بدقة أكبر، بنموذج العالم model of the world). أما المبدأ الثالث فيعارض توجهات ذوي النزعة الاختزالية (reductionist tendencies) في كل من النحو التوليدي ودلالة شروط الصدق، أين تُنشد التمثيلات المجرّدة في حدّها الأعلى والتمثيلات العامة للشكل النحوي والمعنى، والكثير من الظواهر النحوية والدلالية تعزى إلى «الحد الخارجي»(periphery). ويرى الباحثان أنّ النحو التوليدي ودلالة شروط الصدق ما يزالان بطبيعة الحال نشيطين إلى اليوم، وكذلك اللسانيات العرفانية تستمر في تقديم الحجج على افتراضاتها الأساسية فضلا عن الكشف عن مسائل تجريبية أكثر تخصيصا للتركيب والدلالة داخل النموذج العرفاني.

- النحو بناء تصوري.
- المعارف اللغوية تنبثق من الاستعمال اللغوي.

فرضيات اللسانيات العرفانية وصلتها بمبحث الاستعارة:

يهمّنا أن نفصّل قليلًا في فرضيات اللسانيات العرفانية (في جيلها الثاني) لارتباطها الوثيق بدراسة الاستعارة. يقول كروفت وألان كروز إنّ للفرضية الأولى بكون اللغة ليست ملكة عرفانية مكتفية بذاتها، استتباعات أساسية تتمثل في كون تمثيل المعارف اللغوية هو بالأساس تمثيلُ البنياتِ التصوّريةِ الأخرى نفسُه، وأن العمليات التي يتم استخدام المعارف فيها لا تختلف بصفة جذرية عن القدرات العرفانية المستخدمة خارج المجال اللغوي. وينتج عن هذا الادعاء استلزامان اثنان، ينهض أولهما على أن المعرفة اللغوية -معرفة المعنى والمبنى-هي بنية تصورية بالأساس. وسيكون التمثيل الدلالي تصوّريًّا بالأساس. وينهض الاستلزام الثاني على أن العمليات العرفانية التي تتحكم في استعمال اللغة (بناء المعنى وتبليغه باللغة بوجه خاص) لا فرق بينها وبين القدرات العرفانية الأخرى.

من مقتضيات الفرضية الأولى الخاصة بكون اللغة ليست ملكة عقلية عرفانية مكتفية بذاتها[1] أن الكثير من البحوث اللسانية العرفانية خُصّصت لشرح البنية التصورية والقدرات العرفانية مثلما تبدو مطبقة على اللغة، في مسعى لإثبات إمكان نمذجة اللغة على نحو وافٍ باستخدام هذه البنيات التصورية العامة والمقدرات العرفانية فحسب. كما أن اللسانيين العرفانيين يلجؤون على الأقل وفي الأساس إلى نماذج من علم النفس العرفاني، فيما يتعلق بعمل الذاكرة، والإدراك الحسي، والانتباه والمَقْوَلة. أما الفرضية الثانية فتتجسد في الشعار الذي رفعه رونالد لانقاكر «النحو بناء تصوّري». في إشارة منه إلى الفرضية الأكثر تمييزًا للبنية التصورية، التي لا يمكن اختزالها في شروط صدق بسيطة توافق العالَم. فالمظهر الرئيس للمقدرة العرفانية البشرية هو بناء تصور للتجربة ليتم تبليغها (وكذلك بناء تصور المعرفة اللغوية التي نملك). أما الفرضية الرئيسة الثالثة عن انبثاق المعارف اللغوية من الاستعمال اللغوي فتعني أن المقولات والبنيات

١- يرى الباحثان أن هذا الموقف قد يؤخذ أحيانا كرفض لفطرية القدرة اللغوية البشرية. لكن المسألة ليست كذلك، فالرفض هنا موجه للقدرة البشرية اللغوية الفطرية محددة الغرض (special-purpose) والمكتفية بذاتها.

الدلالية، والتركيبية، والصرفية، والفونولوجية، تُبنى انطلاقًا من إدراكنا لملفوظاتنا المخصصة وفق مناسبات خاصة الاستخدام.

هذه بصفة عامة فرضيات اللسانيات العرفانية الرئيسة مثلما أوردها كروفت وكروز، وسوف نرى أن موضعة دراسة الاستعارة قد ترسخت بشكل واضح في هذا الإطار أي إطار اللسانيات العرفانية القائلة بهذه الفرضيات، أي تلك المدرسة الحديثة للتفكير اللساني، التي كان انبثاقها في الأصل مع بدايات السبعينات وتطورت في الثمانينات نتيجة عدم رضاها عن المقاربات الصورية للّغة. وهي تضرب بجذورها إلى انبثاق العلم العرفاني في الستينات والسبعينات، وبصفة خاصة في العمل المتعلق بالمقولة البشرية، وفي الأدبيات الأولى على غرار علم النفس الجشطلتي. وقد هيمن على البحث المبكر في فترة السبعينات والثمانينات عدد قليل نسبيًّا من الدارسين. وفي بدايات التسعينات شهدنا نموًّا وتكاثرًا للبحوث في هذا المجال، وتُعدُّ اللسانيات العرفانية على حدّ عبارة فيفيان إيفنس[1] «حركة» أو «مشروعًا»؛ لأنها ليست نظرية مخصوصة. ولكنّها مقاربة تبنّت مجموعة مشتركة من المبادئ، والافتراضات والمنظورات التي أفضت إلى مجال متنوّع من النظريات المتكاملة، والمتداخلة (والمتنافسة أحيانًا).

ضمن هذا الإطار برز الاهتمام بالاستعارة (واللغة المجازية عمومًا) وخاصة مع التطور الذي طال العلم العرفاني منتصف السبعينات وبداية الثمانينات، الفترة التي شهدت تحوّلًا جذريًّا وانطلاقة أفكار جديدة أو ما عرف بالثورة العرفانية، وازى ذلك انبثاق ما بات يُعرف باللسانيات العرفانية القائلة بتجسد الذهن، والمضادة للاتجاه التوليدي والمنطقي.

يمكننا الحديث هنا عن طورين أساسيين مرّ بهما العلم العرفاني يسمّيهما جورج لايكوف «الجيل الأول» و«الجيل الثاني» للعلم العرفاني، في حوار أجراه معه جون بروكمان[2]، إذ نعثر على تفصيل لايكوف لأسس هذا المشروع الجديد وفرضياته

1- Vyvyan Evans and Melanie Green, Cognitive linguistics, an introduction. Edinburgh University Press.2006, p. 3

٢- ينظر الحوار الذي أجراه مع جون بروكمان (John Brockman) المنشور على شبكة الإنترنت:

- John Brockman، "Philosophy In The Flesh" A Talk With George Lakoff». From: http://serbal.pntic.mec.es/~cmunoz11/interview.pdf

حين قال بوجود شكلين من العلم العرفاني، أحدهما صيغ بناء على فرضيات الفلسفة الأنجلو-أمريكية، والآخر مستقل عن الفرضيات الفلسفية المخصوصة التي تقيّد نتائج البحث. العلم العرفاني المبكر، وهو ما أسماه العلم العرفاني من «الجيل الأول» (أو «العلم العرفاني غير المتجسّد»)، الذي صمّم ليناسب الصيغة الصورية للفلسفة الأنجلو-أمريكية، أي إنه أخذ الفرضيات الفلسفية التي تقيّد الأجزاء المهمة لمحتوى «النتائج» العلمية. ويعود به إلى أواخر الخمسينات، عندما اقترح بعض اللسانيين وفلاسفة اللغة (منهم هيلاري بوتنام في نظريته الوظيفية) مواقف فلسفية على أساس قبلي، وليس على أساس أي إثبات مهما كان. والمقترح كان هكذا: يمكن دراسة الذهن من خلال وظائفه العرفانية -أي من خلال العمليات التي يؤديها-بشكل مستقل عن الدماغ والجسد. والعمليات التي يؤديها الذهن يمكن أن تُنمذج على نحو كافٍ عن طريق معالجة رموز صورية عديمة المعنى، كما هو الحال في برنامج الحاسوب. هذا البرنامج الفلسفي بحسب لايكوف يناسب النماذج التي كانت سائدة في ذلك الوقت في عدد من التخصصات. في الفلسفة الصورية: فكرة إمكان تخصيص الذهن على نحو كاف باستخدام المنطق الرمزي، الذي يستخدم معالجة الرموز الصورية عديمة المعنى. وفي اللسانيات التوليدية: فكرة إمكان تخصيص نحو اللغة على نحو كاف من خلال القواعد التي تعالج الرموز الصورية عديمة المعنى. وفي مجال الذكاء الاصطناعي: فكرة تركُّب الذكاء بصفة عامة في برامج الحاسوب التي تعالج الرموز الصورية عديمة المعنى. وفي معالجة المعلومات السيكولوجية: فكرة أن الذهن جهاز لمعالجة المعلومات، إذ تؤخذ المعلومات المعالجة كمعالجة لرموز صورية عديمة المعنى، مثلما هو الحال في برنامج الحاسوب. كل هذه المجالات قد تطورت من الفلسفة الصورية. وقد تقاربت هذه المجالات الأربعة عام ١٩٧٠ إلى شكل العلم العرفاني من الجيل الأول. وكانت رؤية الذهن بوصفه معالجة مجسدة للرموز الصورية عديمة المعنى.

ويواصل لايكوف نقده لهذا الوضع وتقديم البديل من خلال رده عن سؤال آخر عن كيفية ملاءمة وجهة النظر هذه العلم التجريبي الذي تبنته اللسانيات العرفانية، ويجيب لايكوف بأن وجهة النظر هذه لم تكن مؤسسة تجريبيًّا، لقد نشأت من فلسفة قبلية. ومع ذلك فإنها هيّأت البداية لمشروعه، متجاوزًا الرؤية الفلسفية الخفية، ومشيرًا إلى تبعات مواصلة اعتماد هذا المنهج وقبول هذا الموقف الفلسفي، بأن تُعدَّ النتائج التي

لا تتفق مع هذه الفلسفة مجرد هراء. وأن الباحثين الذين تكَوَّنوا ضمن هذا التقليد، نظروا إلى العلم العرفاني في دراسته للذهن منضويًا تحت هذا الموقف الفلسفي القبلي. وتكوَّن الجيل الأول من العلماء العرفانيين للتفكير بهذه الطريقة، والعديد من الكتب المدرسية ما تزال تصور العلم العرفاني بهذه الطريقة. وهكذا لم يتميز الجيل الأول من العلم العرفاني عن الفلسفة، بل إنه يوافق وجهة النظر الفلسفية القبلية التي تضع القيود الدائمة على ما يمكن أن يكون عليه «الذهن». ومن هذه القيود بحسب لايكوف: أنه يجب على التصورات أن تكون حرفية. إذا ما خُصِّص التفكير العقلي من خلال المنطق الصوري التقليدي، فإنه لا يمكن أن يكون هناك شيء يُعدُّ تصوّرًا استعاريًّا، وليس ثمة شيء يعدّ فكرًا استعاريًّا. التصورات والتفكير العقلي بالتصورات يجب أن يكونا متمايزين عن التخيل العقلي (mental imagery) بما أن التخيل يستخدم آليات الرؤية ولا يمكن تخصيصه مثل سريان معالجة رموز صورية عديمة المعنى. ويجب أن تكون التصورات والتفكير العقلي مستقلين عن النسق الحسي الحركي، بما أنه لا يمكن للنسق الحسي الحركي، المتجسد، أن يكون شكلًا من المعالجة-الرمزية المجرّدة غير المتجسدة. واللغة كذلك -إذا كانت تناسب نموذج المعالجة الرمزية-فإنه ينبغي أن تكون حرفية، ومستقلة عن التخيّل، ومستقلة عن النسق الحسي الحركي. من هذا المنظور، يمكن للدماغ أن يكون مجرد أداة لتنفيذ «العقل» المجرد. ووفق وجهة النظر هذه لا ينشأ الذهن ولا يتشكل من قبل الدماغ. هذه النتائج لم تكن تجريبية، من وجهة نظر لايكوف، ولكنها تتبع بدلًا من ذلك الفرضيات الفلسفية.

يمكن استيضاح معالم الجيل الثاني للعلم العرفاني الذي انبثق منتصف السبعينات، وهي الفترة التي أعطي فيها للعلم العرفاني اسمه هذا ورغب فيه المجتمع والصحافة من خلال رد لايكوف كذلك على سؤال يتصل بالظروف التي نشأت فيه اللسانيات العرفانية (مثلما دعا إليها) وكيف تطورت انطلاقًا من تجربته الشخصية المبكرة، بصفته أحد المؤسسين والمنظرين لهذا الفرع الجديد، ليخلص لايكوف بعد سرد مسيرته البحثية وانتقاله من اتجاه لساني إلى آخر بقوله إنه في سنة ١٩٧٥، أصبح ملمًّا ببعض النتائج الأساسية من العلوم العرفانية المختلفة المتجهة نحو نظرية تجسّد الذهن embodied theory of mind- مثل الفيزيولوجية العصبية لرؤية الألوان، ومقولات النماذج الأساسية والمستوى القاعدي، وعمل طالمي Talmy على تصورات العلاقات الفضائية،

وعلم دلالة الإطار frame semantics لفيلمور Fillmore. هذه النتائج أقنعته بأن التوجه الكامل للبحث في اللسانيات التوليدية والمنطق الصوري التوليدي كان ميؤوسًا منه. وقصد، برفقة ليونارد طالمي ورونالد لانقاكر وجيل فوكونيي، إلى تشكيل لسانيات جديدة–متوافقة مع البحث في العلوم العرفانية وعلم الخلايا العصبية، سميّت اللسانيات العرفانية، وإنها لمشروع علمي مزدهر من وجهة نظره. وفي سنة ١٩٧٨، اكتشف أن الاستعارة ليست نوعًا مقتصرًا على الاستخدام المجازي في الشعر، وإنما هي آلية أساسية من آليات عمل الذهن. وفي سنة ١٩٧٩، زار مارك جونسون قسم الفلسفة في بيركلي وبدأ العمل معه على التفاصيل ومقتضياتها الفلسفية. وهكذا بدأ التنظير الفعلي للاستعارة من وجهة نظر عرفانية معاصرة، وخاصة مع صدور كتاب «الاستعارات التي نحيا بها» Metaphors we live by سنة ١٩٨٠، حاملًا أهم الأفكار حول الاستعارة ودورها في المعرفة واللغة البشريين والتي يمكن حوصلتها في النقاط الأساسية الآتية:

- التأسيس التجريبي.
- افتراض الذهن المتجسد، والمعرفة المتجسدة بديلًا من المعرفة الصورية والمحوسبة.
- مركزية الاستعارة آليةً أساسيةً من آليات اشتغال الذهن البشري.

يتأسس هذا الاتجاه الجديد إذن على فرضية التجسّد أو الجسدنة [1] embodiment التي تحاول أن تثبت أن الأذهان ليست عمليات خوارزمية غير متجسدة مثل برنامج الحاسوب، ولكنها تنشأ وتتقيّد بأنواع من التنظيم المنعكس في الخصوصة البيولوجية، والتشريحية، والكيميائية الحيوية، والفيزيولوجية العصبية للجسد والدماغ.

---

١ – يعد التجسّد أو الجسدنة أحد المبادئ المركزية الموجهة للدلالة العرفانية، فالبنية التصورية وفق هذا المنظور تشتق منه، فالمعرفة متجسدة على هذا الأساس، أي أنها خاضعة لطبيعة الأجساد التي نملك، فمعنى أن تكون البنية التصورية متجسدة هو أن تحدّد طبيعة أجسادنا وتقيّد نوعَ التصورات المشفرة وطبيعتها، والمتحققة عبر اللغة، بالنظر في الكيفية التي يوفر بها النسق اللغوي المعنى استنادا إلى تصورات مشتقة من التجسد. ينظر:
Vyvyan Evans and Melanie Green, Cognitive linguistics an introduction, p. 176

يرتبط فهم اللغة المجازية واستيعابها بفرضية التجسّد ارتباطًا قويًّا، وبخاصة في مجال الاستعارة. ومثلما بيّن جورج لايكوف ومارك جونسون، فإنّ استخدامنا العادي للّغة مُبَنْيَن في معظمه بواسطة مبادئ استعارية وكنائية تكشف عن الاتجاهية[1]. فالكائنات البشرية مثلًا تخصّص بصفة نسقية الأفكار المجردة-مثل الأفكار، المعتقدات الدينية، المواقف الأخلاقية والسياسية-من خلال حركات وأنشطة جسدية.

ويؤرخ الباحث روبرت كلير[2] لهذه الصيرورة بدءًا بالنظرية الحوسبية للذهن ويربطها بانبثاق الجيل الأول للعلم العرفاني، راجعًا بتاريخها إلى ما بعيد الحرب العالمية الثانية مع انعقاد مؤتمر هيكسون Hixon Symposium، عندما التقى دارسون (من الجيل الأول للعلم العرفاني) من تخصّصات مختلفة في معهد كاليفورنا للتكنولوجيا من أجل مناقشة مقتضيات نظرية جديدة تفيد بأن الذهن البشري يشتغل مثل الحاسوب. وقد ناقش بعض العلماء المشهورين الذين ينتمون إلى علم النفس، وعلم الأعصاب، واللسانيات، والرياضيات، وجهات نظرهم حول النموذج الإرشادي الجديد. ورأوا أنه يمكن مقارنة الدماغ بالحاسوب. وقد هيمن هذا النموذج الإرشادي على العلم العرفاني لفترة طويلة. وسمح ببروز تخصصات جديدة ومتنوعة منها اللسانيات الحاسوبية، وبعض النماذج الرياضية للغة، والنماذج الرياضية للذهن، واللسانيات الصورية. وقد تأسست النظريات الفلسفية لدى هؤلاء الباحثين على اعتقاد مفاده أن الذهن والجسد يشتغلان بصفة مستقلة أحدهما عن الآخر، وأن اللغة هي بالأساس تشفير رمزي يُحيل إلى حالة قضايا في العالم. ولكن بعد ثلاثين سنة من إنشاء العلم العرفاني، بدأ نموذج لساني جديد في الانبثاق. بعد التحقق من أن اللغة هي استعارية على نطاق واسع وأن الاستعارة تؤدي دورًا رئيسًا في كيفية تفكير الكائن البشري (لايكوف وجونسون، ١٩٨٠). سميّت هذه المقاربة الجديدة باللسانيات العرفانية، ولكنها لم تكن

١- هذا النوع من الاستعارات يتأسس على ما تم تسميته بـ «الذهن المتجسد». إنها استعارات تتأسس على افتراض أن الكائنات البشرية تنظم وتبنين فكرها من خلال تجربتها الجسدية. ما أشار إليه لايكوف وجونسون (١٩٨٠) بواسطة هذه الاستعارات الاتجاهية هو حقيقة كون الكائنات البشرية لها تنظيم فضائي وتتقاسم عالما تعكس اتجاهاته (مثل فوق-تحت، داخل-خارج-أمام-خلف...الخ).

2- Robert N. St. Clair,«The Renaissance of Metaphorical Thinking and the Implications for Cognitive Models of Cultural Language Education», p-p96-115.

Link: https://pdfs.semanticscholar.org/ec16/d505efc3141fd6c15b7e8bb8e02377fb0738.pdf

من نوع المقاربة اللغوية نفسها التي استخدمها نعوم تشومسكي وتلامذته في معهد ماساتشوستس (MIT). وتأسّس هذا النوع الجديد من اللسانيات العرفانية على الجيل الثاني من العلم العرفاني. وكان اهتمام روادها الأوائل منصبًّا على الكيفية التي يفكر بها الكائن البشري والدور الذي تضطلع به اللغة في المعرفة... والأعمال التي ضمّها هذا الإطار الجديد انبنت على نموذج الجيل الثاني للسانيات العرفانية، وعلى مفهوم الذهن المتجسد. ويمكننا أن نعثر في الوقت الحالي على اتجاهين مختلفين ضمن هذه المقاربة الجديدة للعلوم العرفانية. يهتم أحدهما بكيفية تجسُّد الفكر، بينما يهتم الاتجاه الآخر بالترابطات العرفانية والاندماج الحاصل على الساحة الذهنية.

ويمكن القول إذن إنّ التنظير العرفاني للاستعارة قد نشأ أوّل ما نشأ في أحضان اللسانيات العرفانية القائلة بفكرة الذهن المتجسد[1]، وأن عملًا تأسيسيًّا قد قام به جماعة من اللسانيين العرفانيين، على رأسهم جورج لايكوف، الذين اعتمدوا على براهين لغوية للتدليل على تصورية الاستعارة ومركزيتها في التفكير والمعرفة.

١- يقول فيفيان إيفانس إن فكرة التجسد تؤدي دورا مهمًّا في عديد النظريات اللسانية العرفانية، وهي تختص بالجسد، وبخاصة فيسيولوجيته وتشريحه المخصصين حسب النوع أو الجنس. ترتبط فيزيولوجيا الجسد بهيكله البيولوجي، وهي ما يسمى أجزاء الجسم وطريقة تنظيمها، مثل امتلاك يدين، وذراعين، وجذع، وجلد أو بشرة، (...) ويرتبط التشريح بالتنظيم الداخلي للجسم. يتضمن هذا التصميم أو البناء العصبي للكائن الحي، وهي ما يسمى بالدماغ والنظام العصبي. ينظر:

– Vyvyan Evans, A Glossary of Cognitive Linguistics, Edinburgh University Press, Edinburgh 2007, p. 68.

ويرى ديان بيشر ورولف زوان أنه يمكن القول إن فكرة الذهن المتجسد هذه ارتبطت أكثر بعلم النفس العرفاني الذي يطرح من بين ما يطرح من أسئلة رئيسية الكيفية التي يمثل بها الناس معارفهم حول التصورات. هناك نظريات ترى بأن التصورات يتم تمثيلها في الذاكرة البشرية بواسطة أنساق حية حركية تثوي خلف التفاعل مع العالم الخارجي. هذه النظريات مثلت التطور الراهن للعلم العرفاني نحو رؤية المعرفة ليس من خلال سيرورة معلومات مجردة، وإنما من خلال الإدراك الحسي والفعل؛ بعبارة أخرى، ترتكز المعرفة على التجربة المتجسدة. كما أظهرت دراسات أخرى أن الإدراك الحسي والأفعال الحركية تدعم الفهم البشري وتصورات الكلمات والأشياء. علاوة على ذلك، حتى فهم التصورات المجردة والعاطفة يمكن أن تبدو معتمدة على التجارب الأكثر حسية وتجسدا. وأخيرا، اللغة بحد ذاتها يمكن أن تبدو مرتكزة على السيرورة الحسية الحركية. ينظر:

– Diane Pecher and Rolf A. Zwaan, Introduction to Grounding Cognition, The Role of Perception and Action in Memory, Language, and Thinking, Cambridge University Press 2005, p.1.

ولما كانت الاستعارة أحد المظاهر الذهنية التي تعكسها اللغة فإنّ اللساني العرفاني يأخذ على عاتقه دراسة هذه الآلية الذهنية بالاعتماد على معطيات لغوية بشكل جلي بوصفها مرآة عاكسة لما يدور في الفكر، ذلك أن «اللغة، من منظور عرفاني، هي إنتاج للذهن البشري، فهي إذن تعكس سيرورات الفكر البشري وبنياته»[١].

ومن بين المفاهيم العرفانية للاستعارة بصفتها رؤية جديدة تتحدّى وجهة النظر التقليدية نجد ما طرحته نظرية الاستعارة التصورية التي دعا إليها وأسّس لها وطورها جورج لايكوف ومارك جونسون بشكل خاص، تلك النظرية التي قال عنها كوفيتش [٢] إنها رؤية جديدة للاستعارة تحدّت كل مظاهر النظرية التقليدية القوية بطريقة منسجمة ومتماسكة، كان ذلك مع صدور كتابهما «الاستعارات التي نحيا بها». وقد أصبح مفهومهما هذا معروفًا باسم «الرؤية اللسانية العرفانية للاستعارة». وقد تحدّى لايكوف وجونسون الرؤية المترسخة للاستعارة بالفرضيات الآتية:

- الاستعارة خاصية للتصورات، وليس للكلمات.
- تتمثل وظيفة الاستعارة في فهم أفضل لبعض التصورات، وليس لأغراض فنية وجمالية معينة فحسب.
- لا تتأسس الاستعارة على المشابهة في معظم الأحيان.
- يستخدم الناس العاديون الاستعارة دون جهد في حياتهم اليومية، فالأمر لا يتعلق بالموهوبين موهبة خاصة فحسب.
- الاستعارة بعيدًا عن كونها شيئًا زائدًا برغم الجمالية اللغوية التي تمنحها، فهي عملية حتمية للتفكير والاستدلال البشريين.

ويعدد جورج لايكوف في نظريته المعاصرة للاستعارة [٣] طبيعة الاستعارة من هذا

1- Ana margarida abrantes, Meaning and Mind, Peter Lang Internationaler Verlag der Wissenschaften, Franfurt, 2010, p.11

2- Zoltán kövecses, Metaphor, A Practical Introduction, 2nd ed. Oxford University Press, 2010, pp. ix-x

3- Cf. George Lakoff, «The Contemporary Theory of Metaphor». In, Metaphor and Thought (2nd ed), Edited by Andrew Ortony, Cambridge University Press, 1993. pp. 244- 245.
ينظر أيضا: جورج لايكوف، النظرية المعاصرة للاستعارة، تر. طارق النعمان، مكتبة الإسكندرية ٢٠١٤، ص ٧٩

المنظور الجديد في النقاط الآتية:

- الاستعارة هي الآلية الأساسية التي نستوعب من خلالها التصورات المجردة، ونمارس بها التفكير المجرد.
- إن الكثير من الموضوعات، من أكثر الأمور المعيشة إلى النظريات العلمية الأكثر صعوبة، لا يمكن فهمها إلا عن طريق الاستعارة.
- الاستعارة هي تصورية في جوهرها، وليست لغوية، بشكل طبيعي.
- اللغة الاستعارية هي تجلّ سطحي للاستعارة التصورية.
- على الرغم من أن جزءًا كبيرًا من نسقنا التصوري استعاري، فإن جزءًا مهمًّا منه هو غير استعاري. والفهم الاستعاري يكون متجذرًا في الفهم غير الاستعاري.
- تسمح لنا الاستعارة بأن نفهم الموضوع المجرد نسبيًّا وغير المبنين بطبيعته من خلال موضوع ملموس أكثر، أو أعلى بنينة على الأقل.

إن مثل هذه الأفكار تبدو أفكارًا ثورية مقارنة بما ظل سائدًا في الأوساط العلمية والأكاديمية بشكل عام حول النظرة التي بدت قاصرة تجاه الاستعارة. هنا لا يفتأ لايكوف في معظم أعماله يوجه انتقادات لاذعة لوجهة النظر الكلاسيكية حول الاستعارة، تلك التي تضرب بجذورها في عمق التاريخ، وتصل على أقل تقدير إلى أرسطو. وعلى مدى ألفي سنة لم تتغير هذه النظرة إلى الاستعارة بكونها مسألة لغوية، وليست فكرية. وأن اللغة اليومية ليس بها لغة استعارية، بل هي لغة تنتمي إلى مجال اللغة الحرفية(١).

أما عن طريقة عمل الاستعارة فتكون في المستوى الذهني ببناء تصور لمجال ذهني من خلال مجال ذهني آخر. يتم ذلك عن طريق إقامة ترابطات ما بين المجالين. والأمر يتعلق بشكل خاص بالتصورات اليومية المجردة من قبيل الزمن، الحالات، التغير، السببية، والغرض، التي هي تصورات استعارية. هذا ما جعل لايكوف وجونسون

١- عبد العزيز لحويدق، نظريات الاستعارة في الغرب من أرسطو إلى لايكوف ومارك جونسون، عمّان، دار كنوز المعرفة، ٢٠١٥.

يحاولان البرهنة على أن النسق التصوري البشري هو استعاري في جزئه الأكبر، نظرا إلى أن الطريقة التي يفكر بها الكائن البشري والطريقة التي يتصرف بها هي استعارية في جزئها الأكبر.

هذا المنظور الجديد للاستعارة يجد صداه في أبحاث تلت صدور كتاب لايكوف وجونسون المشار إليه، وتنوعت النظريات التي حاولت مقاربة الاستعارة من وجهة نظر عرفانية، بالاعتماد دائمًا على المعطى اللغوي، هذا الاختلاف والتنوع ظل مؤطّرًا وموجّهًا ببعض الالتزامات والتقييدات التي يلتزم بها المشتغل ضمن هذا الإطار، أهمها تلك التي يعرضها لايكوف[1] في قوله بتميز اللسانيات العرفانية عن الاتجاهات الأخرى في اللسانيات، سواء ذات النزعة الصورية أو ذات النزعة الوظيفية، من خلال هذين الوجهين: أولًا، إنها تأخذ بصفة جدية الدعامة العرفانية للغة، وهو ما يسمى بالالتزام العرفاني. فاللسانيون العرفانيون يحاولون وصف اللغة ونمذجتها في ضوء براهين متجمعة من علوم الذهن والعلوم العرفانية الأخرى. ثانيًا، يلتزم اللسانيون العرفانيون بالتعميم: أي التزام وصف المبادئ التي تشكل المعارف اللغوية وطبيعتها بوصفها محصلة لمقدرات عرفانية عامة بدلًا من رؤية اللغة بوصفها تشكيلًا لقالب منفصل كلّيًّا ومستبطنٍ في الذهن، مثلًا.

٢- الاستعارة في المقام التربوي:

انطلاقًا من التحديد المستجد للاستعارة ضمن الإطار اللساني العرفاني حاول كثير من الدارسين البت في أهمية الاستعارة في المقام التربوي في مستوياته المختلفة، انطلاقًا من وجود «اتفاق بين العلماء والباحثين على إمكانية استخدام الاستعارة كوسيلة تعليمية... فلا شك في أن قدرة الاستعارة على نقل المعلومة أو الصورة من المجال الأصلي إلى المجال المستهدف يمكن استغلالها لتوضيح بعض المظاهر غير المعتادة للطلاب، عن طريق الحديث عن ظواهر أخرى تعوّدوا عليها. ومن ثم، يمكن أن تساعد الاستعارة في توضيح الموضوعات المختلفة وتبسيطها، وهذا يساعد الدارس على التخيل والتذكر.

1- Vyvyan Evans, Language and Cognition: The View from Cognitive Linguistics. p.3. From: http://www.vyvevans.net/TheViewFromCogLx.pdf

وتبرز أهمية هذا الأمر حينما يتعرض الدارسون لإحدى الظواهر الجديدة، بل والمعقدة، والتي عادة ما تستعصي على الفهم، مثل الكهرباء وبنية الذرة، ووظائف الحمض النووي. وقد أثبتت دراسات عدّة أن استخدام الاستعارة في النصوص التعليمية قد أسهم بشكل لافت في زيادة قدرة الدارسين على تذكر المعلومات، والخروج باستنتاجات، والإجابة عن الأسئلة، وحل المشكلات»[1]. والأمر لا يتعلق بكون الاستعارة أداة مساعدة فقط بل هي تتجاوز هذا الدور لتؤدي دور الوسيط الذي لا غنى عنه في توصيل المعارف الجديدة.

من التحديدات التي واجهت الاستعارة في علاقتها بالتعليم ما أوردته الباحثة إيلين بوتا في مقال لها[2] عن أهمية الاستعارة في المجال التعليمي؛ إذ حددت الاستعارة في هذا المجال بأنها رؤية الظواهر التربوية وأحداثها وأفعالها غير المألوفة ووصفها أو تفسيرها من خلال ما هو مألوف من الأشياء والأحداث أو الأفعال (مثل اعتبار المدرس مرشدًا، أو التعلم معركة ارتقاء...). وترى الباحثة بدعم من آراء باحثين آخرين أن الاستعارة هي واحدة من الطرق المركزية لجسر الهوة الإبستيمولوجية الفاصلة بين المعارف القديمة والمعارف الجديدة بصفة جذرية، وهو الدور الإبداعي والابتكاري والتفاعلي للاستعارة إذ تبدع تشابهات بين الفهم السابق للطالب من جهة واكتساب معارف جديدة حول موضوع ما من جهة أخرى.

لقد حاولت إيلين بوتا في مقالها إثبات الدور المهم للاستعارة في المقام التربوي بتعقّب تأثير التغيرات في فهم الاستعارة، وحضور هذه التغيّرات ودورها الحيوي في العملية التعليمية، هذه التغيّرات التي صاحبت التحولات التي شملت المناويل المتحولة من النزعة الموضوعية إلى النزعة الكلية والترابطية في التعليم. وانعكست هذه التحولات في اختيار الأساليب التعليمية كذلك. وزعمت الباحثة أن الاستعارات هي أنشطة ووقائع وعمليات تأسيسية وتربوية، وإنها تعدّ وسيطًا لافتراضات أساسية لرؤية عالم

١- إيلينا سيمينو، الاستعارة في الخطاب، ترجمة عماد عبد اللطيف وخالد توفيق، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١٣، ص-ص ٢٢٠-٢٢١

2- Elaine Botha, «Why metaphor matters in education», South African Journal of Education; 2009, Vol 29:431-444.
From: http://www.ajol.info/index.php/saje/article/download/47740/34112

خاصة بهذه الوقائع والأنشطة. وتملك الاستعارة حمولة عرفانية وأيديولوجية، وتوظف بصفتها حاملًا لرؤية للعالم موفرة وصولًا إلى افتراضات تخصصية حول الطريقة التي يبنين بها العالم والجنس البشري.

ومن منطلق كون الاستعارة من الأدوات الفكرية المتاحة للكائن البشري من أجل تشكيل رؤيته للعالم، فإن الواقع في المجال التعليمي لا يُولي عناية كبيرة للاستعارة التي ما يزال ينظر إليها على أنها مجرد أداة يستخدمها الشعراء والأدباء بشكل حصري، ما أدّى إلى حصر وظيفتها في التزيين والتأثير العاطفي لا غير. وبذلك تزداد الهوة بين اللغة الحرفية واللغة الاستعارية وعدّ مجال الأولى الممارسة العلمية، غير أن هذا الفهم المزدوج للّغة كانت له نتائج سلبية في التقليل من أهمية اللغة المجازية ودورها العرفاني والتأسيسي للكثير من النظريات الفلسفية والعلمية، ودورها المهم في تفسير العالم وبناء رؤية عنه ونقل هذا التفسير إلى المتعلمين.

٣- نماذج بحثية:

نظرًا إلى الأهمية التي أضحت الاستعارة تحظى بها في المنظومة التربوية (الغربية بشكل خاصّ)، عمدت بعض الأبحاث إلى اقتراح مقاربات لاستثمار هذه الأهمية في الجوانب المرتبطة بالعملية التعليمية، نقترح منها هذه النماذج التي تعكس بعضًا من جوانب الاهتمام باستثمار منجزات اللسانيات العرفانية ومبحث الاستعارة التصورية خاصة في المجال التعليمي بشكل عام.

- **الاستعارة والخطاب التربوي:**

ينطلق راندي غارنر في بحثه[1] حول الاستراتيجيات ذات الفاعلية في التدريس من الجمع بين الفكاهة والتمثيل والاستعارة بوصفها أهم الاستراتيجيات التعليمية داخل الصف، ويقول إن الاستخدام الجيد لهذه الأدوات الثلاث بما يناسب الموضوع المطروق من شأنه أن يمنح فوائد جمة، فالفهم الجيد وزيادة القدرة على تذكر المواد، وخلق بيئة أكثر أريحية في الصف يسهم فيه الاستخدام الفاعل لهذه الاستراتيجيات. فالاستعارات

1- Cf. Randy Garner, «Humor, Analogy, and Metaphor: H. A.M. it up in Teaching», from: radicalpedagogy.icaap.org/content/issue6_2/garner.html

والتمثيلات تساعد الطلبة على تصور غير المعتاد من خلال تصور آخر أكثر قابلية للتعرف عليه، وتعمل على تحسين فهمهم وتنمية قدرتهم على الحفظ والاستذكار.

وبالنسبة إلى المعلم -بحسب الباحث دائمًا-تتيح له الاستعارة استخدام فكرة، أو كلمة، أو فقرة، أو شيء ما، في مكان أخرى لاقتراح وجود مشابهة بينهما. والتمثيل بالرغم من اختلافه من الناحية التقنية عن الاستعارة، فإنه يُعدُّ استعارة موسعة. وقد استُعمل هذان النمطان تاريخيًّا بوصفهما من الوسائل التعليمية الفاعلة. وكان لهما حضور واضح في الأساطير اليونانية والنصوص الدينية والحكايات الرمزية، التي استُعين بها في تعليم سلوكات معينة. إنّ استخدام الاستعارة والتمثيل ينتشر في المجتمع في كل من اللغة والتواصل. وتُوضَّح الأفكار بتضمين استخدام تمثيلات استعارية. وثمة اعتقاد لدى بعض الباحثين مفاده أننا نفكر في معظم الأحيان في المعلومات ونعطي لها تفسيرًا من خلال تصورات وأمثلة استعارية. ويقترح راندي غارنر أن التفكير البشري هو استعاري في الصميم واستخدام الاستعارة في الميدان البيداغوجي يقع في صلب الموضوع.

ووفقًا لمصادر الباحث يُعدُّ الاستعمال الفاعل أو المؤثر للاستعارات والتمثيلات استراتيجيةً تربويةً مهمةً. والأهم من ذلك أن مفهوم التعليم نفسه يوصف من خلال استعارات عديدة (مثل زرع الأزهار، وإضاءة مصباح كهربائي، وتنقيب...إلخ). واستعمال الاستعارة والتمثيل في التعليم يسمح للمعلم بربط فكرة غير معتادة على الأرجح بفكرة أخرى معتادة. وبالنسبة إلى كثير من المدرّسين يتمثل الدافع الموضوعي لعمل ذلك في نقل مفهوم غريب إلى مفهوم أو تصور قد يكون أكثر قابلية للتعرف عليه. هذا ما يحدث عندما نحاول فهم تصوّر ما أو تجربته من خلال تصوّر آخر.

- **الاستعارة وتعليم النحو والمعجم:**

يخصص الباحث يورغ ماتياس روش حيّزًا من مقاله[1] الذي خصصه للحديث عن تعلم اللغة وبيداغوجيتها للحديث عن الاستعارات التصورية وتعليم النحو

1- Cf. Jörg Matthias Roche, «Language Acquisition and Language Pedagogy», in: The Bloomsbury Companion to Cognitive Linguistics, Edited by Jeannette Littlemore and John R. Taylor, Bloomsbury Academic 2014, pp. 325-351.

grammar، ويشير بدءًا إلى أن أهمية الاستعارات لا تنحصر فقط في المجال المعجمي ولكنها تعد وسيلة مفيدة في تعليم القواعد النحوية كذلك، سواء أتعلق الأمر باللغة الأم أم باللغات الأجنبية. في هذه الحال يحتاج المدرسون إلى معرفة ميتا-لغوية بالأساس التصوري لهذه القواعد. ويمثل الباحث لذلك بالأساس التصوري للحالات النحوية (أو الإعرابية) التي تتشارك فيها جميع اللغات. ويختار مجال الحركة في الفضاء أساسًا تجريبيًّا للبناء التصوري والنحوي لدى البشر. ذلك أن الأشياء المتحركة في الفضاء أو المنتقل trajector تدرك من خلال معارضتها للخلفية background أو المعلَم landmark، بحسب اصطلاحات لانقاكر. في هذا الإطار يعد المعلم الحيز الفضائي الذي يتموضع الشيء المتحرك في نطاقه. ويمكن لهذا الشيء أن يحافظ على موضعه ضمن هذه الحدود أو يغادرها منتقلًا إلى حيز فضائي آخر. من هنا نميز بين منظورات مختلفة في وصف وضعية ما وعكسها نحويًّا في عبارات لغوية، انطلاقًا من التمييز بين حالات المنتقل والمعلَم، فإما أن يحافظ المنتقل على موضعه داخل محيط المعلم، وإما أن يتحرك عابرًا الى حدود المعلم...

أما في الجانب المتعلق بمفردات المعجم فتؤدي الاستعارة دورًا مهمًّا خاصة فيما يتصل بالتوسعات المعجمية، في هذا الصدد يتحدث فاتشان تشانغ في مقال له[1] عن استخدام الاستعارات التصورية وتطبيقها في تعليم معجم اللغة وهي التي توفر لنا إمكان النظر في شيء من خلال شيء آخر. هذه الخاصية بحسب الباحث تسمح لنا بربط معاني مادة معجمية في مجال ما بمعانيها الاستعارية المرتبطة بها في مجال آخر. وعليه توسع معاني أشكال الكلمة نفسها. من ذلك مثلًا كلمة «هش» المستخدمة في مجال البناء التي يمكن أن تستعمل في مجال النظرية وفق الاستعارة التصورية **النظريات بنايات** (تفسر لنا هذه الاستعارة سبب حديثنا عن هشاشة النظرية وانهيارها)، وقس على ذلك مع عدد كبير من الكلمات التي يمكن تعلمها بطريقة نسقية اعتمادًا على هذه الطريقة. ويقترح الباحث تطبيق هذه الطريقة بيداغوجيًّا بأن يقترح المعلم على التلاميذ نصوصًا تتضمن استعارات تصورية، ويطلب إليهم تعيين المجالين (المصدر والهدف) بعد أن يوجههم بطرح بعض الأسئلة عليهم، بالتركيز على الكلمات المستخدمة استعاريًّا، وبإدراك

1- Cf. Fachun Zhang, «A Study of Metaphor and its Application in Language Learning and Teaching»; in International Education Studies, Vol. 2, No. 2, May, 2009.

ذلك يمكن للتلاميذ استنتاج الاستعارة التصورية المعنية، ومن ثم الوقوف على أوجه استخدام أشكال الكلمات نفسها في مجالين مختلفين أحدهما فيزيقي أو حسي والآخر أقل حسية أو مجرد. وبهذه الطريقة يستطيع التلاميذ تذكر معاني كلمة ما بسهولة من خلال ترسخ هذا الترابط المحفز بهذه الأمثلة.

- **الاستعارة وتعليم الحاسوبيات:**

من البحوث التي اعتنت بإبراز دور الاستعارة في التعليم المتخصص نعثر على العمل الذي قام به الباحث ويليام جون وولارد في بحثه حول دور الاستعارة في تدريس الحوسبة؛[1] إذ رأى أن تدريس هذه المادة يتطلب، على غرار جميع المواد الدراسية، مجموعة من الاستراتيجيات للإلمام بمحتوى المنهاج الدراسي (مهارات، معرفة، فهم، واتخاذ المواقف) ووضعها في شكل يمكن هضمه بسهولة أكبر من قبل المتعلمين. وتؤدي الاستعارة دورًا خاصًّا في عالم الحوسبة؛ إذ هي مضمَّنة في تصميم أجهزة الحاسوب والبرمجيات، وهي جزء من واجهة الجهاز وأنها تشكل أساسًا لتسهيلات مهمة مثل الأيقونات، وعمل المؤشرات وعرض النوافذ. وهي تؤدي دورًا مهمًّا في معرفة المحتوى البيداغوجي Pedagogic Content Knowledge (PCK) الخاص بمعلمي الحوسبة.

وقد كشفت نتائج هذا البحث عن وجود منظور جديد بخصوص معرفة المحتوى البيداغوجي فيما يتعلق بتدريس الحوسبة في التعليم ما بعد المرحلة الأولى. إنها مقاربة نموذجية حددت المجالات الرئيسة وشددت على الدور الذي تؤديه الاستعارة في كل من استراتيجيات التدريس ومعرفة موضوع الحوسبة. وقد عرض البحث وصفًا لتطبيقات مختلفة، وقارنها وعرضها في شكل من شأنه أن يساعد المعلمين على تحديد المقاربة أو المقاربات الخاصة بهم.

واقترح الباحث مواصلة البحث مستقبلاً لتحديد مدى فاعلية الاستراتيجيات الاستعارية وكفاءتها خاصة. ولا سيما أن دور مقاربات التدريس غير الحرفية يمكن أن يسمح للتلاميذ الصغار بفهم مبادئ الحوسبة وكيف يمكن لهذه المقاربات غير الحرفية أن تُستعمل لضمان تحفيز الطلاب أكثر في دراستهم.

1- William John Woollard, «The role of metaphor in the teaching of computing; towards a taxonomy of pedagogic content knowledge»; from: https://eprints.soton.ac.uk/11227/1/ThesisJWoollard2004.pdf

٤- مخاطر استعمال الاستعارة في الخطاب التربوي:

نختم هذه الجولة السريعة بالإشارة إلى أنه في مقابل الحديث عن الأهمية التي حظيت بها الاستعارة في مجال التعليميات بصفتها استراتيجية تعليمية، وقد ألمحنا لذلك من خلال هذه النماذج البحثية المختارة عشوائيًّا بما لا يعكس بحق مقدار الاهتمام المتزايد والمتنوع بمثل هذه الاستراتيجيات العرفانية في التعليم، إلا أن بعض المخاوف التي ترتبط بالأساس بإساءة استخدام الاستعارة أو التعامل معها قد أُثيرت، وتتجلى تلك الإساءة بحسب راندي غارنر[1] في تأسس الاستعارات والتمثيلات على أمور غير مألوفة لدى الطالب ما يثير لديه تشويشًا وغموضًا في فهم الفكرة. ويشير الباحث إلى أنه من الواجب على الاستعارات والتمثيلات أن تنقل أفكارًا تتدرّج من التصورات المعتادة لدى المتعلمين إلى تصورات أقل ألفة أو غير معروفة لديهم. وينبغي للعلاقة الاستعارية أن تكون واضحة ومضبوطة، فالاستخدام الدقيق للاستعارات والتمثيلات يمكن أن يوفر نمطًا من الاختصار المساعد على تحديد غير الملموس أو المجرد. ومع ذلك تتوقف عملية اختيار الاستعارات والتمثيلات الملائمة على فهم المتعلمين وإدراكهم الحسي، وعلى المعلم أن يضمن استخدامًا دقيقًا ومضبوطًا للاستعارة من أجل بلوغ الهدف المتمثل في التأثير المطلوب في الفهم الجيد للموضوع أو المسألة قيد النظر.

وتورد إيلينا سيمينو [2] مثالًا عن هذه المخاطر والصعوبات في استخدام الاستعارة في التعليم من خلال هذا المثال أو النموذج الذي نقلته عن لين كاميرون Lynne Cameron وهو يتعلق بنص مأخوذ من كتاب مدرسي في مادّة العلوم، يدرّس للتلاميذ في سني العاشرة والحادية عشرة موضوعه «القلب»، ويحتوي ذلك النص على عدد كبير من التعبيرات الاستعارية المختلفة:

«يمثل الدم نظام النقل ...داخل الجسم، بينما يمثل القلب مركز هذا النظام. ويحتوي القلب على أربع غرف لها جدران عضلية، وهذه الجدران تنقبض كل ثانية تقريبًا، لتدفع الدم خارج هذه الغرف، داخل أنابيب قوية نسميها الشرايين، ومنها يندفع الدم إلى كل أجزاء الجسم. وحينما يرتخي القلب مرة واحدة، تمتلئ غرفه بالمزيد من الدماء، والتي

1- Randy Garner, «Humor, Analogy, and Metaphor: H. A.M. it up in Teaching». Ibid.

٢- ينظر: إيلينا سيمينو، الاستعارة في الخطاب، ص-ص ٢٢٢-٢٢٤.

جاءت عن طريق أنابيب أخرى نسميها الأوردة. وهذا الضخ (للدماء) -والذي نسميه نحن دقات القلب-يحدث كل ثانية تقريبًا طيلة عمر الإنسان، ولا توجد آلة صنعها الإنسان تعمل بكفاءة القلب البشري واستمراريته نفسه، فيمكن للقلب أن يدق لمدة مائة عام دون الحصول على راحة. وعلاوة على ذلك، فإن القلب يمتلك القدرة على التكيف؛ بمعنى أنه يستطيع أن يدق بسرعة أو ببطء، وهذا يواكب تغيير كمية الدم التي يضخها مع كل دقة، بناء على المجهود الذي يقوم به الإنسان».

وتفرق كاميرون بين ثلاثة أنواع من التعبيرات الاستعارية الواردة في الفقرة السابقة عن القلب: تعبيرات شبه فنية...، وأخرى فنية...، وثالثة فنية ومكونة للنظريات... فعلى سبيل المثال، تضم التعبيرات شبه الفنية وصف «الدم» بأنه نظام للنقل، ووصف «الشرايين» بأنها أنابيب، ووصف «القلب» بأنه يمتلك قدرة على التكيف (وتعبير «الدفع» يدخل ضمن هذه الفئة). وهذه التعبيرات لا تستخدم بشكل تقليدي عند الحديث عن وظيفة القلب؛ ومن ثم فلا تُعدُّ من التعبيرات المكونة للنظريات في أي سياقات أخرى. وقد استخدمها المؤلف هنا لما لها من قدرة على توصيل المعلومة للدارس ... فهذه التعبيرات تتماشى مع ما يعرفه القارئ (عن النقل، والأنابيب، وقدرة الآلات على التكيف)، ومن ثم يسهل على المؤلف شرح بعض جوانب المجال المستهدف (الدورة الدموية، ووظيفة القلب فيها). وتشمل الاستعارات الفنية تعبيرات مثل «غرف»، و»جدران»، التي تستخدم عادة في المناقشات العلمية للإشارة إلى مكونات القلب، ولكنها لا تعكس الطريقة التي عادة ما تشرح بها وظيفة القلب (بمعنى أن القلب لا يصور عادة في شكل بناء). وعلى النقيض من هذا...بعض التعبيرات مثل «ضخ» و»يضخ» على أنها تعبيرات فنية، ومكونة للنظريات في نفس الوقت.. [فـ] وظيفة القلب قد فُسّرت للمتلقي عن طريق الاستعارة التي تشير إلى أن القلب عبارة عن مضخة.

وأشارت سيمينو إلى أن العمل الذي قامت به لين كاميرون مع مجموعة من الأطفال في سن العاشرة يكشف عن مدى صعوبة توقع تفسيرات الدارسين لأنواع الاستعارات الواردة في هذا النص، وبتحديد أكثر، فقد كان المشاركون في الدراسة التي أجرتها كاميرون يُعاملون التعبيرات الاستعارية الفنية المغلقة الواردة في النص معاملة

التعبيرات المفتوحة. وقد طبقوا بعض ما لديهم من معرفة منقوصة عن المجال المصدر على تفسيراتهم للنص. فلقد أثار استخدام لفظ «الجدران»، على سبيل المثال، في أذهانهم قوة الجدران الموجودة في المنازل، وحمايتها لقاطني هذه المنازل، كما أثارت كلمة «الغرف» في أذهانهم وجود مساحة للتخزين، وأثارت كلمة «الضخ» في أذهانهم «المنفاخ» الذي يستخدمونه في ضخ الهواء في عجلات الدراجة، عند خلوها من الهواء. وانتهى الأطفال إلى نتيجة مفادها أن القلب يضخ الهواء الذي يدفع الدم في كل أجزاء الجسم.

وتلخص كاميرون هذه المشكلة، مثلما تنقل سيمينو، بالقول إن هذه المشكلة سواء أكنا نتحدث عن هؤلاء الأطفال أم عن غير المتخصصين، تكمن في عدم قدرتهم على التفرقة بين الاستعارات المقصودة (المتداولة)، والمصطلحات الفنية، التي قد تكون هي بدورها استعارات وضعية. وتنصح سيمينو أخيرًا مستخدمي الاستعارة في التعليم بتوخي الحذر والعمل على أن يتوافر لدى الدارس أكثر من نموذج استعاري واحد للظواهر التي يدرسها، من أجل تقليل احتمال الفهم الخاطئ، أو الفهم الناقص للظواهر التي تكون موضع دراسة.

خاتمة:

نكتفي بهذا القدر من إثارة الانتباه إلى بعض الملامح المتعلقة بدور الاستعارة في العملية التعليمية والتربوية، إلى جانب آليات عرفانية/ معرفية مركزية أخرى (مثل الكنايات والتمثيلات وعمليات المزج) عند الكائن البشري بغية الإفادة من إثارة هذا الوعي في هذا المجال الحيوي الذي يشهد تقلبات وتحولات لافتة في الوقت الراهن، ومحاولة علاج النقائص وحل المشكلات المطروحة مما يعايشه يوميًّا المشاركون في العملية التعليمية والتربوية بشكل عام. وإننا على يقين من أن تطبيق ما توصلت إليه البحوث المنجزة من نتائج في إطار اللسانيات العرفانية/ المعرفية في المقام التربوي أو في غيره من شأنه أن يحل الكثير من تلك المشكلات والنقائص الملاحظة ما دام الأمر يتعلق بنتائج بحوث متعاضدة ومؤسسة، شغلها الشاغل هو البحث في المعرفة والسلوك الإنساني بالتركيز على آليات اشتغال الذهن البشري أساسًا. ونأمل أن نكون بهذا الملمح قد نبهنا على بعض هذه الوسائل المستبعدة أو المتغافل عنها ضمن منظومة التعليم في الوقت الراهن والاستفادة منها في دعم الاستراتيجيات التعليمية عامة.

المراجع:

العربية

١. إيلينا سيمينو، **الاستعارة في الخطاب**، ترجمة عماد عبد اللطيف وخالد توفيق، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٣.

٢. جورج لايكوف ومارك جونسن، **الاستعارات التي نحيا بها**، تر. عبد المجيد جحفة، الدار البيضاء، دار توبقال، ١٩٩٦.

٣. جورج لايكوف، **النظرية المعاصرة للاستعارة**، تر. طارق النعمان، مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٤.

٤. عبد العزيز لحويدق، **نظريات الاستعارة في الغرب من أرسطو إلى لايكوف ومارك جونسون**، عمّان، دار كنوز المعرفة، ٢٠١٥.

٥. عمر بن دحمان، **نظرية الاستعارة التصورية والخطاب الأدبي**، القاهرة، دار رؤية للنشر، ٢٠١٥.

الأجنبيّة

1. Abrantes, Ana Margarida, Meaning and Mind, Peter Lang Internationaler Verlag der Wissenschaften, Franfurt, 2010.
2. Botha, Elaine, «Why metaphor matters in education», South African Journal of Education; 2009, Vol29:431-444.
3. http://www.ajol.info/index.php/saje/article/download/47740/34112
4. Brockman, John, ««Philosophy In The Flesh» A Talk With George Lakoff». From : http://serbal.pntic.mec.es/AParteRei/
5. Bussmann, Hadumod, Routledge Dictionary of Language and Linguistic, translated and edited by Gregory Trauth and Kerstin Kazzazi; edition published in the Taylor & Francis e-Library, London and New York, 2006.
6. Clair, Robert N. St., «The Renaissance of Metaphorical Thinking and the Implications for Cognitive Models of Cultural Language Education», p-p96-115. Link: https://pdfs.semanticscholar.org/ec16/d505efc3141fd6c15b7e8bb8e02377fb0738.pdf

7. Cruse, Alan, A Glossary of Semantics and Pragmatics, Edinburgh University Press, 2006.

8. Evans, Vyvyan & Green, Melanie, Cognitive linguistics, an introduction, Edinburgh University Press, 2006.

9. Evans, Vyvyan «Language and Cognition: The View from Cognitive Linguistics», From: http://www.vyvevans.net/TheViewFromCogLx.pdf

10. Evans, Vyvyan, A Glossary of Cognitive Linguistics, Edinburgh University Press, Edinburgh, 2007.

11. Garner, Randy, «Humor, Analogy, and Metaphor: H. A.M. it up in Teaching», link: radicalpedagogy.icaap.org/content/issue6_2/garner.html

12. Kövecses, Zoltán, Metaphor, A Practical Introduction, 2nd ed. Oxford University Press, 2010.

13. Lakoff, George, Women, Fire, and Dangerous Things, What Categories Reveal about the Mind, The University of Chicago Press, Chicago and London, 1987.

14. Lakoff, George, «The Contemporary Theory of Metaphor». in Metaphor and Thought (2nd ed), edited by Andrew Ortony, Cambridge University Press, 1993.

15. Pecher, Diane & Zwaan, Rolf A., Introduction to Grounding Cognition, The Role of Perception and Action in Memory, Language, and Thinking, Cambridge University Press, 2005.

16. Roche, Jörg Matthias, «Language Acquisition and Language Pedagogy», in The Bloomsbury Companion to Cognitive Linguistics, Edited by Jeannette Littlemore and John R. Taylor, Bloomsbury Academic 2014.

17. William Croft & D. Alan Cruse, Cognitive Linguistics, Cambridge University Press, 2004.

18. Woollard, William John «The role of metaphor in the teaching of computing; towards a taxonomy of pedagogic content knowledge.» link: https://eprints.soton.ac.uk/11227/1/ThesisJWoollard2004.pdf

19. Zhang, Fachun, «A Study of Metaphor and its Application in Language Learning and Teaching», in International Education Studies, Vol. 2, No. 2, May, 2009.

الفصل الخامس

المنظوران العرفاني والتداولي

آفاق التهجين[1]

د. صابر الحباشة[2]

١- لم نَرَ حاجةً إلى أن نشرح اختيارنا استعمال المشتقّات المتولّدة عن الجذر (هـ. ج. ن): هجين، مهجّن، تهجين... في سياقنا البحثي؛ إذ ننأى به عن المعنى السلبي (التقبيح والتعييب)، ونقصد المعنى القريب من المعنى المستعمَل في علم الأحياء من «التدخُّل البشري في إنتاج الحيوانات أو النّباتات؛ لضمان الحصول على الصفات المرغوب فيها لدى الأجيال القادمة، مثل مزج السُّلالات». (عن «معجم المعاني» الإلكتروني، بتصرّف).

الرابط: https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D9%87%D8%AC%D9%86/

٢- أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة زايد، دولة الإمارات العربية المتحدة.

تصدير

للّسانيّات العرفانية الفضل في إعادة تأهيل الوظيفة الرمزية أو التمثيلية للّغة[١].

مقدمة

يتناول هذا الفصل بالدرس وجوه التهجين والمزج والتوليد الممكنة بين المنظورين العرفاني والتداولي. فإذا كان المُعوَّل في الدراسات العرفانيّة على تنشيط العمليّات الذهنية في إنتاج الدلالة، فإنّ الدراسات التداولية تركّز على أهمّيّة السّياق في إنتاج المعنى.

وتأتي المقاربة الهجينة لتبرز تأثير السّياق المهمّ في بيئاتنا العرفانيّة، ومن ثمّ فلا مجال للفصل أو لعزل البيئة الذهنية عن التفاعلات الواقعية، إلا عزلًا أو فصلًا إجرائيّين بهدف الدراسة والاختبار، فالأقوال والخطابات تُحلَّل عرفانيًّا وتداوليًّا في ضرب من الاسترسال والتراكب.

إنّ سبيربر وولسون يريان أنّ الأثر السياقي هو أثر عرفاني. فلا قيمة للسياق في ذاته، بل في ما يستتبعه من تغيّرات تطال فكر الفرد، فـ«الآثار السّياقيّة في الفرد هي **الآثار العرفانيّة**... إنّها التّغيرات في معتقدات الفرد... دعونا نعرّف **الأثر العرفانيّ** بادئ ذي بدء بأنّه أثر سياقيّ يحدث في نظام عرفانيّ (على سبيل المثال فرد)»[٢].

ولعلّه من النافلِ القولُ إنّ التمييز بين الكفاءة اللغوية والأداء اللغوي يُعدُّ أمرًا بالغ الأهمية في التقليد الذهني للنظرية اللسانية الذي بدأه تشومسكي في خمسينات القرن العشرين وستيناته. وتشير الكفاءة اللغوية إلى معرفة الفرد بقواعد اللغة التي تمكن من اكتسابها واستعمالها. أمّا استخدام اللغة بشكل صحيح فيرتبط بالأداء اللغوي. ويترتب على ذلك أنّ التداولية بوصفها نظرية استعمال اللغة تقع بشكل طبيعي في مجال الأداء. وعلى المنوال نفسه، وبعد حوالي عقد من الزمان، انعكس التمييز بين الكفاءة والأداء على التمييز بين علم الدلالة والتداولية[٣].

1- Paul Gévaudan, La linguistique cognitive, p 610.

2- Dan Sperber and Deirdre Wilson. 1995. Postface to the Second Edition of Relevance: Communication and Cognition. Oxford: Blackwell.

3- Sophia S.A Marmaridou. 2000. Pragmatic meaning and cognition, Amsterdam, John Benjamins p 25.

فروث كمبسن (Kempson) (١٩٧٧)[1]، على سبيل المثال، تميّز بين علم الدلالة بوصفه مجال التحليل القائم على الحقيقة، والتداولية بوصفها مجال تحليل العمل القولي. وتدّعي كمبسن نفسها أنّ هذا التمييز يتماشى مع عرض تشومسكي (١٩٦٥) للكفاءة والأداء. إنّ معرفة الشكل المنطقي للجمل (شروط الحقيقة المتعلقة بالجمل) هي جزء من الكفاءة اللغوية، أمّا الاستخدام المقامي للجمل فهو جزء من الأداء اللغوي. وقد انتُقدت وجهة نظر كمبسن على أساس أنّ معنى الجملة، الذي يشمل معناها الحرفي، يمكن التقاطه عبر مقاربة استخدام فيرث (Firth) للمعنى [2]، ومن ثمّ فإنه لا يمكن الحفاظ على التفريع الثنائي إلى علم الدلالة والتداولية فقط من ناحية التمييز بين الحرفي وغير الحرفي. ومع ذلك، وعلى الرغم من الانتقادات، فإن المذهب المتلقّى بشأن نظرية المعنى يستبعد الاعتبارات التداولية [3].

ويميّز تشومسكي بين الكفاءة النحوية (أي معرفة الشكل والمعنى) والكفاءة التداولية (أي معرفة شروط الاستخدام المناسب). وفي هذا السياق، يُعرَّف التمييز بين الدلالة والتداولية في علاقة بنوعين من المعرفة. إذ يؤكد غازدار (Gazdar) أن التداولية هي امتداد للكفاءة النحوية. أمّا كاشر(Kasher) فيفضّل التمييز بين أنواع مختلفة من التداولية، بعضها ينتمي إلى الكفاءة، ولكن يبدو أنه يشير إلى آليات الأداء كذلك [4].

على أنّ من الباحثين من يرى أن التداولية أصبحت لا تختلف حقيقةً عن علم الدلالة: فليست سوى تنويعة مكمّلة له، تأخذ بعين الاعتبار سماتٍ مختلفةً أو واقعةً خارج اللغة (كالسياق، ومقاصد المتكلم، وانتظارات المخاطَب، إلخ.)[5].

1- Ruth M. Kempson. 1977. Semantic Theory. Cambridge: Cambridge University Press.

2- Cecil H. Brown. 1977.Review of Kempson, Language in Society 7: 264.

3- Marmaridou. 2000. p-p.25-26.

4- Marmaridou. 2000. p. 26.

5- Bruno Ambroise. 2011. «Le tournant cognitif en pragmatique Un aller-retour transatlantique et ses impacts philosophiques», Revue d’Histoire des Sciences Humaines, 25, 97.

المنعرج الغرايسي

تؤرّخ آنّ ربول (A. Reboul) للتداولية مشيرة إلى أنّها مرّت في أواسط ثمانينات القرن العشرين بطورين: إذ لم تكن موجودة في الطور الأول عمليًّا إلّا في حال المشروع؛ أمّا في الطور الثاني فقد أصبحت ذات أهمّية نسبية، ولكن من دون اكتساب وضع العلم الذي يجلب الاحترام. وقد شهدت فترة الثمانينات، على الأقلّ لسببين مختلفين، وإن كانا مترابطين، طورًا جديدًا من حياة التداولية، وألفيناها توسّع مجالات اشتغالها إلى مناطق جديدة، حاملة غائيّات مختلفة. وقد أدّى ازدهار العلوم العرفانية، تحت تأثير دراسات الذكاء الاصطناعي على وجه الخصوص، إلى رؤية مختلفة لما يمكن أن تكون عليه التداولية: تداولية عرفانية تسعى إلى أخذ صلات اللغة بمستخدميها بعين الاعتبار من خلال جعلها أحد جوانب نظام أكبر بكثير لمعالجة المعلومة، على نحو ما نجده في نظرية المناسبة لسبربير وولسون [١].

وغير بعيد عن ذلك يرى موشلير أنّ الفضل يرجع أساسًا إلى كتاب «المناسبة» لسبربير وولسون (١٩٨٦)، الذي بيّن أنّ لإسهام غرايس تأثيرين أساسيين في اللسانيات: الفصل بين بنية اللغة واستخدام اللغة من ناحية، والتخلي عن أطروحات المعنى التواضعية من ناحية أخرى[٢].

وترى ربول أنّ اللسانيات (التي توافق المجالات المنسوبة تقليديًّا إلى الصوتيات، والنحو، وعلم الدلالة) من منظور المنظومات (الوحدات)، المتأثّر إلى حدّ كبير بدراسات فودور (انظر Fodor ١٩٨٣/ ١٩٨٦)، تُعدُّ منظومة (وحدة) متخصّصة في البيانات اللسانية المدرَكة، في حين أن التداولية غير متخصّصة وتعود إلى النظام المركزي الذي يوفّر تفسيرًا كاملًا للمعطيات وللمعطيات اللسانية، (من بين معطيات أخرى) (وتلك مهمّة التداولية) انطلاقًا من تحليل أوّل توفّره المنظومة (الوحدة) اللسانية. هذا التصوُّر الجديد لدور التداولية ولواقعها أدّى إلى حصول امتداد إيجابي معلّلٍ لها من داخل التداولية ولم يعد سلبيًّا ولا مفروضًا من خارجها [٣].

1- Anne Reboul. 1995. La pragmatique à la conquête de nouveaux domaines: la référence. In: L’Information Grammaticale, N. 66, 1995. p. 32.

2- Jacques Moeschler. 2018. «L’implicite et l’interface sémantique-pragmatique: où passe la frontière», Corela [En ligne], HS-25 | 2018, mis en ligne le 19 juillet 2018, consulté le 31 août 2018. URL: http://journals.openedition.org/corela/6571

3- Reboul. 1995.Ibid.

فربول تنظر إلى الاتجاه العرفاني بصفته عامل تطوير للتداولية؛ إذ احتكّت به فوسّع مجالها وأثمر اللقاء بينهما نتائج أفادت التداولية توسيعًا لنطاقها وإخراجًا لها من دائرة حرج العلم غير المعترَف به، أو الذي ظل يقتات على موضوعات لم تستسغ اللسانياتُ وفروعُها التقليديةُ صوتياتٍ ونحوًا ودلالةً الاشتغال عليها.

مقاربة كارستون

ترى روبين كارستون أنّه يُنظر إلى التداولية في سياق فلسفة اللغة، بصفتها وسيلة مساعدة في حلّ المشكلات الواردة في علم الدلالة. ولقد أدّى المفهوم العلمي العرفاني للتداولية بوصفها نظامَ معالجةٍ ذهنيًّا مسؤولًا عن تفسير المثيرات التواصلية الإشارية[١] (على وجه التحديد، الأقوال الملفوظة) إلى حدوث تحول في القضايا التداولية التي تتبعها وأنواع التفسير المقدّمة. وتُوازن كارستون، آخذةً هذا المنظور الأخير بعين الاعتبار [٢]، بين مقترحين متميزين حول أنواع العمليات، وهندسة النظام (الأنظمة) المسؤول (ـة) عن استعادة معنى المتكلم (المعنى المتواصل به صراحةً وضمنيًّا).

وبشكل عامّ، فثمة منظوران للتداولية: «الفلسفي» و«العرفاني». فمن المنظور الفلسفي، كان الاهتمام بالتداولية مدفوعًا إلى حدّ كبير بالسعي إلى حلّ المشكلات والقضايا الواردة في علم الدلالة. ومن الأمثلة المألوفة على ذلك اهتمام غرايس (Grice) بالحفاظ على توازٍ دلالي وثيق بين العوامل المنطقية وما يُناظرها من عوامل في اللغة الطبيعية، من قبيل أدوات النفي والتخيير والشرط والتسوير والتعريف: «لا»، و«أو»، و«إذا»، و«كلّ»، و«بعض»، و«أل» (أداة التعريف)، في مواجهة ما يعدّ اختلافات كبيرة في معنى العناصر اللّسانية[٣].

أمّا التفسير الذي قدّمه غرايس فقد كان تداوليًّا، أي من جهة ما يحدث عندما تُستخدَم الدلالات المنطقية لهذه الألفاظ استخدامًا تواصليًّا منطقيًّا. ولننظر في مثال حرف العطف «و»:

١- صفة الإشارية (ostentive) تتعلّق بالأمور الظاهرة الحاضرة في المقام.

2- Robyn Carston, «Linguistic Meaning, Communicated Meaning and Cognitive Pragmatics». January 2002, Mind & Language 17(1-2):127 – 148.

3- Ibid.

1.a.Mary went to a movie and Sam read a novel.

١ .أ) ذهبت مريم لمشاهدة شريط سينمائي وقرأ سامي رواية.

1. b. She gave him her key and he opened the door.

١ .ب) أعطته مفتاحها وفتح الباب.

1.c. She insulted him and he left the room.

١ .ج) شتمته وغادر الغرفة[١].

فلئن بدا المثال (أ) عاكسًا العلاقة المباشرة والوظيفية المتناظرة للحقيقة الواقعة، فقد بدا المثالان (ب) و(ج) ينقلان علاقة غير متماثلة أقوى: التسلسل الزمني في (ب) والعلاقة السببية في (ج).

وتبدو الخيارات الدلالية لاعتبار هذه الأمثلة غير جذابة: إمّا القول بغموض ثلاثي الاتجاهات (ومن ثم وجود ثلاثة عناصر معجمية «ثلاث واوات»[٢]، واحدة منها فحسب متطابقة معنويًّا مع عامل الربط المنطقي)، أو القول بأنه عنصر واحد ذو دلالات أغنى بكثير من العامل المنطقي، إذ إنه يتضمّن خصائص زمانية وسببية. ومع ذلك، لا يتعيّن علينا قبول أيٍّ من هذين الخيارين.

وتحتفظ المقاربة الغرايسية بفكرة مفادُها أن اللغة الطبيعية لغة وظيفية لا لبس فيها وتشرح الروابط الأكثر ثراءً بوصفها دالّة من القواعد المناسبة المتعلقة بممارسة التحادث؛ إذ ما «تقوله» الكلمات (دلالات الأقوال) وما يعنيه المتكلم يختلفان. لذلك، ففي الحالة (١ ج)، على سبيل المثال، «ما قيل»، أو القضية التي تم التعبير عنها، هي ربط وظيفي للحقيقة بينما نستنتج، على أساس اعتبارات إخبارية تواصلية و/ أو المناسبة، أنّ ما يقصده المتكلم أن هناك علاقة سبب ونتيجة بين العنصرين الموصولين (المربوطين):

ما قيل: س و ص

ما قُصِدَ: ص نتيجة لـ س

---

١ – خدمةً لصحّة الاستدلال ترجمنا المثال مستعملين حرف (الواو)، والأولى في اللغة العربية أن نأتي بالفاء التي تفيد علاقة السبب والنتيجة.

٢ – لو توسّعنا في مقارنة مع النحو العربي لذكرنا واو الحال وواو المعية وواو القسَم...

ويتمثّل دور التداولية أساسًا في سحب أيّ عنصر من عناصر المعنى المفهوم، يكون من شأنه أن يُعقّد الدلالات أو أن يتداخل مع أوجه الشبه المأمولة بين المنطق واللغة الطبيعية. وأمّا القضية المقصودة فهي استلزام محادثي واستلزامات، هي نتيجة اعتبارات تقع خارج اللغة، مثل الملاءمة التواصلية، وليس لها أي تأثير في شروط صدق القول.

فكلّ حالة من حالات الربط بالواو العاطفة في المثال (١) تُعدُّ صحيحة، ما دامت الجمل المعطوفة صحيحة. ومن هذا المنظور يقتصر دور المعايير التواصلية (الصدق، الإخبار، المناسبة، إلخ) على الاشتقاق الاستدلالي للاستلزامات؛ أمّا الجوهر المركزي المستوفي لشرط الصدق في القول فيُعطى دلاليًّا. ولقد استعمل علماء الدلالة استهلال غرايس بالاستلزام استعمالًا واسعًا دفاعًا عن تحليل دلالي مفصّل لبعض التعبيرات اللغوية الطبيعية.

ولقد أدّى ظهور التداولية العرفانية، وتحديدًا مقاربة المناسبة النظرية، إلى حدوث اتجاه مختلف إلى حدّ ما: إذ «التداولية» هي:

١) قدرةٌ للعقل، وضرب من ضروب أنظمة معالجة المعلومات، وهي نظامٌ لتفسير ظاهرة معيّنة في العالم، ألا وهي السلوك التواصلي البشري. إنها موضوعٌ مناسب للدراسة في حدّ ذاته، لم يعد يُنظر إلى التداولية على أنها مجرّد ملحق بعلم دلالة اللغة الطبيعية. وضمن هذا الإطار العرفاني - العلمي، يكون هذا النوع من النظريات التداولية مسؤولًا عن توفير مصادر للأدلّة ولمعايير الملاءمة تختلف تمام الاختلاف عن نظيرتها الخاصّة بأيّ مقاصد فلسفية) تكمن وراءها (أي إنها تطابق نظام «نظرية العقل» العامة)؛

٢) والتداولية كذلك نظامٌ لفهم السلوك التواصلي؛ أي للتعرف إلى ما يحاول منتج السلوك الظاهر التواصل في شأنه.

٣) وهي منصرفةٌ إلى فهم السلوك التواصلي اللغوي على وجه التحديد.

ومن الواضح، بغضّ النظر عن أيٍّ من هذه المجالات يُتخذ مجالًا للتداولية، أنّ التواصل اللغوي مندرج فيه، لذلك يجب أن يكون ثمة تفاعُل مع علم دلالة اللغة الطبيعية، ولكن في هذه المقاربة الموجَّهة عرفانيًّا نحو التداولية، لا يُعدُّ علم دلالة اللغة الطبيعية نقطة انطلاق البحث.

ويؤيّد تقدير نظرية المناسبة الموقف الثاني: مجال التداولية هو فئة طبيعية من الظواهر البيئية، تلك الظواهر الخاصة بالمثيرات الظاهرة (= التواصلية)؛ الكلمات المنطوقة هي القضية المركزية، ولكنها ليست الحالة الوحيدة، وغالبًا ما تكون مصحوبةً في حدّ ذاتها بإيماءات إشارية للوجه واليدين والصوت وغيرها، والتي ينبغي تفسيرها معًا إذا ما أراد المرء أن يستنتج بشكل صحيح ما يجري التواصل في شأنه.

ويستدعي الانتقال من منظور «الربط الدلالي» إلى منظور «النظام العرفاني» لنظرية المناسبة إجراء مجموعة من التغييرات؛ إذ تختلف مكونات النظرية إلى حدّ بعيد عن مكونات نظرية غرايس وسائر التوصيفات الفلسفية، وهي تشمل العمليات العرفانية الفورية، وتمثيلات المدخلات والمخرجات، وجهد المعالجة والتأثيرات العرفانية. وما عاد يُنظر إلى ظاهرة الاستلزام المحادثي بصفتها «أداة مفيدة للتحليل الفلسفي»، بل بوصفها مستوى تمثيليًّا، مشتقًّا بطريقة معيّنة ويؤدّي دورًا خاصًّا في عملية الفهم. ويُنظر إلى دلالة نوع التعبير اللغوي المستخدم في قول من الأقوال، وعلى الرغم من أهميتها الحاسمة في الفهم، على أنّ لها مجرّدَ دورٍ واضح، وما هو بالدور المحدِّد بشكل كامل، في تحديد ما قام المتكلم بتوصيله بشكل صريح (أي «المقول»). وهذا الأمر أوضح ما يكون في حالة الأقوال ما دون الجملة، التي يزخر بها التواصل الواقعي.

ولْننظر في الحالة العادية الآتية: إنه وقت فطور الصباح، وعندما أذهب إلى المطبخ، أرى رفيقي يبحث في الرفوف السفلية من الخزانة؛ وبما أنني أعرف عاداته في الفطور، وأعتقد أنه يبحث عن علبة مُرَبّى البرتقال فإنني أقول له:

(٤) على الرفّ العلوي.

«على الرغم من أنّ الجملة التي قلتها هنا (مثلما تقول روبين كارستون) هي شيء من قبيل: إنّ مُربّى البرتقال موجود على الرفّ العلوي، فإن المدخل اللغوي الدلالي للمعالج التداولي هو، بأيّ حال من الأحوال، أيُّ معنى تضفيه اللغة على ذلك المركّب بالجرّ، أبعد ما يكون عن الشكل القضوي المنطقي الكامل؛ إذ يتكون من مجرّد موقع المكون (الذي يشير إلى خاصّية معيّنة)»[1].

1- Robyn Carston, «Linguistic Meaning, Communicated Meaning and Cognitive Pragmatics». January 2002, Mind & Language 17(1-2):127 – 148.

وبالنظر إلى ذلك، تستنتج كارستون أنه «بناءً على المفهوم العرفاني الخاصّ للتداولية المعتمد هنا، فقد استُنتج محتوى المقصد التواصلي في الغياب التامّ لأيّ مادّة مشفّرة (على سبيل المثال، على أساس مجرّد حركة الوجه أو اليد الظاهرة)، فإنه ليس من المستغرب أنه عندما يتعلق الأمر برمز ما، فإنه لا يحتاج إلى أكثر من تقديم أي أدلّة، مهما كانت، فيحكم المتكلم بضرورة توجيه العملية الاستنتاجية نحو الاتجاه الصحيح. ولا يتمّ توجيه العنصر المرمَّز لغويًّا للكلمة بشكل عام إلى تحقيق أعلى درجة ممكنة من التصريح، بل نحو إبقاء مجهود المعالجة أقلّ (ليس أكثر من ضروري لاستعادة التأثيرات العرفانية المقصودة)، ومن ثمّ فإن المعلومات المنشَّطة بوضوح بالفعل في عقل المخاطَب («علبة مربّى البرتقال هنا في مكان ما»، على سبيل المثال) لا يُعطى لها تعبير لغوي في كثير من الأحيان»[1].

وقد ذهب ماركوس تاندل إلى «أنّ الفكر واللغة الاستعاريَّيْن يُعدَّان من الظواهر المعقدّة التي لا يمكن اختزالها في شكل واحد من التّمثيل. وهكذا يمكن القول مرّة أخرى إنّ نظريّة المناسبة واللّسانيّات العرفانيّة تكمّل إحداهما الأخرى»[2].

فالتهجين معطى ضروريّ وأداة منهجيّة مساعدة في تحليل ما يقوم عليه الفكر المجازي واللغة بشكل عامّ من تركّب أو تعقّد.

بقي ثمّة تساؤل إبستيمولوجيّ يتعلّق باندراج السّياق في العرفان أم العرفان في السّياق. وقد وجدنا دراسات توسّع دائرة السياق وأخرى تضيّقها بحسب المنظور العرفاني الذي تتبعه كلّ منها[3]. بل لقد بيّن غازدار (Gazdar) وغيره من الباحثين أن التمييز بين الاعتماد على السياق والاستقلال عنه يؤدّي دورًا في كلّ مستوى من

1- Carston, Ibid.

2- Markus Tendahl. 2009. A Hybrid Theory of Metaphor: Relevance Theory and Cognitive Linguistics. Palgrave Macmillan, p254.

٣- يقف الدارس على منظورات طريفة للسياق منها ما يُضفي عليه بُعدًا عرفانيًّا، فيُصبح السياق بمنزلة «عقول أخرى». انظر كتاب:

Talmy Givon. 2005. Context as Other Minds: The Pragmatics of Sociality, Cognition and Communication.

مستويات النظرية اللسانية، ولا يتعلق الأمر بالتداولية فحسب[1]. ولئن رأى القائلون بنظرية المناسبة أن «لكل قول مجموعة متنوعة من التفسيرات المحتملة التي هي مزيج من محتوى صريح وسياق ومعان ضمنية»[2]، فكيف يرى أصحاب وجهة النظر التهجينية الأمر؟

في البداية يمكن تحديد مجال اهتمام التداولية العرفانية بأنه يتمثل في العلاقة المتبادلة بين التداولية والإدراك. ولمّا كانت التداولية مرتبطة بـ «المعنى في السياق»[3]، فإن ذلك يستتبع أن تركز التداولية العرفانية على الجوانب العرفانية لفهم المعنى في السياق. وهذا يتصل بإنتاج اللغة وفهمها، ويتعلق على وجه الخصوص بأحد الأسئلة الرئيسة التي عمل التداوليّون على الإجابة عنها: ما القدرات والعمليات العرفانية اللازمة لنكون قادرين على بلوغ «ما يمكن قوله أو يجب أن يقال» في سبيل بلوغ «المقصود» على أن يكون بلوغ «المقصود» على أساس «ما قيل» (المَقُول)؟ ويُوافق هذا المفهوم للتداولية العرفانية، إلى حدّ كبير، المفهوم الذي اقترحه برونو بارا (Bara)؛ إذ يعرفها بأنها «دراسة للحالات الذهنية للأشخاص الذين يتعرضون للتواصل»[4]. ومع ذلك، فإن التصوّر الحالي للتداولية العرفانية هو من ناحيةٍ أكثرُ تحديدًا من التصوّر الذي اقترحه بارا من حيث إنه يركز على «فهم المعنى» بدلًا من «التواصل» على هذا النحو، وهو من ناحية أخرى أعمُّ من حيث إنه لا يتحدّث عن «الحالات الذهنية»، ولكن عن «الجوانب العرفانية» بشكل عامّ[5].

1- Sophia S.A Marmaridou. 2000. Pragmatic meaning and cognition, Amsterdam, John Benjamins, p 26.

2- Ian Mackenzie. 2002. Paradigms of Reading: Relevance Theory and Deconstruction, Palgrave Macmillan, p 1.

3- Bublitz, W., & Norrick, N. R. (Eds.). 2011. Foundations of pragmatics. Berlin: De Gruyter Mouton, p4.

4- Bruno Bara. 2010. Cognitive Pragmatics: The Mental Processes of Communication, London, Cambridge, p1.

5- Hans-Jörg Schmid. 2012. «Generalizing the apparently ungeneralizable. Basic ingredients of a cognitive-pragmatic approach to the construal of meaning-in-context». In: Hans-Jörg Schmid, ed., Cognitive Pragmatics. Handbooks of Pragmatics Vol. 4. Berlin etc.: Mouton de Gruyter, 3-22.

مقاربة ولسون (٢٠١١)

أنشأت دردري ولسون (D. Wilson) مقالة بعنوان: «المتوازيات والاختلافات في معالجة الاستعارة في نظرية المناسبة واللسانيات العرفانية»[1] حاولت فيها تسليط الضوء على وجوه التكامل الممكنة بين نظرية المناسبة واللسانيات العرفانية. إذ تشير ولسون إلى أنّ «لكثير من الثقافات مجموعة من استعارات الزهور (مثل الأقحوان والزنبق والبنفسج والورد) والتي يتمّ إطلاقها عادة على النساء»[2]. ومن منظور اللسانيات العرفانية، قد يُنظر إلى هذه الاستعارات اللغوية على أنها انعكاسات سطحية لنظرية الاستعارة المفهومية الأساسية هي الزهور، بناءً على التوافقات المنهجية بين مجالات النساء والزهور. وتُعدُّ هذه الاستعارات اللغوية من منظور نظرية المناسبة، أصلًا في الاستخدامات الإبداعية للّغة لأغراض التواصل الانتهازية، والتي إذا ما تكرّرت في كثير من الأحيان بما فيه الكفاية، فقد تؤدّي إلى إنشاء توافقات منهجية بين مجالات النساء والزهور. هنا مرّة أخرى، ثمة سؤال حقيقي حول إذا ما كانت «التطبيقات المفهومية العابرة للمفاهيم تنشأ في استخدام اللغة، وإلى أيّ مدى يكون ذلك، ومن ثمّ فإنه ينبغي توضيح أمرها جزئيًّا على الأقلّ من الناحية التداولية»[3].

وحدّدت ولسون هدفها من ورقتها بالقول: «إنّ نظرية المناسبة تقدّم بديلًا حقيقيًّا للمقاربات اللسانية العرفانية للاستعارة، ويمكن أن تكمل هذه الأساليب بطريقتين على الأقل:

- أوّلًا، من خلال بيان كيف يمكن أن تنشأ بعض الاستعارات على أنها استخدامات إبداعية فضفاضة للغة،
- ثانيًا، من خلال بيان كيف أن لفكرة خلق الاستعارات اللغوية مفاهيم «مخصّصة» جديدة آثارًا مثيرةً للمعالجة اللسانية العرفانية للاستعارة»[4].

1- Deirdre Wilson. 2011. «Parallels and Differences in the Treatment of Cognitive Linguistics», Studia Linguistica Universitatis Iagellonicae Cracoviensis; Kraków Iss. 128, (2011): 195-213.

2- Deirdre Wilson. 2011. «Parallels and Differences in the Treatment of Cognitive Linguistics», p198.

3- Wilson. 2011, Ibid.

4- Wilson. 2011, Ibid.

وتشير ولسون إلى أنّ كلًّا من منظّري نظرية المناسبة واللسانيّين العرفانيّين يرون أنّ الاستعارة عاديّة وطبيعيّة، في حين أنهم يختلفون في الأسباب التي يعلّلون بها هذا الرأي [1].

فأمّا اللسانيّون العرفانيّون فيرون أنّ علّةَ انتشار الاستعارة في اللغة انتشارُها في الفكر؛ إذ يسلّم لايكوف وجونسن بأنّ الاستعارة شأن فكري بالأساس، وليست شأنًا لغويًّا إلّا بسبب اشتقاقها من اللغة. ووفق هذه المقاربة تُعالَج الاستعارات اللغوية بصفتها انعكاسات سطحية لتقاطعات تصوّرية كامنة بين مجالات عرفانية مختلفة (مثل مجالات شؤون الحب والرحلات/ النظريات والبنايات/ الحجج والقتال)، ولها جذورها في الإدراك لا في التواصل.

أمّا منظّرو نظرية المناسبة فيرون أن الاستعارة تنشأ طبيعيًّا في التواصل اللساني، بصفتها لغةً مستعمَلةً بشكل حرّ في محاولة لإبلاغ أفكار معقدة قد تكون غامضة، لكنها لا تحتاج إلى أن تكون استعاريةً في ذاتها. وفي هذه المقاربة ثمّة استرسال لحالات بين الكلام الحرفي، والكلام الحرّ، والمبالغة (hyperbole)، والاستعارة، فليس أحدٌ منها بالضرورة انعكاسًا لأيّ تطبيق مفهومي مسبق [2].

وقد بيّنت ولسون أنّ منظّري نظرية المناسبة واللسانيّين العرفانيين ظلّوا إلى وقت قريب مهتمّين بتطوير مقارباتهم وتطبيقها أكثر من اهتمامهم بعقد مقارنات مع مقاربات أخرى. ويمثّل رايموند جيبس (Raymond Gibbs) استثناءً في هذا الصدد، إذ يُعدّ عمله التجريبي رائدًا في تحديد عناصر من اللسانيات العرفانية ونظرية المناسبة، وكان له تأثير في كلتيهما. ويرى جيبس وماركوس تاندل في ورقتين نُشرتا عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٨ أنه بصرف النظر عن بعض الاختلافات الأساسية، فإنه يمكن النظر إلى نظرية المناسبة واللسانيات العرفانية بصفتهما توفّران مقاربتين متكاملتين للاستعارة أكثر من كونهما متناقضتين، وشرع الباحثان في بيان كيف يمكن التوليف بينهما [3].

1- Wilson. 2011, Ibid, p196.
2- Wilson. 2011, Ibid, p196.
3- Wilson. 2011, Ibid, p196.

وقد اقترحت ولسون بعض الطرائق التي يمكن عبرها التوليف بين مقاربتي الاستعارة تداوليًّا (نظرية المناسبة) وعرفانيًّا (اللسانيات العرفانية)، منها المصالحة بين وجهتي النظر اللتين تبدوان غير متوافقتين لكل من منظري نظرية المناسبة واللسانيين العرفانيين عن أصل الاستعارات؛ وذلك بالقول إن بعض الاستعارات تنشأ في اللغة وبعضها الآخر ينشأ في الفكر. ويهتمّ كلّ فريق بصنف مختلف من الاستعارات؛ إذ يوفّر منظّرو نظرية المناسبة تحاليل كثيرة لأمثلة الاستعارة من قبيل (أمثلة منقولة بتصرّف عن ولسون):

(١) أ- زيد حاسوب.

ب- هند وردة برّية.

ج- سعاد ملاك.

ومثل هذه الأمثلة معهودة في البلاغة التقليدية. أمّا اللسانيّون العرفانيّون فهم أكثر عناية بأمثلة من قبيل:

(٢) أ- زواج زيد يرتطم بالصخور. (الحُبّ رحلة)

ب- لقد دمّر دفاعي عن فكرتي. (الحِجاج قتال)

ج- لقد تداعت نظريّتك. (النظريات بنايات)

وهي أمثلة يرون أنها تعكس تطبيقات مفهومية عابرة للمجالات العرفانية[١].

وتُعلّق ولسون بأنّ «التحدّي الذي يعترض أيّ شخص يسعى لتوحيد النظر إلى الاستعارة يتمثل في بيان أنّه يمكن تحليل صنفي الأمثلة بالطريقة نفسها»[٢].

وتشير ولسون إلى أنّ هدف التصوّر التداولي للاستعارة يتمثل في «شرح كيفية إدراك السامع للمعنى الضمني للقول الاستعاري في السياق. فبحسب نظرية المناسبة، فإنّ الاستعارات اللغوية تُؤَصَّل بصفتها استعمالات حرة للّغة، حيث تُستعمل كلمةٌ أو جملةٌ لتوصيل مفهوم مخصوص أوسع (أعمّ) من المعنى المعجمي المشفَّر. وفي استعارة: زيدٌ

1- Wilson. 2011, Ibid, p197.

2- Wilson. 2011, Ibid, p197.

حاسوبٌ، على سبيل المثال، فإن المعنى المعجمي المشفّر لكلمة (حاسوب) هو ضرب من الآلات المستخدمة في معالجة المعلومات، ولكن المقصود في تلك الاستعارة ليس ذاك المعنى المعجمي، بل شخصًا يتوفر على بعض الخصائص الموسوعية للحواسيب (كأن يعالج المعلومة بدقّة، أو أن يكون مفتقرًا للحسّ المشترك، أو للحدس، أو للمشاعر الإنسانية، وهلمّ جرًّا). فما يُتلفَّظ به في ذلك المثال (زيدٌ حاسوبٌ) هي مناسبة خاصة يمكن تقديمها في ما يأتي، حيث إنّ الحاسوب مفهوم مخصوص واسع يشتمل على الحواسيب وبعض الناس:

(٤) أ- **معنى المتكلم الصريح**: زيدٌ حاسوبٌ*

ب- **الاستلزامات**: يفتقر زيد إلى الأحاسيس، يعالج المعلومات كما ينبغي (إلخ.)»[١]

وبحسب وجهة نظر ولسون[٢] فإنّ معالجة نظرية المناسبة للاستعارة تُعدُّ جزءًا لا يتجزّأ من مقاربة أكثر عمومية في التداولية المعجمية التي تستند إلى الافتراضات الخمسة الآتية:

١) أولًا، المعنى اللغوي للكلمة هو مجرّد دليل (أو إشارة clue) لمعنى المتكلّم، والمفهوم الذي يتمّ توصيله باستعمال كلمة يختلف عادةً عن المعنى المعجمي.

٢) ثانيًا، ما الاستعارة إلّا واحدةٌ من الطرق العديدة التي يمكن من خلالها تعديل المعاني المعجمية في الاستعمال. قد يتمّ إبلاغ المفهوم عن طريق استعمال كلمة أضيق (أكثر تحديدًا) أو أوسع (أعمّ) من المعنى المعجمي (أو قد يكون أضيق في بعض الجوانب وأوسع نطاقًا في جوانب أخرى، كما هي الحال في الاستعارة).

٣) ثالثًا، ثمّة استرسالٌ لحالات التوسيع، يتراوح من الاستعمال الحرفي الصارم، مرورًا بظلال مختلفة من التقريب إلى المبالغة والاستعارة، مع عدم وجود نقطة فصل حادّة بينها.

٤) رابعًا، تُفسَّر كل هذه الحالات بالطريقة نفسها: لا توجد مبادئ أو آليات تداولية خاصة تنطبق على الاستعارات حصريًّا.

1- Wilson. 2011, Ibid, p-p198-199.

2- Wilson. 2011, Ibid.

٥) خامسًا، على عكس ما يُفترض عمومًا في التداولية الغرايسية وفلسفة اللغة، فإن المفهوم الذي يتمّ توصيله باستخدام كلمة ما يسهم في ما يَنشَط المتكلم لإثباته (أي محتوى القول المستوفي شروط الحقيقة)، وليس فقط لما هو مستلزَم (implicated). ونظرًا إلى أنّ الاستخدامات الاستعارية للغة - تمامًا مثل الاستخدامات الحرفية الدقيقة - تسهم في المحتوى المستوفي شروط الحقيقة وتندرج في نطاق الروابط المنطقية، فإنه لا يمكن تجاهلها بوصفها هامشية بالقياس إلى الاهتمامات الحقيقية للّسانيات [١].

وقد تركت ولسون الباب مفتوحًا لقراءات أخرى ومقاربات ممكنة للعلاقة بين المنظور التداولي للاستعارة والنظرية اللسانية العرفانية لها، فكتبت: «وآمل أن توفر الصورة الناتجة أساسًا للمناقشة في المستقبل وتحفز على إجراء مزيد من البحوث حول العلاقات المحتملة بين المقاربتين»[٢].

مقاربة شميد للتداولية العرفانية

ميّز هانز يورغ شميد[٣] بين وجهتي نظر تبنّاهما اللّسانيّون في دراستهم التداولية العرفانية: تركّز الأولى على التحدّيات التي تقف أمام هذا المنظور، فيما تعدّ وجهة النظر الثانية أنّ عرفانيّةَ التّداوليّةِ أمرٌ مفروغٌ منه:

فبالنسبة إلى بعض اللّسانيين - خاصّة أولئك الذين يدرسون ما يمكن تسميته «النحو الخالص» بهدف إنتاج تمثيلات صورية لبنيته - قد تكون فكرة وجود نظام لغوي في الواقع يحمل اسم التداولية العرفانية فكرة مرعبة. إنّ تزاوج مقاربتين لدراسة اللغة، إحداهما اللسانيات العرفانية والأخرى التداولية، تُعرف كل منهما بتحدّيها كلّ محاولات صياغة قواعد وتعميمات صارمة وسريعة، قد لا يؤدّي إلّا إلى مزيج هجين يجسّد التخصيص (انعدام قابلية التعميم) والانزلاق والغموض فحسب. إنّ رد الفعل المفهوم يحدّد بدقّة طبيعة التحدّي الذي تواجهه التداولية العرفانية؛ ذلك التحدّي الذي يقوم على تعميم ما يبدو أنه لا يقبل للتعميم. في حين أنّ العمليات العرفانية،

1- Wilson. 2011, Ibid.

2- Wilson. 2011, Ibid.

3- Schmid, Loc. Cit, Op. Cit.

بحكم تعريفها، تنفذ في عقول فردية، مما يجعلها إلى حدّ كبير خاصّة، وعلى الرغم من أن العمليات العملية، مرة أخرى من حيث المبدأ بشكل يزيد أو ينقص، إنّما تعتمد على السياق، ومن ثم فإنه لا يمكن التنبؤ بها إلى حد ّكبير، فإن الهدف من البحث هو تحديد المبادئ والعمليات التداولية العرفانية العامّة التي تشكّل أساس فهم المعنى وتفسيره في السياق وتحدّدهما.

ويبدو أن مجموعة ثانية من اللسانيين – أولئك الذين لديهم منزع «تداولي» – ترى أن تعبير التداولية العرفانية، على الأقل بمعنى من المعاني، ضرب من الحشو (تحصيل الحاصل). وبالفعل، فإن قراءة بعض الأمّهات في الدراسات التداولية مثل دراسات غرايس (١٩٧٥) عن الاستلزام، أو وصف سيرل (١٩٧٥) للخطوات العشر التي ينبغي على المخاطَبين اتباعها للوصول إلى تفسير الأعمال القولية غير المباشرة، توقفنا على أنّ الانطباع القائل بأنّ التداولية كانت عرفانية طوال الوقت قد جرى إثباته بوضوح[١]. ويقدّم عنوان كتاب سبيربر وولسون الأساسي «المناسبة: التواصل والإدراك» (١٩٨٦، الطبعة الثانية ١٩٩٥) وصياغتهما مبدأ عرفانيًّا هو المناسبة إلى جانب مبدأ التواصل تعزيزًا لذلك الانطباع في هذا الصدد. ومع ذلك، فإنه لا يمكن أن يكون ثمّة شكّ في أنه لا الشقّ الأنجلو أمريكي «الضيّق» من التداولية، ولا الشقّ «القارّيّ [الأوروبي]«العريض» منها بمتجذّر في المقاربات علم النفس أو العلوم العرفانية، بل إنّ كلا الشقّين متجذّر في المقاربات الفلسفية ومقاربات العمل النظرية والاجتماعية. وتشير العلامات الرئيسة للمقاربة العلمية؛ أي أسئلة البحث والموضوعات والأساليب وأنماط الحجاج، بوضوح شديد إلى أن العلماء والباحثين الذين يعملون في مجال التداولية لا يستهدفون تقليديًّا الناحية النفسية، ناهيك عن النماذج «الواقعية» لتفسير معنى في

---

١ – يذكّرنا هذا التحليل بما ألفينا عليه الباحث اللساني الفرنسي جلبار لازار من عدّه من يقول عن اللسانيات إنّها عرفانية، واقعًا في نوع من الحشو؛ إذ لا تزيد صفة «العرفانية» غير تحصيل حاصل، فما كانت اللسانيات لتكون غير عرفانية. فكأنّ إطلاق تلك الصفة عليها ضرب من الفضول. انظر مقالته:

Gilbert Lazard. 2007. «La linguistique cognitive n'existe pas». Bulletin de la Société de linguistique de Paris CII/1: 3-16.

وقد أنشأت كاترين فوكس مقالة جوابية على وجهة نظر لازار:

Catherine Fuchs. 2009.«La linguistique cognitive existe -t-elle?», Quaderns de Filologia. Estudis lingüístics. Vol. XIV: 115-133.

السياق، ولكنهم يعطون الأولوية للمعايير التي ينبغي توافرها في النظرية من قبيل: بساطة النظرية وأناقتها وقوتها الوصفية والتفسيرية [١].

ويشير شميد إلى مقاربات يُمكن عدُّها تداولية عرفانية قبل الحرف؛ إذ «لا شكّ في أنّ النظريّات التداولية الكلاسيكية قد أنتجت مجموعة من المقاربات الموضوعة بحزم ضمن أُطُر العلوم العرفانية والأطر اللسانية العرفانية. ويمكن أن نعدّ هذه المقاربات في الواقع تداولية عرفانية بشكل واضح، على الرغم من أن هذا المصطلح لم يُطلق عليها حتى الآن»[٢].

وينطلق شميد إلى طرح سؤال جوهري: «ما هي إذن المطالب الأساسية التي يجب على النظرية العرفانية التداولية للغة أن تُلبّيها؟ أو بعبارة أخرى: كيف نصوغ عقلًا بشريًّا مهيَّئًا لفهم معنى في السياق؟»[٣]

لئن بدا تقديم قائمة عامة بالأسس العرفانية الرئيسية لتفسير المعنى في السياق (المتطلبات والقدرات العرفانية، انظر أدناه الجدولين، نقلًا عن شميد (مرجع مذكور)) مهمة ليست شاقة جدًّا، فإن العبرة في التعميم.

جدول المتطلبات العرفانية:

المتطلبات العرفانية	المصطلحات الأساسية
القدرة الحركية والحسية على إنتاج الأقوال وإدراكها	التعبير والإدراك السمعي
الكفاءة اللسانية	المعرفة النحوية والمعجمية
الاستعداد للانخراط في التواصل	التعاون، مبدأ التعاون

1- Schmid, Loc. Cit, Op. Cit.

2- Schmid, Loc. Cit, Op. Cit.
وفي هذا السياق يذكر شميد أسماء كثير من الباحثين الذين يرى أن بحوثهم تندرج ضمن التداولية العرفانية، حتى وإن
لم تُطلق عليها هذه التسمية. من هؤلاء: (Herbert Clark) و(Seana Coulson, Raymond Gibbs, Rachel
Giora, Sam Glucksberg, Anthony Sanford) بالإضافة إلى (Lynn Cameron, Alice Deignan) وكذلك
(Suzanne Beeke, Dorothy Bishop, Louise Cummings, Daniela O’Neill, Ann Reboul) بالإضافة
إلى (Mira Ariel, Simon Garrod, Morton Ann Gernsbacher, Art Graesser, Walter Kintsch, Ted
Sanders, Anthony Sanford and Rolf Zwaan)

3- Schmid, Loc. Cit, Op. Cit.

المتطلبات العرفانية	المصطلحات الأساسية
الكفاءة التداولية	الاهتمام المشترك، فهم المقصد
الكفاءة الاجتماعية والمعرفة الثقافية ومعرفة العالم	المعايير الاجتماعية، السياق الثقافي، الأطر، السيناريوهات، النماذج العرفانية والثقافية

جدول القدرات العرفانية:

القدرات العرفانية	المصطلحات الأساسية
تتبع المقام الظرفي والنص اللساني المصاحب	الإشاريات والعوائد الإحالية والاتساق والانسجام
تتبع أحوال المخاطبين الآخرين الذهنية	الأرضية المشتركة، وتبادل المعرفة، والمعرفة المتبادلة، وتصميم الجمهور، وإعطاء إمكانية جديدة للوصول، والأهمية الراهنة
ربط المدخلات اللغوية والمقامية وفهم معاني العناصر والقطع في المدخلات	توضيح المعنى (الاشتراك الدلالي)، وتتبع المرجع، ومعرفة العائد، والتخصيب التداولي، والتصريح
تفسير المعنى الضمني عرفيًّا (مع الأخذ بعين الاعتبار النص المصاحب، والسياق، والمعرفة التداولية والاجتماعية والثقافية)	الاستدلال، والاقتضاء، والاستلزام التواضعي [العُرفي] (وإلى حد ما، المحادثة المعممة)
تفسير المعنى الضمني سياقيًّا	الاستدلال، والتفكير، والاستلزام المحادثي (ولا سيّما المخصّص)
تفسير المعنى غير الحرفي تواضعيًّا [عُرفيًّا] وسياقيًّا	الاستلزام، والسخرية، والمزاح، والفكاهة، واللغة المجازية، والاستعارة، والمجاز المرسل (الكناية)

على أنّ من الباحثين في العرفانيّات من يرسم حدودًا لأفق الإفادة من المنوال المنطقي في الكشف عمّا في ذهن الذات المستدِلّة، «فبما أنّ زيدًا [المتكلّم الافتراضي] لم يقم عند وضع استدلاله [أيّ استدلال]، بأيّ معالجة رمزية، ولم يتبع ذلك في وصفه، فإنّ على المنظّر أن يتجنّب بالمثل تمثيل ذلك الاستدلال رمزيًّا»[1]. فالتمثيل الرمزي المنطقي، للاستدلال الذي جرى فعليًّا في الذهن، هو - بهذا المعنى - محض افتراض أو تشويه:

1- Dov M. Gabbay and John Woods. 2003. Agenda Relevance A Study in Formal Pragmatics, Amsterdam, Elsevier, p 459.

«ونظرًا إلى أننا نعرف القليل جدًّا عمّا يحدث داخل صندوق زيد الأسود، فمن المحتمل أنه على الرغم من أنه يمكن التعبير عمّا يحدث هناك وما يتمّ تقديمه في منوال منطقي، بمفردات مشتركة، فإنه لا يمكن استبعاد أنّ هذا القاسم المشترك يجري نبذه بسبب الغموض المنهجي؛ من ذلك أن الاستدلالات التي تحدث داخل صندوق زيد الأسود، إنّما هي استدلالات بمعنى مختلف عن تلك التي يمكن وصفها في النظام المنطقي، وهي شديدة الاختلاف في الواقع، بحيث يكون أفضل ما بوسع المنوال الصوري أن يأتيه فيما يتعلق باستدلالات الصندوق الأسود هو أن يقدّمها بصورة مشوّهة، على نحو خطير»[1].

وعلى الرغم من هذا التصوّر الريبي، الذي يقول به بعض الباحثين، فإننا نُلفي جلّ ممارسي التداولية العرفانية، يُصادرون، بمصفوفة رياضية-منطقية، على أنّ أداء الدماغ البشري يشبه عمل الحاسوب. ومن ثمّ، فإنّ المعالجة العملية للمعلومات تخضع للنظام المركزي للفكر والتداولية هي المسؤولة عن تحليل العمليات الاستدلالية العامّة، وهي كونية وليست خاصّة باللغة. وبذلك، فإنّ التداولية العرفانية تحاول الاهتمام بالصلات التي تنشأ بين اللغة ومستخدميها وتصبح أحد جوانب نظام أوسع لمعالجة المعلومات[2].

فإذا كان تاندل يذهب في تحليله وجهة نظره التهجينيّة بين العرفانيّات والتداوليّات إلى أن «الاستعارات التّصوّريّة يمكن أن تكون جزءًا من السّياق وتعزّز المعالجة من حيث أنّه يمكن تقليل الجهد العرفانيّ الذي يُحتاج إليه لمعالجة الاستعارة»[3]، فإنّ ذلك يقتضي أنّ العرفان (أو ضروبًا مخصوصة منه على الأقلّ) جزء من السياق العامّ، على اعتبار أنّ السياق يلمّ شمل جميع المكوّنات والعناصر التي تشارك في إنتاج المعنى. على الرغم من أنّ بعض الباحثين «يرون أنّ الاستعارات قد تتطلّب جهدًا عرفانيًّا كبيرًا في سياقات محايدة»[4].

لكن كيف يمكن احتساب إسهام كلّ عنصر في ذلك الإنتاج، وما نصيب كلّ مكوّن في توليد المعنى؟

1- Ibid.

2- Martine Bracops. 2006. Introduction à la pragmatique, Bruxelles, De Boeck.

3- Markus Tendahl. 2009. A Hybrid Theory of Metaphor: Relevance Theory and Cognitive Linguistics, Palgrave Macmillan, p 254.

4- Markus Tendahl. 2009. A Hybrid Theory of Metaphor, p 162.

ههنا تُطرح فرضيات تجريبية تقوم على قياس التنشيط العصبي للخلايا الحسّاسة المسؤولة عن نقل الإدراك بواسطة قنوات الجسد (حواسّه)، ونُظم معالجتها دماغيًّا.

وضمن هذه الفرضيات تبرز محاولات رصد الوقت الذي تقضيه الوحدة المعالجة في قراءة مكوّن خطابي ومن ثمّ تحليله وتأويله وفهمه. وهل يوجد احتساب دقيق للمعنى؟ وما حدود ذلك التشخيص الفيزيائي لمحتوى غير فيزيائي (المعنى).

وهذا يُرجعنا إلى المربّع الأوّل الذي تنضوي فيه نظريّة فتغنشتاين حول المعنى؛ إذ تحصره في السياق، وتجعله كامنًا فيه متجلّيًا في ظروف القول، لا في ذهن أو في بنية مجرّدة أو في نفس أو في عضو ذهني، مثلما تذهب إلى ذلك النظريّات المثالية والسلوكية والتوليدية، تمثيلًا.

وعلى الرغم من تهجين تاندل بين نظرية المناسبة والنظرية العرفانية، فقد كان واعيًا ببعض الفروق الجوهرية التي تفصل بين النظريتين، يقول: «يقع أكبر الفروق وأخطرها بين نظريّة المناسبة واللّسانيّات العرفانيّة على مستوى أساسيّ جدًّا. فكلا الإطارين النّظريّين يدّعي أنّه عرفانيّ، ولكنّ أفكارهما بشأن دور العرفان في التّواصل مختلفة إلى حدّ ما. إذ تزعم نظريّة المناسبة أنّ عرفاننا يتكوّن من وحدات مغلّفة عدّة. بل إنّ دان سبيربر [1] يدّعي أنّ عقولنا منظوميّة بشكل كبير مع العديد من الوحدات الصغرى المسؤولة عن المهمات الشّديدة التخصّص والمحدّدة بشكل واضح، مثل مَقْوَلة الحيوانات»[2]. ويشير تاندل إلى رفض اللّسانيين العرفانيّين مثل هذه الصّورة للعقل، وبدلًا من ذلك يقدمون صورة كلّية (شاملة) لإدراكنا وأجسادنا. وعلى وجه الخصوص، فإنّ اللّسانيّين العرفانيّين لا يعتقدون أن اللّغة تقع في وحدة مستقلّة. إذ تعدُّ اللّغة مجسدة؛ فعلى سبيل المثال، فإنّ البنى العصبيّة نفسها التي تُنشَّط في أثناء التنقل في العالم، يتم تنشيطها كذلك في أثناء إنتاج اللّغة وفهمها. وبشكل أكثر تحديدًا، يُعدُّ عمل

1- Dan Sperber. 1994. 'The Modularity of Thought and the Epidemiology of Representations.' In Hirschfeld, Lawrence A. and Susan A. Gelman, eds, Mapping the Mind: Domain Specificity in Cognition and Culture. New York: Cambridge University Press. 39–67, and ——. 2005. 'Modularity and Relevance: How Can a Massively Modular Mind be Flexible and Context-sensitive?' In Carruthers, Peter, Stephen Laurence and Stephen Stich, eds, The Innate Mind: Structure and Contents. Oxford and New York: Oxford University Press. 53–68.

2- Markus Tendahl. 2009. A Hybrid Theory of Metaphor: Relevance Theory and Cognitive Linguistics, Palgrave Macmillan, p 255.

جزء كبير من فهم اللّغة عمليًّا في مجال عمليّات المحاكاة. ومن ثمّ فإنّ الاختلافات بين نظريّة المناسبة واللّسانيّات العرفانيّة لا يمكن أن تكون أكبر فيما يتعلّق بهندستنا الذّهنيّة المزعومة. وبسبب هذه الاختلافات الكبيرة، فإنّه من الضّروريّ اختيار أحد الاقتراحيْن[1]. يقول تاندل: «أرفض فكرة المنظوميّة وأوافق على تقدير التجسيد السائد في اللّسانيّات العرفانيّة»[2]. وقد قدم تاندل العديد من الحجج لدعم الصيغة اللّسانية العرفانيّة، كما قُدّمت بعض الحجج لرفض مفهوم المنظوميّة. ومع ذلك فإنّ ما هو مهمّ بالنّسبة إلى النّظريّة الهجينة للاستعارة هو أنّ القرار الواضح لمصلحة موقف اللّسانيّات العرفانيّة لا يعني انهيار نظريّة المناسبة. ويضيف قائلًا: «في الواقع، فإنّني مع الرّأي الذي يقول إنّه لا يوجد سبب للاعتقاد بأنّ نظريّة المناسبة فحسب تعمل إذا قُبِلت ادّعاءاتها المتعلقة بمنظوميّة العقل. العنصر الوحيد في نظريّة المناسبة الذي يعتمد على مفهوم المنظوميّة هو فكرة الشّكل المنطقيّ»[3]. وينتهي بالقول: «وهذا لا أعدّه، مع ذلك، إشكاليًّا، لأنّه مثلما بيّنت سابقًا فإنّني أرى أنّ الشّكل المنطقيّ لا يؤدّي دورًا في النّظريّة النّفسية للّغة والتّواصل بأيّ طريقة كانت. ولم يجرؤ كثير من العلماء على العمل عبر الحدود الفاصلة بين اختصاصي نظريّة المناسبة واللّسانيّات العرفانيّة»[4].

بل إنّ الحديث عن جيل ثان من الدراسات العرفانية قد مكّننا من الوقوف على معطى مهمّ في سياق بحثنا يتمثّل في أن العرفان والتداوليات هما بمعنى من المعاني مكونات مندمجة في كل جوانب اللغة، مثلما تذهب إلى ذلك بريجيت نرليخ وديفيد كلارك [5].

وبحسب موشلير، فإنّ نظرية المناسبة تُعد صلة الوصل بين اللسانيات العرفانية والتداوليات؛ لأنها نظرية تقوم على جانب عرفاني وعلى جانب تداولي كذلك. لذلك يمكن القول تبعًا لموشلير:

1- Markus Tendahl, A Hybrid Theory of Metaphor, 2009, p 255-256.

2- Ibid, p256.

3- Ibid, p256.

4- Ibid, p256.

5- Brigitte Nerlich and David D. Clarke, Cognitive Linguistics and the History of Linguistics, in Dirk Geeraerts & Hubert Cuyckens (eds.): The Oxford Hand Book of Cognitive Linguistics, Oxford University Press, 2007, p-p. 589- 607.

انظر ترجمة حافظ إسماعيلي علوي للفصل المذكور: «اللسانيات الإدراكية وتاريخ اللسانيات»، مجلة أنساق، جامعة قطر، المجلد ١، العدد ١، مايو ٢٠١٧، ص-ص ٢٦٩-٢٨٩.

أ. إنّ نظرية المناسبة نظرية عرفانية؛ لأنّها تفسّر كيف يتمّ تخزين المعلومات اللازمة لمعالجة البيانات (في الذاكرات الطويلة والمتوسطة والقصيرة الأجل) وكيف يمكن الوصول إليها من خلال النظام العرفاني.

ب. وهي نظرية تداولية؛ لأنها تشرح كيف أن المعلومات التي توفرها الجمل، والتي لا تكفي للوصول إلى المقصد التواصلي للمتكلم، تنضاف إليها المعارف عن الوضعية. وبعبارة أخرى، فإن نظرية المناسبة تتبنى فكرة أن تفسير الأقوال لا يُحدِّده المعطى اللغويّ وحده[1].

النظرية الهجينة للاستعارة بين التداوليات واللسانيات العرفانية

نهتمّ في هذا البحث بالنظر في نظرية هجينة للاستعارة انطلاقًا من محاولتي ماركوس تاندل (M. Tendahl)، وحنّا ستوفر (H. Stöver) التهجينيّتين، ساعين إلى توظيفهما في قراءة التراث البلاغي العربي قراءة لا تنحو نحو التقويل أو التعسّف في التأويل أو الشطط في التمثيل، بل نسعى إلى ربط الصلة بين الجوانب الحيوية في كلّ منوال من المنوالين التراثي من جهة والتهجيني (تاندل، ٢٠٠٩) والتهجيني الجديد (ستوفر، ٢٠١٠)، من جهة أخرى بطريقة تحاول كسب رهان الفهم الأجود والوعي الأصوب، ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا.

ولعلّ مثل هذه المنظورات التهجينية مفيدة من جهة أنّها توقفنا على تعقّد الظاهرة الاستعارية، ومن شأن تلك المنظورات أن تذهب بنا بعيدًا في فهم أبعاد خفيّة أو محتجبة من تلك الظاهرة، لم يكن للمحلّل التقليدي أن يقف عليها مكتفيًا، على ما جرت عليه العادة، باستعمال مقاربة أحادية. وسنراجع النظر في التقاليد البلاغية العربية، للنظر في إمكان إيجاد ما يمكن أن يُقال في مثل هذه الإجراءات المنهجية الحديثة.

1- Jacques Moeschler, Linguistique et pragmatique cognitive. L’exemple de la référence temporelle, Le Gré des langues, 15, 1999, p-p.10-33.
Link: https://www.researchgate.net/publication/240093773

ونختصر النظر في المقاربتين التهجينيتين الآتيتين:

منوال تاندل التهجيني

يوظّف ماركوس تاندل مقاربتين مختلفتين (وإن كانتا مترابطتين من وجوه عديدة) يصوغ انطلاقًا منهما اقتراحه لمقاربة هجينة، مولّدة ليست محض تجميع لنقاط التقاء منظوري نظرية المناسبة (relevance theory) واللسانيات العرفانية (cognitive linguistics)، بل هي منتج يستخلص رؤية جديدة مشكّلة من منظورات سابقة ولكن لها خصوصيتها التي تجعلها أكثر اجتهادًا من التجميع وأبعد مدى من الانتقاء أو الاصطفاء.

وتفترض النظرية الهجينة للاستعارة أنّ للكلمات مؤشرات إلى ما يسمى المناطق المفهومية التي تكون بمنزلة مخططات لإنشاء مفاهيم مخصصة. وتحتوي هذه المناطق المفهومية على معلومات مستقلة عن السياق، تسمى النطاق المتأصل، ومعلومات تعتمد على السياق. وتكون مرتبطة عبر الموصلات بهياكل المعرفة الخارجية، مثل المجالات المفهومية، الاستعارات أو المجازات المرسلة، ومخططات الصور، والبرامج النصية، وغيرها. وهي عناصر من هياكل المعرفة الخارجية تُدخل في نهاية المطاف المفهوم المخصص، وتحدِّدُها عملياتُ الاختيار المناسبة. ولن تدخل في المفهوم المخصص إلّا العناصرُ التي تسهم في المناسبة العامة للقول. ولكي يكون العنصر الخارجي مناسبًا، ينبغي أن يكون الوصول إليه أمرًا ميسورًا. ولذلك، فإن أحد افتراضات النظرية الهجينة، المستوحى من نظرية المناسبة، يتمثل في أن الموصّلات تنشط إذا كانت بنى المعرفة الخارجية تتوافق مع الافتراضات التي تُبنى في البيئة العرفانية للشخص بشكل واضح. فإذا تمّ الكشف عن مثل هذا التوافق وفق درجة تفعيل كافية، فإنه قد يجري، من ثم، تفعيل الموصّلات وتحديد مفهوم مخصَّص من شأنه أن يصبح جزءًا من بنية شبكة أكبر تمثل المعنى. ومن ثم، فإن التوقّعات المناسبة تضطلع بأداء دور حاسم في توليد المعاني المجازية [1].

1- Markus Tendahl, A Hybrid Theory of Metaphor: Relevance Theory and Cognitive Linguistics, Palgrave Macmillan, 2009, p 5.

وقد توصّل تاندل إلى أنه من الواضح أن السياق يحدّد إذا ما كان يمكن معالجة استعارة بسهولة أو لا، وإذا ما كان يمكن للاستعارة أن تنتج العديد من الآثار العرفانية أم لا. سهولة التأويل في الغالب تعتمد على إذا ما كان بإمكاننا الوصول بسهولة إلى افتراضات سياقية يمكننا دمجها مع القول الاستعاري. ويعتمد عدد الآثار العرفانية بدرجة عالية جدًّا على عدد بنى المعارف الخارجية التي نصل إليها ونضع المفاهيم المخصصة مقابلها. ولأن المجالات المفهومية والاستعارات التصوّرية، وخطاطات الصور أو البرامج النصية، تتسم بالفرادة وتترابط بطرق معقدة لا يستطيع الباحثون وصفها إلا بصعوبة، لذلك فإنه من العسير تقديم إفادات دقيقة حول عدد الآثار العرفانية وأنواعها [١].

منوال حنّا ستوفر التهجيني الجديد

انطلقت حنّا ستوفر من منوال تاندل وسعت في أطروحتها (٢٠١٠) إلى طرح فهم للاستعارة يشرح الاستعارة في اللغة والفكر، فهم يقوم على الترابط بين الجانبين. إذ تُطوّر مقترح تاندل عبر ملاحظة أن كلّ صيغة من الصيغ التمثيلية المختلفة التي يُعتقَد أنها منخرطة في الفهم تُخصّص آليات المعالجة المناسبة. وترى ستوفر أن ذلك يكون ممكنًا باتخاذ إطار قالبي [٢].

ومجال النقد الذي توجّهه ستوفر إلى تاندل في مقاربته الهجينة يرتبط بضعف حظّ نظرية المناسبة في مقترح تاندل الهجين، ولذا تقترح ستوفر أطروحة تهدف إلى ملاحظة مبادئ نظرية المناسبة بدرجة أكبر من أطروحة تاندل [٣]. وترى ستوفر أن تاندل ذو توجّه لسانيّ عرفانيّ عمومًا. وبالخصوص، فإنه يتبنّى أهمّ أفكار نظريّة الاستعارة التصوّريّة/ المفهوميّة، أي إنّ الاستعارات في الذهن هي تطبيقات عابرة للمجالات، ترسخ في الذاكرة عبر تكرار الاستعمال [٤].

1- Tendahl, A Hybrid Theory of Metaphor: Relevance Theory and Cognitive Linguistics, p 246.

2- Hanna Stöver, Metaphor and Relevance Theory: A New Hybrid Model, A thesis submitted for the degree of Doctor of Philosophy of the University of Bedfordshire, 2010, p 9.

3- Hanna Stöver, Metaphor and Relevance Theory: A New Hybrid Model, p 166.

4- Stöver, Metaphor and Relevance Theory, p 166.

وترى ستوفر أن وجهة نظر تاندل تذهب إلى أنّ كلًّا من اللسانيات العرفانية ونظرية المناسبة سيربح إن دُمج بينهما. فمن ناحية أولى تفتقر اللسانيات العرفانية إلى تفسير العملية الفورية المتضمنة لآليات اختيار السمات في التأويل. وهذه مظاهر يبدو الفهم الاستكشافي لنظرية المناسبة أكثر إفادة فيها. أمّا نظرية المناسبة فهي تجني، من ناحية أخرى فائدة من النظر في طريقة التي يبدو ان استعارات مختلفة تترابط في الذاكرة، وهذا هو مجال تركيز نظرية الاستعارة التصوّرية/ المفهومية [١].

أمّا ستيف أزوالد فيرى أنّ نظرية المناسبة «منوال ضمن مناويل أخرى للتداولية العرفانية»[٢].

الخاتمة

توزّع الباحثون اللّسانيّون في دراستهم إمكان التوليف بين التداولية العرفانية: فرأى بعضهم أن الجمع بينهما ينطوي على ضرب من الهُجنة والتنافر، فيما عدّ آخرون أنّ عرفانيّةَ التّداوليّةِ أمرٌ مفروغٌ منه.

ولعلّه ممّا يقوّي حاجة كلّ منظور من المنظورين التداولي والعرفاني إلى الآخر أنّ الاستعارات، على سبيل المثال، قد تتطلّب جهدًا عرفانيًّا كبيرًا في السياقات المحايدة، ومن ثمّ فإنّ التحليل العرفاني يستفيد من الاستقصاء التداوليّ العميق.

ولعلّ بعض الباحثين على حقّ إذ أقرّ بقلّة عدد العلماء الذين تجرّأوا على العمل عبر الحدود الفاصلة بين اختصاصي نظريّة المناسبة واللّسانيّات العرفانيّة. فهذه المنطقة الرخوة تحتاج إلى مزيد الدرس للخروج بتعالقات مثمرة تُقطف من الجمع بين المنظورين التداولي والعرفاني، حتى وإن ظلّت التداولية «رافدًا نظريًّا» ضمن سائر العلوم العرفانية [٣].

1- Stöver, Metaphor and Relevance Theory, p 167.

2- Steve Oswald. 2007. Towards an interface between Pragma-Dialectics and Relevance Theory, Pragmatics & Cognition 15:1, p181.

٣- الأزهر الزنّاد، النصّ والخطاب: مباحث لسانية عرفنية، تونس، مركز النشر الجامعي/ دار محمد علي للنشر، ٢٠١١، ص ٨.

قائمة المراجع

العربية

١. الزنّاد، الأزهر، **النصّ والخطاب: مباحث لسانية عرفنية**، تونس، مركز النشر الجامعي/ دار محمد علي للنشر، ٢٠١١.

الأجنبية

1. Ambroise, Bruno. 2011. Le tournant cognitif en pragmatique Un aller-retour transatlantique et ses impacts philosophiques, Revue d'Histoire des Sciences Humaines, 2011, 25.
2. Bara, Bruno. 2010. Cognitive Pragmatics: The Mental Processes of Communication, London, Cambridge.
3. Bracops, Martine. 2006. Introduction à la pragmatique, Bruxelles, De Boeck.
4. Brown. Cecil H. 1977.Review of Kempson, Language in Society 7: 264.
5. Bublitz, W., & Norrick, N. R. (Eds.). 2011. Foundations of pragmatics. Berlin: De Gruyter Mouton.
6. Carston, Robyn.2002. Linguistic Meaning, Communicated Meaning and Cognitive pragmatics, January 2002, Mind & Language 17(1-2): 127 – 148.
7. Fuchs, Catherine. 2009.«La linguistique cognitive existe -t-elle?», Quaderns de Filologia. Estudis lingüístics. Vol. XIV: 115-133.
8. Gabbay, Dov M. and Woods, John. 2003. Agenda Relevance A Study in Formal Pragmatics, Amsterdam, Elsevier.
9. Givon, Talmy. 2005. Context as Other Minds: The Pragmatics of Sociality, Cognition and Communication.
10. Kempson, Ruth M. 1977. Semantic Theory. Cambridge: Cambridge University Press.
11. Lazard, Gilbert. 2007. «La linguistique cognitive n'existe pas». Bulletin de la Société de linguistique de Paris CII/1: 3-16.

12. Mackenzie, Ian. 2002. Paradigms of Reading: Relevance Theory and Deconstruction, Palgrave Macmillan.

13. Marmaridou, Sophia S.A. 2000. Pragmatic meaning and cognition, Amsterdam, John Benjamins.

14. Moeschler, Jacques. 1999. Linguistique et pragmatique cognitive. L'exemple de la référence temporelle, Le Gré des langues, 15, p-p.10-33.

15. Moeschler, Jacques. 2018. L'implicite et l'interface sémantique-pragmatique : où passe la frontière, Corela [En ligne], HS-25 | 2018, mis en ligne le 19 Juillet 2018, consulté le 31 août 2018. URL : http://journals.openedition.org/corela/6571

16. Nerlich, Brigitte and Clarke, David D. 2007. Cognitive Linguistics and the History of Linguistics, in Dirk Geeraerts & Hubert Cuyckens (eds.): The Oxford Hand Book of Cognitive Linguistics, Oxford University Press, pp589- 607.

17. Oswald, Steve. 2007. Towards an interface between Pragma-Dialectics and Relevance Theory, Pragmatics & Cognition 15:1.

18. Reboul, Anne. 1995. La pragmatique à la conquête de nouveaux domaines : la référence. In: L'Information Grammaticale, N. 66, 1995.

19. Schmid, Hans-Jörg. 2012. «Generalizing the apparently ungeneralizable. Basic ingredients of a cognitive-pragmatic approach to the construal of meaning-in-context». In: Hans-Jörg Schmid, ed., Cognitive Pragmatics. Handbooks of Pragmatics Vol. 4. Berlin etc.: Mouton de Gruyter, 3-22.

20. Sperber, Dan and Wilson, Deirdre. 1995. Postface to the Second Edition of Relevance: Communication and Cognition. Oxford: Blackwell.

21. Sperber, Dan. 1994. 'The Modularity of Thought and the Epidemiology of Representations.' In Hirschfeld, Lawrence A. and Susan A. Gelman, eds, Mapping the Mind: Domain Specificity in Cognition and Culture. New York: Cambridge University Press.39–67.

22. Sperber, Dan. 2005. ‘Modularity and Relevance: How Can a Massively Modular Mind be Flexible and Context-sensitive?’ In Carruthers, Peter, Stephen Laurence and Stephen Stich, eds, The Innate Mind: Structure and Contents. Oxford and New York: Oxford University Press. 53–68.

23. Stöver, Hanna. 2010. Metaphor and Relevance Theory: A New Hybrid Model, A thesis submitted for the degree of Doctor of Philosophy of the University of Bedfordshire.

24. Tendahl, Markus. 2009.A Hybrid Theory of Metaphor: Relevance Theory and Cognitive Linguistics. Palgrave Macmillan.

25. Wilson, Deirdre. 2011. «Parallels and Differences in the Treatment of Cognitive Linguistics», Studia Linguistica Universitatis Iagellonicae Cracoviensis; Kraków Iss. 128, (2011): 195-213.

فهرس الكتاب

مباحث لغوية ٣١

دراسات في اللّسانيّات العرفانيّة
الذّهن واللّغة والواقع

يُصدِر مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية هذا الكتاب ضمن سلسلة (مباحث لغوية)، وذلك وفق خطة عمل مقسمة إلى مراحل، لموضوعات علمية رأى المركز حاجة المكتبة اللغوية العربية إليها، أو إلى بدء النشاط البحثي فيها، واجتهد في استكتاب نخبة من المحررين والمؤلفين للنهوض بعنوانات هذه السلسلة على أكمل وجه.

ويهدف المركز من وراء ذلك إلى تنشيط العمل في المجالات التي تُنَبّه إليها هذه السلسلة، سواء أكان العمل علميا بحثيا، أم عمليا تنفيذيا، ويدعو المركز الباحثين كافة من أنحاء العالم إلى المساهمة في هذه السلسلة.

وتودّ الأمانة العامة أن تشيد بجهد السادة المؤلفين، وجهد محرر الكتاب، على ما تفضلوا به من رؤى وأفكار لخدمة العربية في هذا السياق البحثي.

والشكر والتقدير الوافر لمعالي وزير التعليم المشرف العام على المركز، الذي يحث على كل ما من شأنه تثبيت الهوية اللغوية العربية، وتمتينها، وفق رؤية استشرافية محققة لتوجيهات قيادتنا الحكيمة.

والدعوة موجّهة إلى جميع المختصين والمهتمين للتواصل مع المركز؛ لبناء المشروعات العلمية، وتكثيف الجهود، والتكامل نحو تمكين لغتنا العربية، وتحقيق وجودها السامي في مجالات الحياة.

الأمين العام للمركز

أ.د. محمود إسماعيل صالح



ص.ب ١٢٥٠٠ الرياض ١١٤٧٣
هاتف:٠٠٩٦٦١١٢٥٨٧٢٦٨ - ٠٠٩٦٦١١٢٥٨١٠٨٢
البريد الإليكتروني: nashr@kaica.org.sa




9 786038 221648